قدماء الإنجليز

وملحمة بيولف

الدكتور مجدي وهبة
مدرس بكلية الآداب — جامعة القاهرة

١٩٦٤

دار المعرفة
١٥ شارع صبري أبو علم - القاهرة

قدماء الإنجليز

وملحمة بيولف

الدكتور مجدي وهبة

مدرس بكلية الآداب — جامعة القاهرة

١٩٦٤

دار المعرفة

١٥ شارع صبري أبو علم - القاهرة

دراسة عن ملحمة بيولف
وحضارة قدماء الانجليز

تقـــديم

تعتبر ملحمة بيولف أول ملحمة بطولية في جميع آداب الغرب منـذ عهد الملاحم اليونانية واللاتينية القديمة . كما أنها تعتبر أول ملحمة أوربية دونت بعد ظهور المسيحية . ولهذا فهى تتضمن عناصر مسيحية جديدة بالنسبة للعصر الذى دونت فيه — كما تتضمن عناصر قبلية وثنية قديمة لا سبيل لمعرفة الـكثير منها إلا عن طريق ماورد عنها فى هذه الملحمة .

وقد كان ينبغى أن تترجم ملحمة بيولف إلى اللغة العربية منذ أمد طويل لأهميتها بالنسبة لتاريخ الأدب الأوربى ، وللأدب المقارن ، لما يبدو من تشابه بينها و بين الأدب الجاهلى الذى ظهر فى شبه الجزيرة العربية .

ومع ذلك فهذه هى أول ترجمة عربية للملحمة ، وقد راعيت جانب الدقة عند ترجمتها أكثر مما راعيت الجمال اللفظى .

و ينقسم هذا الـكتاب إلى قسمين ، القسم الأول و يتضمن دراسة عامة لحضارة قدماء الإنجليز ومجتمعهم قبل عهد الإقطاع ، والقسم الثانى يتضمن ترجمة دقيقة كاملة لنص ملحمة بيولف من اللغة الأنجلوسكسونية القـديمة مزودة ببعض الشروح والتعليقات التى توضح ما قد يكون فى حاجة إلى توضيح .

مايو ١٩٦٤ مجدى وهبه

(١)

اللغة الإنجليزية القديمة وأدبها

بدأ تاريخ اللغة الإنجليزية يتشكل ويتضح منذ وفدت إلى الجزر البريطانية ثلاث قبائل جرمانية هي : الأنجل ، والسكسون ، والجوت . ولا يعرف على التحديد بدء استيطان هذه القبائل للجزر البريطانية الا أنه يفهم من الوثائق القديمة أن هذا الاستيطان قد تم بوضوح منذ منتصف القرن الخامس الميلادى . والجزر البريطانية قبل ذلك ، ومنذ غزاها يوليوس قيصر سنة ٥٥ قبل الميلاد ، كانت مستعمرة رومانية تسود فيها اللغة اللاتينية ماعدا بعض سكان المناطق الجبلية المعزولة التى لم ينفذ اليها الاستعمار الرومانى فقد ظلوا يتكلمون باللغة السلتية القديمة .

وتغير هذا الوضع كله منذ غزت القبائل المذكورة الجزر البريطانية ، وكانت هذه القبائل قد قدمت من سهول ألمانيا الشمالية فى المنطقة القريبة الآن من حدود الدانيمارك ، ويطلق عليها الآن اسم « شلزويج هولشتاين » .

أما « الأنجل » فقد استقروا فى شمالى نهر التايمز من بدء الضفة الشمالية حتى جبال اسكتلندا الشمالية .

وأما « الجوت » فقد استوطنوا جنوب شرقى انجلترا .

وأما « السكسون » فقد استوطنوا الجزء الباقى من الضفة الجنوبية من نهر التايمز ، وبقيت بعض مناطق كان السلتيون لايزالون يقيمون فيها ،وهى المناطق

الغربية التى منها مملكة ويلز ، وأقصى الشمال من جبال اسكتلندا الشاهقة .

ولم يكن الغزو الذى قامت به تلك القبائل لهذه المناطق غزوا سهلا، فبالرغم من أن الغزاة لم يجدوا مقاومة كبيرة من المدن التى كانت زاخرة بالحضارة الرومانية، فإن الصراع ظل مستمرا بينهم وبين السلتيين البدائيين الذين لم يتأثروا بالحضارة الرومانية . ولقد تعاونت هذه القبائل بعضها مع بعض حينا ، واختلفت حينا آخر ، وكان اتفاقها واختلافها فى سبيل تكوين ممالك قادرة على حماية نفسها ، وكان من أهم هذه الممالك الشرقية التى نشأت عن هذه القبائل هى .

(١) نورثامبريا (٢) مرشيا (٣) انجليا الشرقية (٤) ويسكس
(٥) ساسكس (٦) ايسكس (٧) كنت (انظر الخريطة رقم ١)

واختلفت هذه الممالك فى الأهمية ، وتباينت قوى بعضها بالنسبة إلى بعض فى مختلف العصور والظروف. ففى القرن السابع مثلا كانت نورثامبريا أهمها جميعا من حيث القوة العسكرية ، ومن حيث الحضارة والثقافة ، فكانت المشعل الذى ينير الطريق أمام الممالك الأخرى. ولكن فى القرن الثامن صارت مملكة « مرشيا » تحتل المكانة الأولى ، وبخاصة فى عصر الملك « أوفا » الذى جاء ذكر جده الأسطورى فى الملحمة التى نحن بصدد تحليلها ، وذلك مما جعل بعض النقاد يذهبون إلى أن هذه الملحمة كانت قد أنشئت فى عهده ، وأن أحداثها وقعت أو استمدت مما وقع فى بيئة حاشيته .

ولما أقبل القرن التاسع انتقلت الزعامة إلى مملكة « ويسكس » . فمنذ سنة ٨٣٠ م كانت الممالك الانجليزية كلها تقدم فروض الطاعة إلى ملك ويسكس ، وبخاصة فى عهد الملك « الفريد الأكبر » (سنة ٨٧١ ـ سنة ٨٩٩) ، فقد

غدت ويسكس يومئذ معهد العلم والثقافة والحضارة ، ومقر الشهرة فى العلوم ، وتحظى بكل مظاهر الرقى والعظمة التى كانت تستمتع بها نورثامبريا من قبل .

والوثائق التى أمكن العثور عليها فى انجلترا منذ القرن الخامس حتى أوائل القرن الحادى عشر ، أى أوائل الغزو النورماندى ، لا تعدو لغاتها أربع لهجات هى : السكسونية الغربية أى الخاصة بمملكة ويسكس ، والكنتية ، والمرشية ، والنورثامبرية .وهى فى مجموعها تلك اللهجات التى تألفت منها اللغة الانجليزية القديمة .

ومما يجدر ألا يغيب عنا هو أن لهجة « ويسكس » أى السكسونية الغربية تعتبر اللهجة الغالبة فى النصوص الانجليزية القديمة التى وصلت إلينا بسبب ما حظيت به من الحضارة فى وقت متأخر ، وبسبب كثرة ما وصل إلينا من المخطوطات التى خلفها أدباؤها ونحب هنا أن نشير إلى أن اللغة الانجليزية خضعت لتطورات تاريخية تختلف أشد الاختلاف عن التطورات التى خضعت لها لغتنا العربية ، فاللغة العربية وصلت إلى قمة كمالها منذ ظهور الإسلام ، وأخذت بعده بقليل تقعد لها القواعد ، وتوضع لها المعاجم ، وترسى لها الأصول ، بينما ظلت اللغة الانجليزية فى تطور مستمر . وقد استقر العلماء على تقسيم تطورها إلى ثلاث مراحل :

الأولى : الانجليزية القديمة، أو الأنجلوسكسونية، وهى تشمل اللهجات التى كانت سائدة فى انجلترا منذ منتصف القرن الخامس حتى منتصف القرن الحادى عشر،حين استطاع الغزاة النورمانديون أن يطوروا اللغة الانجليزية ، وأن يبرزوها فى شكل جديد سمى « اللغة الانجليزية الوسطى » . ولكن يلاحظ أنه بالرغم من

نمو اللغة الانجليزية منذ منتصف القرن الخامس فإن النصوص الأولى المكتوبة لم تكن قد عرفت حتى منتصف القرن الثامن . والانجليزية القديمة ليست فى واقعها لغة واحدة ، ولكنها مجموعة من لهجات مختلفة أهمها اللهجات الأربع التى سبق ذكرها .

الثانية : الانجليزية الوسطى ، ولم تأخذ شكلها المكتوب المعروف إلا منذ منتصف القرن الثانى عشر بعد أن وطد النورمانديون أقدامهم فى البلاد ، واستطاعوا أن ينشروا حضارتهم فى جميع أنحاء البلاد الانجليزية ، فتطويرهم للغة لم يكن مجرد مزج بين لهجتهم الفرنسية واللهجات الانجليزية التى وجدوها فحسب ، بل كان هناك عامل آخر ذوبال ، هو وجود العناصر السكندنافية التى زودت اللهجات الانجليزية القديمة بكثير من لغاتها منذ غزوات الفايكنج فى القرن العاشر . مع مراعاة أن اللهجات السكندنافية ليست فى الواقع غير لهجات جرمانية ، فهى لذلك قريبة من اللهجات الانجليزية .

الثالثة : الانجليزية الحديثة التى تولدت عن الانجليزية الوسطى فى أواخر القرن الخامس عشر ، وبدأت تتمثل فى الصورة التى نعرفها عن الانجليزية اليوم .

ومن العوامل الرئيسية فى تطور اللغة الإنجليزية فى قالبها الحديث إدخال فن الطباعة فى انجلترا على يد « وليم كاكستون » حوالى سنة ١٤٧٦ م فإنها مع انتشار التعليم فى البلاد قد ساعدت على توحيد اللهجات الانجليزية المختلفة وساعدت على إيجاد لغة مكتوبة ذات قواعد راسخة .

ومن مميزات اللغة الانجليزية القديمة — فوق ما أسلفناه — أنها لغة متجانسة تقل فيها العناصر الدخيلة من اللاتينية والسكندنافية .

ومن صفاتها البارزة أنها كانت ذات علامات معقدة ، ولم يكن ترتيب الكلمات فى الجمل مقيداً بقيود خاصة على نحو ما نعرف فى الانجليزية الحديثة .

وتمتاز أيضا بأن أبجديتها تشتمل على حروف زائدة عن أبجدية الانجليزية الحديثة ، وهذه الحروف الزائدة هى :

ث = þ

ذ = ð

أ = æ

الصوت الناشىء عن كلمة « hear » حديثا = ǣ

ش = Sc

حرف (u) بالنطق الفرنسى = Y

أما علامة — التى نجدها على حرف اللين أو حرف العلة فهى من آثار المحدثين الذين عمدوا إلى ذلك ليشيروا إلى المد ، ولذلك لا نرى لهذه العلامات وجودا فى كل ما وصل الينا من المخطوطات القديمة .

* * *

ومن المميزات الهامة للانجليزية القديمة وجود أسلوب خاص بالشعر ، فالشعر الانجليزى القديم يتميز بالميل إلى التكرار ، وإلى التعبير عن الفكرة

الواحدة بأساليب متعددة مما كان سببا فى نشأة كثير من المترادفات ، وإن كان هناك — كما هو الحال فى كل اللغات — فارق دقيق بين كل مترادفين، كالفرق فى اللغة العربية مثلا بين جلس وقعد فالجلوس يأتى بعد الوقوف ، أما القعود فيكون بعد أن يكون المرء متكئا أو نائما .

ومن طرق التعبير التى نشأت فى الانجليزية القديمة تركيب شاع فى أساليبها الأدبية وعرف باسم « Kenning » وهو تعبير بلاغى ، خير تعريف به هو أنه طريقة للتعبير عن اسم معروف ، ويتكون — عادة — من جزءين أو من عبارتين ، وهو قريب من الكناية فى لغتنا العربية . وقد تكون تلك الكننج أو الكناية اسماً مركباً مثل « Hronrad » ومعناها الحرفى « طريق الحوت » ولكنها تستعمل كناية عن البحر .

أو قد تكون مؤلفة من كلمتين مثل « Fugles wynn » ومعناها الحرفى « فرحة العصفور » ، ولكن يكنى بهما عن « الريش » .

وقد كانت هذه الطريقة ، أو تلك الكناية خاضعة للتوسع فى استعمالها لتصوير أشياء كثيرة فمثلا : « خيل البحر » كان يكنى بها عن السفن، كما نقول نحن « سفينة الصحراء » كناية عن الجمل .. والتوسع فى الاستعمال كان يمكن أن يحل محل كلمة « الخيل » أى اسم من أسمائها ، أو صفة من صفاتها ، أو يحل محل كلمة « البحر » أى اسم من أسمائه أو صفة من صفاته ، ويبقى المكنى عنه هو البحر ، وبذلك كان يمكن أن يؤدى المعنى الواحد بأساليب مختلفة .

وفى ملحمة بيوولف التى نعرضها عليك ، « Kennings » ، أى كنايات كثيرة نذكر منها على سبيل التمثيل :

حامل الخوذة ، كناية عن المحارب	Helmberend
مخترق الأمواج ، كناية عن السفينة	Ythlida
الطائرة فى الهواء ، كناية عن التنين	Lyftfloga
موزع الخواتم أو القلائد كناية عن الملك	béaga brytta
الرجل الذى يجود بالذهب كناية عن الأمير	goldwine gumena
ما صقلته المطرقة ، كناية عن السيف	Homera laf
بيت العظـــام ، كناية عن الجسد	banhus

ومؤدى ذلك أن اللغة الإنجليزية الحديثة وليدة تطور متتابع ، حتى لتكاد الصلة تكون شبه منقطعة بين الإنجليزية الحديثة وأصولها القديمة ، على عكس ما نعرف عن اللغة العربية التى مرت بكثير من الأطوار ، ولكن ظل حديثها مستمدا من قديمها ، ولا زلنا نقرأ أقدم النصوص الأدبية كما نقرأ حديثها إذا استثنينا بعض الكلمات التى تنافرت مع الحضارة الحديثة فهجرت ، أو عدت وحشية، وإن كان بعضها قد أخذت تعود إليه الحياة لأن المجال أستوجب إحياءه .

* * *

أما اللغة الوسطى فتمتاز بما أدخل عليها من كلمات وتراكيب سكندنافية ثم فرنسية نورماندية ، كما تمتاز بالإقلال من حركات الإعراب حتى اقتصرت هذه الحركات كلها على الحرف « e » فى آخر الكلمة ليحل محـل كل حركات الإعراب . وقد أدى هذا إلى وضع حدود للحرية فى ترتيب الكلمات ، يضاف إلى ذلك أن النســاخ لم يكونوا مـن الإنجليز ، ولكنهم كانوا

في الغالب من الرهبان الفرنسيين أو النورمانديين فكان من أثر ذلك اضطراب هجاء الكلمات، إذ كان كل منهم يكتب الكلمة متأثراً بطريقة الهجاء في لغته هو ، أما الإنجليزية القديمة فكان هجاؤها متمشياً مع نطقها ، فكل حرف ينطق يكتب. ولا تسقط حروف ، ولا تزيد حروف ، بل تكون الكتابة وفق النطق. وما نلمحه في الإنجليزية الحديثة من الفروق بين نطق بعض الكلمات وبين هجائها قد يكون مرجعه إلى هذه المرحلة التي كان زمام الكتابة فيها بيد هؤلاء النساخ الذين ليسوا أصلا من الانجليز .

أما اللغة الإنجليزية الحديثة فمن رأى بعض فقهاء اللغة تقسيمها إلى مرحلتين: مرحلة أولى من حوالي سنة ١٥٠٠ م إلى سنة ١٧٠٠ م ، ومرحلة ثانية من سنة ١٧٠٠ م إلى اليوم .

وسند هؤلاء الفقهاء في هذا التقسيم هو أنه في أواخر القرن السابع عشر بدأ الهجاء يثبت في اللغة الإنجليزية ، كما أن أصوات اللغة بعد مرحلة متواصلة من التغير أخذت تتجه إلى الاستقرار والتثبيت .

وبعد مرحلة الانتقال الأولى كان من مميزات الإنجليزية الحديثة أنها أخذت تتغذى من روافد تأتيها من اللغة اللاتينية ، وقد كثرت الكلمات الوافدة من اللاتينية حتى طغت على الأصول الأنجلوسكسونية رغبة في إمدادها بكلمات مستحدثة تستلزمها النهضة الحديثة .

وتتميز كذلك بأنها تخلصت من حركات الإعراب التي كانت من طابع اللغة القديمة ، وكان ذلك مما نشأ عنه وضع نسق خاص لترتيب الكلمات في التراكيب ترتيباً مستقراً .

والمرحلة الأولى من مراحل الإنجليزية الحديثة تتميز بما يشبه الإعلال في لغتنا ، وهو يعني إبدال حركة الحرف المتحرك بحركة جديدة، فحرف « i » في كلمة « Five » كان فيما قبل القرن السابع عشر ينطق « إى » ، ثم في منتصف القرن السابع عشر اتخذ الصوت الجديد الذي ننطقه به الآن . كما أن « ee » فيما قبل عهد شكسبير كانا ينطقان مثل نطق الحرف a في الأبجدية الإنجليزية الحديثة ثم صارا الآن ينطقان « إى » ... الخ .

وبسبب التطورات التي حدثت في عهد الإنجليزية الوسطى ، والعهد الأول من الإنجليزية الحديثة ثبتت قواعد الهجاء بطريقة اصطلاحية ، وصار صوت بعض الكلمات لا يمثل هجاءها تمثيلا كاملا .

(٢)

ملحمة بيولف وآداب الانجليزية القديمة

المجال هنا لايتسع لتقديم عرض واف لأدب اللغة الانجليزية القديمة ، لذا سنكتفى بعجالة وجيزة تعين على بيـان منزلة ملحمة بيولف من الأدب الانجليزى القديم .

من المقطوع به بداهة أن القبائل الانجلوسكسونية قد حملت معها خلال هجرتها إلى الجزائر البريطانية قصائد تقليدية تشيد بأعمال أبطالهم ، وتتغنى بأمجادهم ، وتتمدح بآلهتهم القديمة . وأكبر الظن أنهم استمروا فى نظم مثل هذه القصائد بعد هجرتهم أيضا . ولـكن لم يعثر المنقبون على أى أثر مكتوب لهذه القصائد التى كانت تنشد فى محافلهم ، إذ أنه قبل أن تغزو المسيحية بلاد الانجليز لم يكن الأدب قد بدأ تدوينه ، لهذا لم يبق من الآثار الأدبية للعصر الوثنى إلا ماتناقله الرواة حتى تم تدوينه فى عهد المسيحية ، ومثل هذه الآداب فى ذلك مثل أدب العصر الجاهلى عند العرب فقد ظل الشعر العربى يعتمد على الرواة يتوارثونه راوية فى إثر راوية حتى بدأ التدوين فى العصر العباسى ، لذلك تباينت روايات بعض الأبيات ، وأحيط بعض القصائد بالشكوك . وكما سيطر الإسلام على من دونوا الشعر العربى فلم يثبتوا مايمجد الوثنية ، أو يشيد بآلهة العرب المتعددة ، كذلك سيطرت المسيحية على من أخذوا يدونون أدب الانجليزية القديم فلم يثبتوا منه إلا مايتلاءم مع مبادىء المسيحية ، ولا يتنافر مع

روحها وقوانينها ، فمثلا هناك قصيدة لشاعر مجهول نشأ فى أول عهد المسيحية بالبلاد عنوانها « ويدسيث » ويجرى الشاعر قصيدته هذه على لسان راوية يتحدث عن ملوك وأبطال عرفهم ، وخلال حديثه عن أمجادهم يعرض لذكر القبائل القديمة التى ينتمون إليها ، وإلى المثل العليا التى كانوا يأخذون بها ، وكل ذلك بطريقة تدل على علمه الواسع بمثل الوثنية خلال الفترة التى هاجرت فيها القبائل إلى انجلترا . وقد بقيت هذه القصيدة حتى وصلت إلى العصر الحديث ، ومنها وقف مؤرخو الأدب على بعض المعلومات عن الوثنية التى كانت سائدة هناك .

وقد يكون من العوامل المساعدة على الاحتفاظ ببعض الأساطير القديمة أن ملوك الانجلوسكسون كانوا يحرصون على نسبة أنفسهم إلى أسلاف من قدامى ملوك طوائفهم . كما كان شعراؤهم يحققون لهم هذه النزعة ، ويشبعون فيهم تلك الرغبة . ومما تجدر ملاحظته فى ذلك أنه إلى ما بعد عصر المسيحية كان الشعر يعتمد أكثر مايعتمد على الإنشاد والرواية لا على الـكتابة ، وكان الراوية المنشد يتـكفل بنشره ، وكان لـكل ملك شاعر أو أكثر ، ولـكل قبيلة شاعر أو أكثر ، وكان الشاعر يسمى « شوب » (Scop) ، وترتبط بين الشاعر والملك أو بين الشاعر والقبيلة رابطة الولاء التى لايفصمها إلا الموت .

وأقدم شعر وصل إلى العصر الحاضر من شعراء العصر القديم أبيات نظمها راع يدعى « كادمون Caed mon » وكان يتولى رعى قطيع من البقر يملكه أحد الأديرة قرب مدينة « هويتبى »[١] (Whitby) قيل إنه رأى فى منامه ذات ليلة

(١) شمال شرقى إنجلترا .

أن رجلا أمره أن يتغنى بعظمة الكون ، وقيل أيضا إنه نظم أبيات هذه القصيدة القصيرة خلال هذا الحلم ، ولما استيقظ وجد نفسه يحفظ أبياتها ويرويها. ومؤدى هذه الأبيات :

الآن يجب علينا أن نمجد حارس المملكة السماوية .

يجب أن نمجد سلطان الخالق ، ونثنى على إبداعه .

جاءت قدرة رب المجد ، ذلك السيد الخالد الصمد .

سبحانه جعل لكل شيء مثير للإعجاب بداية .

إنه هو السيد الأعلى ، إنه راعى البشر المقدس .

خلق السماوات أول ماخلق وجعلها سقفا لدنيا البشر .

ثم أخذ هذا السيد الأبدى المبدع القدير يزين عالم الدنيا .

سبحانه زين الأرض من أجل حياة البشر . .

هذه الأبيات تعتبر أقدم شعر وصل إلينا من الأدب القديم ، وأغلب الشعر القديم الذى وصل إلينا كان ذا صبغة دينية ، تسود فيه روح معانى التوراة والإنجيل ، وتبرز فيه أعمال القديسين وتواريخهم ، ويتضمن ذكر فترات من حياة المسيح ، وأغلبها كان مستمدا من أصول لاتينية . وتاريخ أقدم منظومة وصلت إلينا لايتعدى أواخر القرن الثامن الميلادى ، أما ماقبل هذا التاريخ فلم يصل إلينا من شعره شىء ، وحتى الشعر الذى وصل إلينا منذ أواخر القرن الثامن

غير منسوب إلى الشعراء الذين نظموه فلم يعرف إلا الشاعر كينولف «Cynewulf» الذى عاش فى أواخر القرن الثامن أو أوائل القرن التاسع، ونسبت إليه قصيدتان مشهورتان ، إحداهما عن صعود المسيح ، والأخرى عن الكيفية التى مات بها تلاميذه . وقد نال شعر كينولف تقدير النقاد وإعجابهم لما يتميز به من براعة النسج ، والخضوع لقواعد الشعر وأصوله .

ووصل إلينا من شعر هذا العصر أيضا قصيدة عنوانها « أحلام الصليب » وفيها يتخيل الشاعر أن الصليب يتحدث ويقص تاريخ حياته منذ نشأ غصنا ترعرع يوما ما فى شجرة نبتت فوق ربوة ، أو على سفح جبل ، انتزع الإنسان ذلك الغصن النضير وتركه حتى جف ، ثم حوله إلى أداة الموت والتعذيب ، ولكن تلك الأداة لم تلبث أن تحولت إلى رمز للخلاص . ويظهر أن هذه القصيدة حظيت من جمهور الناس بالتقدير والإعجاب زمناً طويلا ، لذلك كانت تختار منها أبيات تنقش على بعض الصلبان الخشبية أو الحجرية ، وقد عثر علماء الآثار على بعض أبياتها منقوشة على بعض الصلبان الحجرية ، وقد كشف عن أحد هذه الصلبان فى شمالى انجلترا .

وذاع نوع آخر من الشعر المسيحى فى ذلك العصر ، وكان يستمد معانيه وأخيلته من الأصول الوثنية القديمة ، ولكنه يفسر هذه المعانى والأخيلة تفسيراً مسيحياً . ومن أشهر ماعرف من هذا النوع قصيدة عنوانها « المأتم » وهى لشاعر مجهول يتخيل فيها شاعراً من أتباع أحد الملوك فقد سيده ، وأبى أن يبيع ولاءه لغيره ، وهام على وجهه لا يجد له مستقراً ، ولا يهنأ براحة بال . وهو يرمز بذلك إلى أن كل شيء إلى فناء ، وكل هناء يعقبه عناء ، وفى نهاية القصيدة

يجمل ذلك الشاعر الهائم يجد السلوى فى التوجه إلى الله ، والانقطاع لعبادته .

وهناك شاعر مجهول آخر نسج على هذا المنوال فأنشأ قصيدة سماها « السائح فى البحار » وفيها يبكى فقدانه لسيد الذى كان يرعاه ، ولا يجد بعده سلوى إلا فى الإيمان بالراعى السماوى الذى لا يفنى ولا يزول . وهاتان القصيدتان تتصل معانيهما أشد الاتصال بالمعانى التى تدور حولها ملحمة « بيولف » .

وهناك قصائد أخرى مما وصل إلينا تتناول هذه المعانى نفسها ، ومن ذلك قصيدة عنوانها « ديور » (Deor) يذكر فيها « الشوب » أو الشاعر الذى أنشأها أنه قد تقدمت به السن ، وأدركته الشيخوخة ، وأضر به الهرم ، وينعى على سيده أنه تنكر له ، واستغنى عنه بشاعر ناشىء ، وأسلمه لعناء الوحدة وآلام العزلة ... وبدلا من أن يبحث هذا الشاعر عن السلوى فى الإيمان بالله على نحو ما وجدها غيره من الشعراء نجده يبحث عن السلوى فى ذكريات عن أبطال من العهد الوثنى ويقص ما اعترضهم من مصاعب ، وما تعرضوا له من أخطار ، ولكنهم لا يفقدون الأمل فى التغلب على المصاعب ، ولا يعتريهم اليأس من الانتصار .. كأنما هو أيضاً ينتظر أن يتغلب على وحدته فى شيخوخته كما تغلب هؤلاء الأبطال على مآسى حياتهم ..

وبالجملة فإن كل القصائد التى وصلت إلينا كانت تنشد السلوى فى الصلاة ، وفى الأمل . وأغلب هذه القصائد وجدت فى أربع مخطوطات كبرى دونت فى أواخر القرن العاشر أو أوائل القرن الحادى عشر ، ولكنها بلا ريب أنشئت قبل ذلك بكثير ، فمنها — على سبيل المثال — قصيدة عنوانها « الأطلال والدمن » يبكى فيها الشاعر روعة الحضارة الجرمانية القديمة . ويرثى أبطال هذه الحضارة

رثاء حاراً ، ولا نجد فيها أثراً ما للمسيحية الجديدة مما يستدل منه على أنها أنشئت قبل أن تصل المسيحية إلى هذه الديار . ولكننا إلى جانب ذلك أيضاً نجد قصيدة أنشئت فى القرن العاشر ومع ذلك لا نلمح فيها أثر المسيحية ، وعنوانها « معركة ملدون » ، والمعروف أن هذه المعركة وقعت سنة ٩٩١ م ، أى فى نهاية القرن العاشر ، ومع ذلك فكلها تمجيد لروح البطولة الوثنية ، ودعوة إلى الدفاع عن الشرف حتى الموت ، ونحو ذلك مما هو من خصائص الشعر الوثنى القديم ...

وهذا التفاوت فى مناهج الشعراء الذين وصلت إلينا آثارهم هو — بلا ريب — مبعث حيرة لدى نقاد الشعر وفقهاء تاريخ الأدب ، وإن كان مما يغلب على الظن أن تمجيد الماضى ، وتقديس مثله قد أصبحت وقتئذ من خصائص الشعر حتى أن ملحمة « بيولف » تبدو وثنية فى روحها ، لولا الاستطرادات المسيحية التى تضمنتها ، ولولا التفسير المسيحى لوقائع حدثت قبل المسيحية .

وملحمة « بيولف » تعتبر أهم ما وصل إلينا من آثار شعراء الانجليز القدامى لما تتضمنه من عرض لعناصر الحضارة الانجليزية من وثنية ومسيحية ، ولبراعة الشاعر فى حسن العرض ، وجمال النسج . ويمكن أن نجد فى هذه الملحمة نماذج لكل مميزات هذا الشعر من كنايات وصور بلاغية ، هذا إلى جانب أنها أطول أثر شعرى وصل إلينا ، فهى بذلك نموذج للشعر القديم عامة .

(٣)

عروض القصيدة فى الشعر الانجليزى القديم

مابقى من الشعر الإنجليزى القديم يدل ما وصل إلينا منه على أنه - باستثناء أقله — لايعتمد على القافية ، ولكنه فى شكله العام يعتمد على مايصح أن نسميه « التوافق » (Alliteration)

ومن المعروف أن الشعر العربى يقوم على الوزن والقافية ، وأن الوزن يخضع لتفعيلات معروفة . وإن يكن قد بدأ الآن شىء من التصرف فى الأوزان، وشىء من التصرف فى القافية ، إلا أننا نعنى الشعر فى صوره الموروثة . أما الشعر اليونانى ، والشعر اللاتينى فلا يعتمدان – خلافا للشعر العربى – على القافية ، ولكن يلتزمان مقاطع وتفعيلات معينة . والشعر الفرنسى منذ العصور الوسطى يقوم على القافية ، وعلى نظام المقاطع وتساويها . والشعر الإنجليزى منذ ما بعد العصور الوسطى يقوم حينا على القافية ، وحينا آخر لا يعتمد عليها ، ولكن يعتمد على نبرات المقاطع وفق نماذج معينة .

أما الشعر الإنجليزى القديم ، فى الوقت الذى أنشئت فيه هذه الملحمة التى نحن بصدد تحليلها ، وحتى أواخر العصور الوسطى ، فإنه لا قافية له ، ولكن يحل محل القافية التوافق فى الحرف الأول من الكلمات . وليس معنى ذلك أن التوافق فى الحرف الأول من الكلمات يلتزم التزاماً لا تحلل منه ، ولكنه يكثر بحيث لا يخلو بيت من توافق بين كلمتين فأكثر .

والبيت عندهم يتكون من شطرين يتألفان من أربعة مقاطع مشددة دون نظر إلى عدد الكلمات ، ويكون فى الشطر الأول مقطعان أو ثلاثة ، ومعنى ذلك أن يكون الشطر الثانى مكوناً من مقطعين أو مقطع واحد ويكون التوافق بين كلمة من مقاطع الشطر الأول ونظير لها فى الشطر الثانى ، على أن تكون فى كل من الكلمتين المتوافقتين نبرة قوية . والحركات يحل كل منها محل الآخر فى التوافق أما الحروف الصامتة أو الساكنة فكل حرف يتوافق مع نظيره . فمثلا : wéras scéawedon   Wùndorlic wægbora

فهذا البيت مكون كلمات ، فى كل منها نبرة قد ميزناها بخط مائل فوقها ونرى التوافق كائناً فى الحرف الأول من الكلمة الأولى فى الشطر الأول والكلمة الثانية منه ، والكلمة الأولى من الشطر الثانى . والمهم أن يكون التوافق بين كلمتين إحداهما فى الشطر الأول ، والأخرى فى الشطر الثانى .

ومثل àtertanum fah   cég was iren

ففى هذا البيت يقع التوافق فى حروف لينة ، وهى إذا كانت قد اتفقت فى أنها حروف لين فإنها تختلف فى نوعها ونطقها ، وهى التى أشير إليها بخط مائل فوقها .

والنظام المألوف الذى كان متبعاً فى كتابة الشعر القديم وطباعته أن يوجد فراغ بين شطرى كل بيت ، غير أن النساخ لم يراعوا ذلك التقسيم فى أثناء النسخ للشعر القديم كما نلحظ ذلك فى نسخ المخطوطة التى وصلت إلينا مدونة فيها ملحمتنا هذه .

وجدير بالذكر أن الشعر القديم لا تكون الصفة فيه في شطر والموصوف في شطر آخر ، ولا يكون حرف الجر في شطر والمجرور في الشطر الآخر إلا في أبيات نادرة .

ولم يكن هذا الشعر قائماً على تقسيمات محدودة فهو لا يلتزم نسقاً واحداً في القصيدة كلها كالشعر العربي القديم ، ولا يقوم على مجموعات معينة من الشطور كالمربعات أو المخمسات مثلا في الشعر العربي في العصر الحديث أو الشعر الأوربي الحديث أيضاً ، ولكنه يقوم على فقرات تختلف طولا وقصراً باختلاف المعنى الذي تؤديه .

وكانت النبرة تنقسم إلى ثقيلة ومتوسطة وضعيفة . وقد تمكن الأستاذ « إدوار سيفرز » (Sievers) الفقيه اللغوي الألماني أن يستخرج على هذا الأساس خمسة أبحر للشعر الجرماني القديم ، ونجد هذه الأبحر نفسها ممثلة في الشعر الإنجليزي القديم ، وتتجلى في ملحمة « بيولف » .

ويلاحظ أن الشعر الذي تلك صفاته قد انتهى أمره في أواخر القرن الحادي عشر ، وأخذ الشعر يسير على نسق جديد حلت فيه القافية والأبحر الحديثة محل التوافق .

(٤)

النثر الأدبي في الانجليزية القديمة

عثر الباحثون على النثر مكتوبا في الأدب الانجليزي القديم قبل أن يتوصلوا إلى آثار شعرية مكتوبة . فقد وجدت بعض القوانين مدونة منذ أوائل القرن السابع بالانجليزية القديمة ، كما وجدت تعليقات وشروح للمتون اللاتينية في موضوعات دينية وموضوعات قانونية . وإذا استثنينا هذه القوانين والمتون الدينية فإن تاريخ النثر الأدبي في الانجليزية القديمة لا يبدأ على وجه التحقيق إلا في عهد الملك الفريد (سنة ٨٧١ — سنة ٨٩٩) .

وكما أن كثيرا من الشعر قبل عهد الملك الفريد لم يصل إلينا فمن الممكن أيضا أن كثيرا من النثر كان قد وجد ، ولكنه ضاع ولم يصل إلينا . وإنما يغلب على الظن أن هناك كثيرا من المواعظ النثرية كانت موجودة قبل عصره لأن المواعظ الدينية كانت كلها منذ دخول المسيحية تلقى بالانجليزية القديمة ، وإن كانت الطقوس الدينية تجرى باللغة اللاتينية ولم يكن كل رجل دين قادرا على ارتجال العظات ، أو إنشائها وإلقائها ، بل كانوا في الغالب الأعم يلقونها من أثر مكتوب خلفه لهم السابقون ، ولكن طوى الزمان تلك الآثار فاندثرت ولم تصل الينا . وكان عهد الملك الفريد كعهد الملك شارلمان في الاحتفال بالعلم والأدب ، والحفاوة بالعلماء والأدباء ، وتشجيعهم على حسن الإنتاج ، وكان الملك الفريد يدعو العلماء والأدباء إلى قصره ، ويبالغ في إكرامهم ، ويستمع اليهم ، ويناقشهم ويشجعهم على إحياء الثقافة ، والنهوض بالعلم والأدب . وفي نحو سنة ٨٩٠م أرسل إلى كل من

الأساقفة مكتوبا يشرح فيه منهجه فى تربية الشبان ، ويعرض عليهم ثبتاً بأهم الـكتب التى يرجو أن تترجم تحت إشرافه إلى اللغة الانجليزية القديمة ليتاح للشبان أن يقرءوها ويستوعبوها ، وكان من بينها كتاب « واجب الراعى نحو رعيته » (Cura pastoralis) الذى ألفه البابا جريجوريوس الأكبر ، وكتاب « تاريخ العالم » لأوروزيوس ، وكتاب « التاريخ الـكنسى للأمة الانجليزية » للعلامة بيـــدا ، وكتاب « سلوى الفلســفة » من تأليف بوريثيوس « Boethius de consolatione philosophiae » ومنها مجموعة من تأملات القديس أغسطينوس

وقد تم فعلا ترجمة هذه الـكتب من اللاتينية إلى الانجليزية القديمة فى عهد الملك الفريد الأكبر . وقد روى أنه كان إلى جانب إشرافه على الترجمة يعين فى بعضها ، بل لقد أضاف إلى هذه التراجم تعليقات كثيرة كتبها بنفسه ، فنى تاريخ أوروزيوس مثلا أضاف شرحا مطولا بقلمه لجغرافية شمالى أوربا .

ومن أظهر آثار عهد الملك الفريد ذلك التاريخ الذى التزم فيه سرد الحوادث حسب السنين — على نحو كتاب المقريزى فى التاريخ العربى — ويقال أن الملك افتتح الـكتابة فيه بنفسه ، وحاول أن يدون فيه تاريخ أمته من أقدم أزمنته ، ثم أمر بنسخ ٨٩٠ نسخة منه لتوزع فى شتى أنحاء المملـكة ليـكفل بذلك نشر الثقافة التاريخية على أوسع نطاق ممـكن . وقد عثر فى أحد الأديرة على نسخة مكتوبة بخط ناسخ واحد ، وتنتهى أحداثها عند سنة ٨٩١ ، وتنطبق صفاتها على الـكتاب الذى أمر بنسخه الملك الفريد ، ولـكن أحداً لم يستطع أن ينفى أو يثبت أنها النسخة الأصلية التى أشرف عليها الملك بنفسه .

وبعد موت الملك الفريد توالت كتابة هـذا التاريخ سنة بعد أخرى حتى سنة ١١٥٥ أى إلى العهد الذى وطد فيه الغزاة النورمانديون أقدامهم فى تلك البلاد .

وكانت الأديرة حينذاك مراكز العلم والتدوين ، ونتيجة لغزو الفايـكنج فى منتصف القرن التاسع قد دمرت تلك الأديرة وشرد رهبانها ، ولم تبعث الحياة فيها مرة أخرى إلا فى منتصف القرن العاشر ، وبعد هذا التاريخ وصل النثر الانجليزى إلى مرحلة النمو والازدهار . وفى مقدمة ماوصل إلينا منذ منتصف القرن العاشر تلك الترجمة التى قام بها الأسقف آثلوولد لقواعد الرهبنه طبقا للأصول البندكتية ، وكانت هذه الترجمة حوالى سنة ٩٦٠م ، ومنها أيضا تلك المواعظ والـكتب الدينية التى أنشأها الفريك[١] تلميذ آثلوولد وذلك فى حوالى سنة ٩٩٠ ، ومنها كذلك المواعظ التى أنشأها وولفستان حوالى سنة ١٠٠٠ م .

وزادت حركة الترجمة فى ذلك العهد ازدهارا حتى ترجمت الأناجيل من اللاتينية إلى الانجليزية ، وقام الفريك بترجمة بعضها ، وبخاصة بعض نصوص العهد القديم (التوراة) . والذين قاموا بترجمة الباقى من التوراة لم يعرفوا على التحديد ، وقام « الفريك » أيضا بوضع رسالة علمية عن الـكتاب المقدس بقسميه (التوراة والانجيل) .

ومن الجدير بالذكر أن كتابات العلامة بيدا تعتبر وثيقة مهمة فى تاريخ لإنجليز

---

(١) الذى عاش فى أواخر القرن العاشر الميلادى

وكتب بعد ذلك … الأدبية، ولقيت ترحيباً لكن قد سبق أن … في عهد الملك ألفريد.

وبالإجمال فالغالب على النثر في هذا العصر أنه يتناول المواعظ، وأخبار الأبطال، وحياة الشهداء والقديسين، ولكن من … أكثر … الموضوعات الدينية مثل كتب التاريخ التي أشرنا إليها، ومن ذلك … مع مخطوطة بيوولف وعنوان أولها «رسالة من الإسكندر إلى أرسطو»، وعنوان الثاني «عجائب الشرق»، والنصان في موضوعهما يتناولان وصف … المكونات والحيوانات، وبعض الأساطير التي تروى عن بلاد مختلفة. … القصص … الأدبي في الإنجليزية القديمة.

[٥]

العصر الأنجلو سكسوني ونهضة يورك

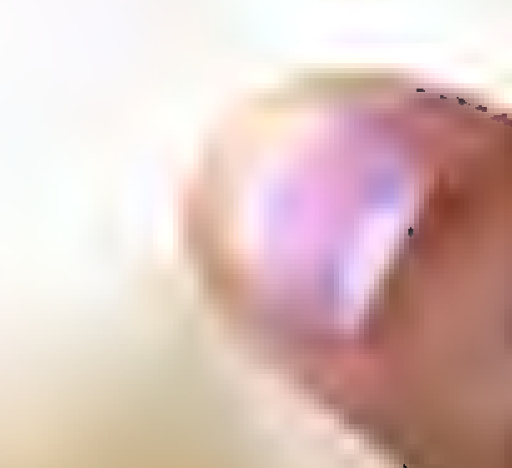
ليس علينا هنا أن نسرد الأحداث التي كانت جديدة على الإنجليز … الأنجلو سكسونيين كما … في كتب التاريخ، ولكن حسبنا أن نعرض صورة لحياة المجتمع في البلاد التي أنشئت فيها اللغة الأولى … ولكننا نشير إلى العوامل التي تتصل بها. ويجب ألا يغيب عن هذا الكلام أن المسيحية قد وصلت إلى إنجلترا سنة ٥٩٧، وانتشرت في أنحاء البلاد في مدى قرن من الزمان. ويجب ألا يغيب عنا أيضاً أن كل تاريخ ـ كما يقول الفيلسوف الإيطالي كروتشه ـ إنما هو في الحقيقة تاريخ معاصر للمؤرخ الذي يدونه، بمعنى أن المؤرخ أو كاتب عصره يكتب التاريخ متأثراً بما يشغل زمنه هو، وهذا التأثر عن وعي، أو عن لا وعي، يظهر فيما يدون من أحداث، وما يتخير من وقائع يسجلها.

وتاريخ الأنجلو سكسونيين يمكن إجمالاً تقسيمه إلى مرحلتين:

أولاهما: مرحلة ما قبل غزوات الفايكنج الدنماركيين، وكانت إنجلترا خلال هذه المرحلة مقسمة إلى ممالك صغيرة.

وثانيتهما: تبدأ منذ منتصف القرن التاسع الميلادي حين أصبح … و… وعدم أصحاب السيطرة على البلاد.

ولكن كانت هناك منطقة في قلب الجزيرة تمتد من الشمال إلى الجنوب



يحتلها الفايكنج و يسمونها «Danelaw» أى المنطقة التى تخضع لقوانين الدانيين.

وفى سنة ٨٧٨ استطاع الملك الفريد أن ينتصر على جيوش الفايكنج فى معركة «Edington» وأن يقف تقدمهم فى البلاد ، وبذلك ظلت الحضارة المسيحية قائمة فى المناطق البعيدة عن سطوة الفايكنج الوثنيين .

ولما جاءت سنة ٩٥٤ م كان ابن الملك الفريد ، ثم حفيده من بعده قد استطاعا تطهير البلاد من الفايكنج ، وبذلك استقرت الأمور فى البلاد ، و بدأت أديرة جديدة تقوم لتحل محل الأديرة التى كان الفايكنج قد دمروها إبان غزوهم للبلاد ، وكان ذلك إيذانا بظهور نهضة جديدة فى البلاد .

وفى سنة ٩٨٠ بدأ الدانيون يعودون إلى غزو البلاد مرة أخرى وسنحت لهم فرصة النجاح فى غزوهم ، وفى سنة ١٠١٦ استطاع الملك كاينوت الدانى أن يؤلف امبراطوريه تتكون من انجلترا والدانمرك والنرويج ، وتوج نفسه ملكا عليها ، ولما استوفى أجله ومات تفككت هذه الإمبراطورية ، وعاد الملك إلى إدوارد الأول الملك الأنجلوسكسونى الذى كانت أمه نورماندية ، فأتاح ذلك للنورمانديين أن يظهروا ، ويصير لهم نفوذ فى البلاد .

ومات الملك ادوارد الأول ولم يخلف وارثا للعرش ، فاستولى عليه «هارولد» وهو سكسونى من أسرة كريمة ، ولكن ساد البلاد جو من الاضطراب والفوضى فانتهز ذلك «غليوم» دوق نورمانديا وهاجم انجلترا سنة ١٠٦٦ وانتصر على هارولد وقتله ، وأقام نفسه ملكا على البلاد .

* * *

هذا عرض سريع لمجمل تاريخ انجلترا فى هذه الفترة البعيدة من الزمن ، وهى الفترة التى ازدهرت فيها هذه الملحمة ، وهنا يقتضينا واجب البحث أن نتعرف ملامح المجتمع الانجلوسكسونى الذى أنشئت خلاله هذه الملحمة .

المجتمع الأنجلوسكسونى كان يقوم على أصول تمتد إلى الماضى الجرمانى ، ثم ظهرت فيه الملامح المسيحية بعد أن دخل الدين المسيحى هذه البلاد . وبعض المظاهر الجرمانية القديمة تبدو جلية فى هذه الملحمة ومنها : أن الولاء كان رابطة اجتماعية قوية فى القبائل ، وأن هذا الولاء كان نوعين : الولاء الشخصى لسيد مختار ، والولاء القبلى للأسرة وبخاصة حين تكون القرابة مصدرها الأب والجد لأنها أشد وأوثق من القرابة التى تأتى من جهة الأم والجدة ، وأيا كانت جهة القرابة التى تربط المرء بقبيلته فإن الولاء للسيد المختار كان أقوى وأعظم . وإذا تضاربت مصالح الولاءين فالمفضل هو الولاء للسيد المختار . والمؤرخ الرومانى تاسيتوس قد لاحظ منذ القرن الأول المسيحى قوة الرباط بين الرجل من أهل القبائل الجرمانية وسيده الذى يختار أن يواليه ويخضع له ، وكان مما سجله هذا المؤرخ العظيم أن ذلك الولاء شخصى أقوى مما هو قبلى ، وقال إن البطل المبرز أو رئيس القبيلة المرموق يستميل إليه بخصائصه ومميزاته رجالا من قبائل مختلفة يفدون إليه عن رغبة خالصة فى الانتماء إلى حاشيته ، وإعلان الولاء له . وكان السيد وأتباعه الذين ينتمون إليه بالعصبية أو بالولاء يتنافسون فى إبداء ضروب البطولة فى ميادين القتال ، كأنما كان هذا الولاء مدرسة يتخرج منها الأبطال . . ومما قاله تاسيتوس أيضا فى هذا الصدد : « إنه لعار لا يمحى أن يعيش التابع بالولاء وقد قتل سيده المتبوع فى المعركة ، لأن

الواجب يقضى عليه أن يدافع عن زعيمه ووليه حتى الموت ، وأن يحميه ويفتديه بروحه ، وأن ينسب كل مجد يجنيه إلى هذا الزعيم حتى ولو كسب هذا المجد بمفرده ، لأن ذلك من صميم واجبات الولاء . . . فالزعماء يكافحون فى سبيل الانتصار ، والأتباع يكافحون فى سبيل الزعيم . . »

ولم يكن التابع ينتظر مقابل كل هذه التضحيات سوى عدة القتال من جواد وأسلحة مما كان شائعا وقتئذ ، ويعرف باسم «هيريوت» (Heriot) ثم يطمع أيضا فى أن يحظى بالجلوس إلى جانب سيده فى القصر . وهذا النوع من الولاء اسمه عند تاسيتوس « صداقة الفروسية » (Comitatus) .

هذا اللون من الولاء ظل سائدا فى المجتمع الجرمانى ، ثم فى المجتمع الأنجلو سكسونى الذى استقر فى أنجلترا ، واستمر كذلك مدة حتى بعد دخول المسيحية فى البلاد ، فكان السيد وأتباعه (Gesithas) يتقاسمون الأفراح والأتراح ، ويشتركون فى الحرب والسلام . وتتجلى هذه الروح فى ملحمة بيولف ، فمع أن حوادثها تدور فى عصر ماقبل الهجرة[1] فإنها تلقى قبولا حسنا لدى المستمعين إليها ، من ذلك مثلا أن المأساة فى نهاية الملحمة لاتقتصر على عرض صورة البطل وهو يموت فى سبيل الإصرار على الانتصار ، ولكنها إلى جانب ذلك تعرض صورة مزرية للأتباع الذين خانوا واجبهم ، وتخلوا عن وليهم وهو أشد ما يكون حاجة إلى نصرتهم ومؤازرتهم . إنها تصورهم وقد تخلوا عنه وقت الشدة ، وفروا حين حمى القتال بينه و بين التنين ، ولم يصمد فى الوقوف معه إلا تابعه الأمين الوحيد .

(١) أى هجرة بعض القبائل الجرمانية من شمال القارة الأوروبية إلى انجلترا فى القرن الخامس الميلادى .

ثم تصور هذا التابع الوفى وقد أخذ يؤنب هؤلاء الفارين المتخاذلين تأنيبا قاسيا على موقفهم المزرى الذى يدل على جبنهم وهوانهم ، و يرثى شاعر الملحمة لهؤلاء الجبناء لأنهم لن يتخلصوا من العار الذى ألصقوه بأنفسهم مدى الدهر .

كذلك نرى الملحمة تصف الملك هوجلاك بأنه قاتل « أونجنثيو » فى حين أن قتله كان على يد فارسين من أتباع الملك هوجلاك ، وليس هو الملك نفسه ، وقد أسبغ عليهما ، وأحسن مكافأتهما ، ثم نسب القتل إليه مما يدل على أنهم لايفرقون بين مايقوم به السيد وما يقوم به التابع ، أو يعتبرون مايقوم به التابع ليس إلا أمرا مستمدا من روح السيد ومن وحيه .

وقصة « فين » فى الملحمة كذلك يسوقها الشاعر مكتفيا بالتلميح إليها مما يدل على أنها كانت شائعة معروفة ، وهى ترمى فى حقيقتها إلى مايأخذ به الأتباع من الثأر والانتقام لسيدهم القتيل ، والحفاظ على شرف اسمه بعد موته .

وجاءت المسيحية فأقرت هذه الروح النبيلة ، ورأت فيها فضيلة تستحق البقاء ، بل تستحق التأييد لذلك لم تعتبر الثأر لسيد قتل اغتيالا أمرا يستحق اللوم أو العقاب بل عدته أمرا واجبا ومطلوبا ، وأقرت قسم الولاء الذى كان يقسمه الأتباع لسيدهم من قبل .

ثم جنحت الكنيسة شيئا فشيئا إلى مكافحة الأخذ بالثأر بأن أباحت للقاتل أن يكفر عن جريمة القتل بدية يقدمها للكنيسة ، وكانت الكنيسة هى التى تتولى تقدير قيمة الدية وتتولى تحصيلها ، وأباحت أن يستبدل بالدية الحج إلى البيت المقدس ، أو تقديم صدقات للفقراء ، ونحو ذلك من أنواع الكفارات

المادية أو الأدبية ، ولكنها لم تنص فى شرائعها على أن القتل للأخذ بالثأر للسيد معناه جريمة قتل ينفذ فيها القانون السماوى « عين بعين ، وسن بسن » ولكنها اعتبرت القتل بأمر السيد أو فى سبيل الثأر له أشبه بما نسميه نحن فى قوانيننا الحديثة بجريمة القتل خطأ ، ويكفى عقابا عليه التكفير بشىء قليل بالقياس إلى جريمة القتل العمد .

وبعد الارتباط بالسيد فى القداسة والقوة يأتى الارتباط بالأسرة ، وقد كان الفرد يستمد مكانته فى المجتمع من مكانة أسرته ، مثله فى ذلك مثل العربى فى العصر الجاهلى إذ كان الشاعر يعبر عن علاقته بأسرته بمثل قوله :

وما أنا إلا من غزية إن غوت   غويت ، وأن ترشد غزية أرشد

فرشاده وغوايته مستمدان من قبيلته ، أو كما يقول شاعر آخر :

لو كنت من مازن لم تستبح ابلى   بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

أى أنه يعز بهيبتها ، ويهان لهوانها . هكذا كان الفرد فى ذلك المجتمع القديم يستمد مكانته من مكانة أسرته ، فلا عبرة لمواهبه الشخصية أو لشجاعته أو قوته الذاتية ، وإنما ينظر إلى أسرته وماتتميز به . فإذا قتل امرؤ كان من واجب أفراد الأسرة أن يأخذوا بثأره من القاتل نفسه ، أو من أحد أقربائه ، أو يكتفوا بالدية إذا قدمت اليهم وقبلوها . وكان الأنجلوسكسون يسمون الدية « ثمن الرجل » (Wer gild) وكان الخوف من الأخذ بالثأر هو العامل الرئيسى فى المحافظة على الأمن الاجتماعى ، إذ لم يكن هنك قانون ذو أحكام يسيطر على المجتمع ويحمى من أى جريمة ؛ بل كان الأمر فى القتل متروكا دائما لأقارب القتيل فاهم أن يثأروا ، أو يقبلوا الدية .

ولم يكن الثأر مجرد شهوة إلى القتل ، أو مجرد رغبة فى إرضاء شعور ذاتى بل كان العرف السائد يعده واجبا مقدسا ولو جافى ميول صاحب الثأر وأخلاقه لأنه إذا تخلى عن القيام بهذا الثأر الذى هو فى العرف الجارى واجب مقدس فإن أقارب القتيل من جهة أبيه يقومون بهذا الثأر ، فإذا تخلوا عنه زهدا أو عجزا تولاه الأقارب من جهة الأم ، وإلا فإن المجتمع يعيرهم جميعا بأنهم أهدروا كرامتهم .

والدية التى تقوم مقام الأخذ بالثأر هى التى تتلاءم مع مكانة القتيل الاجتماعية . وكانت قبل الهجرة تحسب بعدد من رءوس المواشى إذ لم يكن القوم قد عرفوا سك النقود ، أما بعد الهجرة وبعد سك النقود فقد كانت تحسب بالشلن ، وكان الشلن من عملتهم يعدل ثلاثين شلنا من عملة اليوم . وتقدير الدية بالقيمة الاجتماعية لطبقة القتيل ، وكانت فى جملتها تتردد بين ٢٠٠ و١٢٠٠ شلن وكان من المتعارف لديهم أن قتل الإنسان ، وإهدار دمه (إذا لم يؤخذ بثأره ولم تدفع عنه دية) يعتبر ظلما فادحا وقع على المجتمع . لذلك كان من المواقف المثيرة فى نظر مستمعى ملحمة بيولف مأساة الملك خريثل الذى وجد نفسه مكتوف اليدين أمام الأخذ بالثأر أو تحصيل الدية حين قتل أحد أبنائه ابنه الآخر خطأ ، لأن العرف كان يقضى بأنه لا ثأر ولا دية بين الأقرباء الأدنين ، وأمام المأزق الحرج الذى وجد الملك خريثل نفسه فيه ؛ فمن جهة قتل ابنه ، ومن جهة أخرى يقضى العرف ألا يأخذ بثأره من الابن الآخر ، ولا يطالب منه دية ، أمام هذا المأزق لزم الملك فراشه نهبة للحزن الذى قضى فى النهاية عليه :

وكان لتوزيع الدية نظام تواضعوا عليه ، وهو أن يوزع على أقارب القتيل

بنسب تتفاوت بتفاوت درجة قرابتهم منه . كما كان الثأر كذلك يخضع لقواعد موضوعة فلم يكن مشروعا أن يؤخذ الثأر من القاتل إذا كان قد قتل دفاعا عن سيده، أو دفاعا عن أحد أقربائه إذا كان هذا القريب فى معركة دفاع عن النفس، أو إذا كان قد قتل رجلا وجده متلبسا بجريمة السطو على عرضه أو عرض أحد أقاربه. والذى يقتل تنفيذا لحكم إعدام صدر عليه لا ثأر له ، لذلك نرى شاعر الملحمة يشبه حزن خريثل على ولده الذى قتل بيد أخيه بحزن شيخ يرى جثة ابنه تتأرجح فى حبل المشنقة وهو عاجز عن أن يرده إلى الحياة أو يأخذ بثأره .

* * *

وقد ألمحنا من قبل إلى أن الكنيسة سكتت على مسألة الثأر وبدأت تنظم الدية بل أخذت تتولى أمرها بطريق رجالها ، ولكننا نعود هنا فنقرر أنه بعد أن استقرت المسيحية فى البلاد ، وتوطد سلطان الكنيسة بدأت تكافح عادة الأخذ بالثأر تدريجيا ، وأصدرت قرارا كنسيا مؤداه أن من أخذ بيده ثأر أحد أقربائه يعتبر مذنبا ، وعليه أن يكفر عن ذنبه بعمل تقترحه الكنيسة ، ويظل يقوم به مدة تتردد بين سبع سنوات وعشر سنوات ، وظلت شيئا فشيئا تزيد عدد سنوات التكفير ، وتزيد من قسوته لكى تحمل الناس على ترك الأخذ بالثأر فرارا من قسوة التكفير ، أو التعرض لغضب الكنيسة عليه إن أبى التكفير . وبذلك أخذت الدية وأخذ الصلح يحلان محل الأخذ بالثأر .

وفى فترة القلق التى كانت تسود المجتمع اضطرت الكنيسة إلى تطبيق نظام الدية بالنسبة لرجال الكهنوت فجعلت دية القس تعدل دية الفارس ، ودية الأسقف تساوى دية فرد من أفراد أسرة الملك ، ودية رئيس الأساقفة تعادل

دية الملك نفسه ، وكان هدفها من ذلك حماية رجالها من القتل فى بيئة ساد فيها القتل بلا ضابط ولا تمييز . وبما أن رجال الدين بحكم النظام الكنسى يفقدون كل حق لهم فى التملك الشخصى فإن دية القتيل منهم كانت تضم إلى ملكية الكنيسة ، أو إلى ملكية الدير الذى يكون الراهب القتيل تابعا له ، وكان ذلك من عوامل ثراء الكنيسة .

* * *

ولم تكن واجبات القبيلة نحو أفرادها تقف عند حد حماية الفرد من القتل أو الأخذ بثأره إذا قتل ، بل كانت عليها واجبات أخرى نحو كل فرد من أعضائها، ومن هذه الواجبات مسئوليتها عن زواج أعضاء الأسرة ، وحمايتها لأموال المرأة حتى بعد أن تتزوج فتظل أسرة أبيها محافظة لها على ممتلكاتها ، ومثل رعاية أموال القصر حتى يبلغوا رشدهم : ومثل تضامنهم فى القسم مع المتهم الذى تلزمه المحكمة بالقسم فيقسم أعضاء الأسرة معه توكيدا لقسمه وتبريرا لموقفه ، وكانوا يقبلون على القسم تضامنا معه ، حتى ولو كان بعضهم لا يعلم شيئا عن حقيقة الأمر الذى هو موضوع القسم .

* * *

طبقات المجتمع الانجلو سكسونى :

عاش المجتمع الانجلو سكسونى فى ظل نظام طبقى من طراز خاص ، والمقياس الذى تقاس به الطبقات هو الدية إذ كانت تختلف فى مقدارها باختلاف أقدار الطبقة التى ينتمى إليها القتيل . وفى قمة طبقات المجتمع يوجد الملك، وديته تجل عن

الحصر والتقدير ، ويلى الملك فى الدرجة أتباعه من طبقة الشرفاء الذين هم صحابة الملك وجلساؤه ، وأقرباؤه ، وكانوا يسمون « إيورل » (Forl) وهى التسمية التى اشتقت منها كلمة « ايرل » (Earl) التى هى من ألقاب الشرف والأرستقراطية فى انجلترا الآن ، وتقابل لقب « كونت » فى فرنسا . وفى نهاية العصر تغير لقب ايورل وحل محله لقب « ثين » (Thane) وأصل معنى هذه الكلمة « خادم للملك » ، ودية هذه الطبقة فى متوسطها تبلغ ١٢٠٠ شلن ، والشلن عندهم — كما أسلفنا — يعدل ثلاثين شلنا من عملة اليوم .

وبعد هذه الطبقة فى الدرجة تأتى طبقة تسمى « تشيورل » (Ceorlas) ودية الفرد من هذه الطبقة تبلغ سدس دية الفرد من الأيورل .

واقتضت سنة التطور أن تظهر طبقة جديدة تتوسط هاتين الطبقتين السالفتى الذكر وهى طبقة « الجيسيثاس » (Gesithas) ، ودية الفرد منها تبلغ ٦٠٠ شلن ، وازدهرت هذه الطبقة فى مملكة وسكس وظلت مزدهرة إلى نهاية عصر الملك الفريد سنة ٨٩٩ م .

* * *

وكما كانت تلك الطبقات تختلف فى تقدير الديات فإنها تختلف أيضاً فى تقدير العقوبات ، فكما أن أهل الطبقة الأولى أعلى مقاما وأكثر احتراماً من أهل الطبقة الثانية فإن عقوبتهم على الجرائم أشد من عقوبة أهل الطبقة الثانية ، وكان المتخلف عن الخدمة العسكرية من أهل الطبقة الأولى يدفع غرامة قدرها ١٢٠ شلنا ، أما المتخلف من أهل الطبقة الثانية فيدفع ٦٠ شلنا .

وكان يحسب من طبقة الشرفاء أو « الأيورل » كل أتباع الملك ، وكل من قدم لهم الملك إقطاعا يتمثل فى أرض معفاة من كل الضرائب ومن كافة الحقوق العينية ، فكأن هذه الطبقة ينشئها الملك ويزيد من عدد أفرادها كما يشاء . والتابع الذى يقطعه الملك أرضا يصبح من حقه أن يهب منها ما يشاء لمن يشاء من أقاربه أو من غير أقاربه ، ولا يكون ملزما إلا بالخدمة العسكرية ، وبتحصين الجهة التى يقيم فيها بانشاء القلاع المساحة الحصينة ، ويكون ملزما كذلك بصيانة الجسور النهرية اذا كان يخترق منطقته نهر وعليه جسور (كبارى) .

وقد ألف الملوك ألا يقطعوا أرضا تقل عن خمسة «هايدات» ، والهايد فى أصله هو المساحة الأرضية التى يستطيع فلاح وأسرته أن يحرثوها ويزرعوها ، ثم حدد الهايد بما يعدل بحسابنا ١٢٠ فدانا ، فكأن الشريف أو النبيل هو من يهدى إليه الملك إقطاعا لايقل عن ٦٠٠ فدان . ولكى يصبح لقب الشرف ملكا موروثا للأسرة كان يجب أن يبقى الإقطاع كاملا فى يد الشريف ، ثم فى يد ابنه من بعده ، ثم فى يد حفيده ، ومن بعد ذلك يصبح اللقب ملكا للأسرة يتوارثه أبناؤها .

وكان لكل شريف أن يقيم قصرا يتألف غالبا من جناح للسكنى ، ومن بهو للولائم ، ومن أماكن للضيافة يأوى إليها التابعون ونحوهم فى حال الحرب ، ويحاط القصر بسور مرتفع حصين حتى يصبح بمثابة قلعة للمالك وأسرته ولمن يلجأ اليه فى حال الضرورة ، وكانوا يسمون هذا القصر « بورخ » (Burh) . وكانت المبانى طبقة واحدة ، وفى أول أمرها كانت تشيد من الأخشاب ، ولم

تستعمل الحجارة فى البناء إلاّ فى عصر الملك الفريد . و البهو الذى هو ركن
أساسى فى تصميم كل قصر ، مثل بهو الولائم الذى ورد ذكره فى ملحمة بيولف ،
كان يؤثث بأرائك خشبية ملتصقة بالجدران المحيطة بالبهو و تكون مثبتة فيها ،
وفى وسط البهو موائد تنقل من مكان الى مكان . وكانت الأرائك أوما نسميه
اليوم فى أرياف مصر « الدكك » تستعمل للجلوس نهارا ، ووقت السمر ليلا ،
كما تستعمل كأسرة لنوم الضيوف اذا حان وقت النوم. ولم تكن حوائط البهو تزين
إلا بأقمشة تنسجها و تطرزها السيدات بأيديهن . و كانت بعض أوانى الشراب
أو الطعام من الزجاج المستورد من أوربا أومن الشرق عن طريق التجار الفينيقيين ،
وكان بعضها يتخذ من الفضة ، وبعضها من قرون الحيوان .

وكان من مميزات طبقة الأشراف القدرة على احتمال شرب كمية كبيرة من
الخمر دون سكر أو فقدان وعى . وكان أكثر أنواع الخمور شيوعاً بينهم النبيذ
المتخذ من العسل و يسمونه « ميد » . وفى مجالس الشراب يكثر الفخر بالبطولة
والأبطال ، فإذا أسرف الشريف فى الشراب ، واشتد به السكر فإنه يأخذ فى
الفخر ببطولته ، ويسرد بعض ماقام به من أعمال تصلح للفخر بها ، ويدور الرهان
على أعمال بطولية أخرى يتبارى فيها بعض الشرفاء . وكان « الشوب »
أو الشاعر يلازم مجالس الشراب و يقوم فيها ليتغنى بالأساطير القبلية ، أو ليمدح
فريقاً من الفرسان والشرفاء المجتمعين على الشراب ، وكان كل ذلك من عوامل
خلق البطولة، والإقدام على التضحية لظفر بمثل هذا الثناء الذى يدور بعد إنشاده
على كل لسان، وأحياناً كان يغلب السكر على أحد الشرفاء فيستولى على القيثارة
من الشاعر و يأخذ هو فى التغنى والإنشاد ، وقد ورد فى الملحمة ذكر لمثل
هذه المواقف .

وكان من واجبات سيدة القصر وبناتها وقريباتها أن يتولين بأنفسهن تقديم
الشراب بأيديهن إلى الضيوف تكريما لهم ، ولا يشتركن معهم فى الطعام أو
الشراب ، و إنما يعتبرن ذلك من واجبات الضيافة، ومن مراسيم تكريم الضيف
العزيز . وقد أشارت الملحمة إلى أن « فرياوارو » كانت تقدم الشراب لضيوف
ابيها « خرونجار » .

ومن أهم أوجه نشاط الشريف، فيما عدا الحرب والزراعة، أن يقوم برحلات
صيد . وكان الصيد غالباً بطريقة استخدام الصقور ، وكانت الصقور تعتبر من
أثمن ممتلكات الشريف ، ولها شأن لايقل عن شأن الجياد الكريمة .

وفى مقدمة واجبات الشرفاء حضور كل مجالس المشورة التى يعقدها الملك
كلما هددت الحرب ، أو عرض أمر يدعو إلى الاستشارة وأخذ الرأى وكان
عليهم أن يكافحوا الجرائم، فكل شريف مسئول عن الأمن والنظام فى منطقته،
وعليه أن يمتطى جواده ، ويطارد بنفسه كل مجرم يرتكب جريمة ويفر من
القصاص ، وكانوا يعتبرون مسئولين عن حماية الحيوانات التى يملكها أفراد
الشعب حتى لا يسطو عليها اللصوص ، وهم جميعاً سواء فى الخضوع
لأوامر الكنيسة .

وكان من المقتنيات التى يعتز بها النبلاء أدوات الحرب وبخاصة منها السيوف،
والملابس المطرزة بالذهب أو الفضة ، والخوذات ، والقلائد التى تهدى إليهم من
الملوك، وكانوا يعتبرون كل ذلك من الذخائر النفيسة التى يجب أن تبقى فى الأسرة
يتوارثها حفيد بعد حفيد . وقد عثر الباحثون على دفتر حسابات أسرة من القرن العاشر
ورد فى إحدى صفحاته ذكر لقلادة ذهبية من ميراث أحد النبلاء، وقدرت بما يعدل

١٣٠ رأسا من البقر ، أو ٦٠٠ رأس من الغنم ، أو ١٥ رقيقا من الذكور ، وهذا ، فوق دلالته على الاعتزاز بمخلفات الشرفاء ، يرشدنا إلى معيار للقيم التى كانت تقدر بها الأشياء ، فنعلم مثلا أن العبد كان يباع بثمانى بقرات ، أو أربعين خروفا وكان يستبدل بالبقرة خمسة خرفان . وهذه الحالة — على ما وصفناها — تعتبر المرحلة الأولى لمراحل الإقطاع الذى سيطر وساد فى القرون الوسطى ؛ ثم أخذ عصر النهضة وعصر الثورات يكافحه ؛ ويعمل للخلاص منه .

ومن مجموع ما أوردنا نستطيع أن نستخلص أن ملحمة بيوولف لا بد أن يكون مؤلفها قد أنشأها لينشدها فى هذه القصور ، وبين جماعة من طبقة الشرفاء .

* * *

أما الطبقة الثانية التى كانت تعرف باسم «تشيورل» (Ceorl) فكانت تتألف من فريق وسط بين الأشراف أو النبلاء وبين الرقيق ، وأحيانا كانوا يسمونهم طبقة الثلاثين نسبة إلى الدية المقدرة لكل قتيل منهم وتبلغ ٢٠٠ شلن أى سدس دية النبيل . ولكى يحتسب المرء من أهل هذه الطبقة فى مملكة وسكس كان يجب أن يملك مساحة من الأرض يمكن أن يقوم الفرد العـادى بحرثها وحده بمحراث تجره ثمانية ثيران ، أما فى غير وسكس من أنحاء انجلترا فكان يشترط فيه أن يملك ما يقدر على الأقل بهايد واحد أى ما يقدر بمائة وعشرين فدانا تقريبا بحسابنا اليوم ، وكان عليه أن يدفع عن ذلك ضريبة للكنيسة باسم الزكاة ، وأن يقوم من أجل الملك بالخدمة العسكرية ؛ ولم يكن ملزما بتملك قطعة أرض بعينها بل كان من حقه أن يدع أرضاً لا تعجبه ليستبدل بها أرضاً فى مكان آخر يطيب له فيه المقام . وبمرور الزمن واستقرار الأوضاع الاجتماعية

صار فى إمكانه أن يستأجر أرضا من أحد الشرفاء لقاء شروط معينة ، منها القدرة على دفع الإيجار دون مماطلة أو تسويف ، وأن يؤدى للشريف خدمات خاصة فى زراعته يقوم بها مجانا ، ويلتزم بذلك كله طول مدة عقد الإيجار المتفق عليها . وكان من واجبات النبيل أن يكفل له الحماية من كل عدوان يقع عليه من الآخرين ، ومن الحرب إذا قامت . وكان التزام النبيل بذلك يزيد من تكاليف المستأجر ، ويدفعه إلى تحمل واجبات أكثر نحو ذلك النبيل الذى يستأجر منه ، وبالتالى يزيد من ارتباطه بالأرض التى يستأجرها . وقد صار هذا كله من العوامل التى رفعت من شأن النبلاء وأعانت الإقطاع على أن يسيطر ويسود حتى انحصرت السلطة كلها فى الملك والنبلاء والكنيسة .

لقد كان العرف يجرى فى ارتباط النبيل بالمستأجر على سنة فيها كثير من التعقيد ، وكثير مما يثير العجب . فإذا فرضنا مثلا أن الشريف أجر لأحد أفراد هذه الطبقة ثلاثين فدانا فعليه بمجرد إبرام اتفاق الايجار أن يمنحه ثورين ، وبقرة ، وستة رءوس من الغنم ، وأدوات الزراعة اللازمة لفلاحة الأرض ، والأدوات المنزلية اللازمة لإعداد الطعام ، ويجب أن يكون ضمن هذه الثلاثين فدانا سبعة قد ألقيت فيها البذور وحرثت .

وبعـد أن يحول الحول على الإيجار يصبح مفروضاً على المستأجر أن يعد نفسه للعمل مجانا مدة يومين كل أسبوع فى زراعة النبيل الذى استأجر منه ، فإذا نضج الزرع وحان وقت حصاده أصبحت أيام العمل المجانى المطلوبة ثلاثة أيام كل أسبوع . وعليه أن يدفع للشريف شلنا واحدا فى مطلع كل خريف ، وأن يقدم ٢٣ كيسا من الشعير ، ودجاجتين مع قدوم كل شتاء ، أما فى فصل الربيع فيقدم حملا (خروفا صغيراً) أو سدس شلن ، وكان عليه

فوق ذلك أن يقوم بحرث فدان أسبوعيا مجانا طوال فترة فصل الخريف .
وإذا كان المستأجر أغنام ترعى فى مراعى الشريف فعليه مقابل ذلك أن
يحرث فدانين مجانا فى فصل الخريف .

وتكملة لضريبة الإيجار الواجبة الأداء كان عليه أن يحرث ثلاثة أفدنة يبذر
فيها البذور من عنده، وأن يقدم لراعى ماشية النبيل ستة أرغفة كل عام، وأن يتولى
تربية كلب من كلاب الصيد ويدربه ويخصصه للنبيل . وبعد هذا كله إذا مات
المستأجر فسخ عقد الإيجار تلقائيا ، وآلت ملكية الأرض كما هى للنبيل دون
ورثة المستأجر . وكل هذه الواجبات الملزمة للنبيل والمستأجر كانت تختلف
بعض الشىء باختلاف المناطق .

وكان النبيل لا يعتمد اعتمادا كليا على من يستأجرون منه ، بل كان له
جهاز كامل يقوم بالأعمال التى تلزم لإدارة ممتلكاته ، وتكفل له حسن استغلالها
وأفراد الجهاز العامل فى خدمة النبيل يحصلون على مرتبات عينية جرى العرف
بها . فالبذار مثلا كان أجره ملء سلة من كل نوع من الحبوب التى يبذرها .
والراعى كان من حقه أن يدع ثورين من ثيرانه تعيش وترعى مجانا مع ثيران
النبيل ، وإن كان يملك بقرة فله حق تلقيحها مجانا من أحد ثيران النبيل لتخرج
له نسلا ممتازا . وحارس الغابة كان أجره أن يسمح له بالاستيلاء على كل شجرة
تسقط من تلقاء نفسها ، أو تسقطها العواصف . وراعى الغنم أجره أن يستولى على
روثها الذى ينتج منها فى اثنتى عشرة ليلة ليستعمله سباخا لزرعه أو ليبيعه ، وله أيضا
أن يستولى على حمل واحد ، وأن يستحوذ من ألبان القطيع الذى يرعاه على
ما يحلب مدة ستة أيام تبدأ من ليلة الاعتدال السنوى أى الليلة التى يتساوى فيها
الليل والنهار . وصانعة الزبد والجبن أجرها أن تحصل على الجبن المأخوذ من لبن نزع

دسمه . و فى كل عيد أو موسم يقوم الشريف بمنح هؤلاء جميعا منحا خاصة من
الخمور ومن بعض المنتجات الزراعية .

هذه العلاقات المعقدة التى تقوم بين النبيل وبين خدمه ، وبينه وبين
المستأجرين منه لم يكن لها ضابط يحكم نظامها غير نظام العرف السائد ، وهذا
العرف لم يكن يفرض على الطبقة الوسطى أو طبقة التشيورل أن يكونوا من
جماعة الفلاحين فحسب ، ولكن كان بينهم كثير من ذوى الحرف المتعددة ،
وإذا استطاع أحد أفراد هذه الطبقة أن ينمى ثروته فإنه بموافقة من الملك يستطيع
أن ينتقل إلى طبقة النبلاء ويعد منها ، وقد سجل التاريخ أسماء جماعة ارتفعوا
من طبقة التشيورل إلى طبقة الايورل (النبلاء) وبعضهم كان من صاغة الذهب ،
أو من صانعى الأسلحة .

وأهل الطبقة الوسطى أو التشيورل كانت لهم أماكن خاصة يرتادونها للهو
ولمعاقرة الخمر ، فى حين كان النبلاء لا يتناولون الخمر إلا فى أبهاء القصور ، وكان
من أساليب لهوهم تربية أنواع خاصة من الديكة يتباهون بتقاتلها ، ويتراهنون
عليها ، كما يتراهنون على مصارعة الثيران .

ومساكن أهل الطبقة الوسطى متواضعة بالقياس إلى قصور النبلاء ، وتقام
من الخشب أو من القش ، وتطلى بطبقة من الطين للوقاية من الهواء والرياح ،
وكان من تقاليدهم أن تفرش الأرض بطبقة من الحصير المصنوع من القش
والأعشاب ، وتترك فى الوسط قطعة أرض بدون فراش لتكون مكانا للوقود ،
والدخان الذى ينتج عن النار التى كانوا يوقدونها للخبز أو الطبخ أو التدفئة
يتصاعد من فتحة خاصة فى سقف البيت ، وكان هذا السقف يتخذ من القش ،
ومن الأعشاب التى تنمو على شواطئ الأنهار ، وكثيراً ما كانت تشب الحرائق

فتلتهم كثيراً من المنازل المتجاورة بسبب الأسقف المصنوعة من القش . و بسبب تعرض المواد التى كانت تشيد منها بيوتهم للجفاف وسرعة الالتهاب ، و بسبب كثرة الحرائق التى كانت تشب لم يبق لهذه البيوت أثر يذكر .

. . .

بقيت بعد هاتين الطبقتين طبقة ثالثة هى طبقة الرقيق ، وأبرز مظاهر هذه الطبقة أن لأفرادها ثمناً وليس لهم دية ، فإذا قتل عبد ألزم قاتله بدفع ثمنه لسيده . والرقيق بحكم العرف والقانون كان لا يتمتع بشخصية مدنية ، ولكن تفنى شخصيته فى شخصية سيده ، فكل جريمة يرتكبها يسأل عنها سيده ويتحمل نتائجها ، فإذا قتل مثلا صار السيد المالك مسئولا عن الدية إن كان القتيل حراً ، أو مسئولا عن الثمن إن كان القتيل رقيقاً . ومالكه يعامله كيف شاء ، ويتصرف فيه كيف شاء كأنه حيوان ، أو كأنه بعض المتاع . وظلوا كذلك حتى دخلت المسيحية البلاد . ومنذ قامت المسيحية أعطت ما لقيصر لقيصر فلم تنص على إلغاء الرق ، ولم تضع تشريعاً يكفل تغيير هـذا النظام ، إلا أن الكنيسة بدأت – منذ وصول المسيحية إلى انجلترا – تعمل من جانبها على أن تكون معاملة الرقيق أكثر إنسانية ، معاملة فيها ميل إلى الحرية ، وتدرج إلى الانطلاق من قيود الرق . وكان مما أسدته الكنيسة إلى هذه الطبقة التى حرمها المجتمع كل ما للبشر من حقوق أنها :

(ا) كفلت للرقيق بعض الحقوق ومنها حق الارتزاق من أى حرفة يزاولها فى غير الأوقات المخصصة لخدمة السيد الذى يملكه ، أو فى أى وقت فراغ يستطيع أن يجده ، ويكون ما يكسبه من ذلك ملكا خاصا به ، بعد أن كان « العبد وما ملكت يداه لسيده » .

ب – كفلت له حق التصرف الحر فيما يصل إليه من هبات أو هدايا بعد أن كان كل ذلك من حقوق سيده . ويلاحظ أن حرية التصرف فى كل ما يملك الرقيق كانت تتبع بصفة خاصة فى كل يوم أربعاء من أيام الصوم الكبير الذى يختم بعيد القيامة .

حـ – استطاعت الكنيسة أن تفرض له أجرا رمزيا ، ومن ذلك مثلا أنها فرضت لكل راع رأسا من نوع الحيوان الذى يرعاه غنما كان أو بقرا أو نحوهما وأما الأمة أى الرقيق الأنثى فتمنح ما يساوى ثمانى كيلات من القمح سنويا ، وكيلة فى كل يوم من كل حب يحصده السيد . وإذا كان الرقيق يقوم بفلاحة الأرض فقد فرضت له الكنيسة اثنتى عشرة كيلة من القمح ، وخروفين ، وبقرة فى كل عام ، وأباحت له أن يجمع الأحطاب من الغابة ، على ألا يتعارض ذلك مع المنحات الخاصة التى قد تقدم إليه ، وبخاصة فى الأعياد .

د – أهم من هذا كله أنها أباحت للعبد أن يعتق نفسه إذا استطاع أن يدخر الثمن المقدر له .

هـ – جعلت العتق من أنواع الكفارات التى تفرضها للتكفير عن بعض الجرائم .

وبهذا ونحوه سارت الكنيسة بالرقيق خطوة واسعة نحو التحرر والخلاص من الرق والعبودية .

وكان للرق مصادر متنوعة ، فبعض الرقيق كانوا من أسرى الحرب ، وبعضهم ممن باعهم أهلهم صغارا أو كبارا تحت ضغط الحاجة والفقر ، وبعضهم ممن باعوا أنفسهم تخلصا من الجوع والتشرد ، وبعضهم كانت تختطفهم عصابات

تخصصت فى هذه التجارة . والكنيسة نفسها كانت تملك بعض الرقيق ممن يعملون فى ممتلكاتها ، وكان من النظام المتعارف أنه إذا مات الأسقف فإن جميع الرقيق الذين تملكهم كنيسته يصبحون أحراراً ، ويتقرر عتقهم تلقائيا .

وكانت عملية العتق تجرى علنا وفى حفل رسمى يقام فى الكنيسة أمام المذبح ، أو عند مفترق الطرق ، وربما كان اختيار مفترق الطرق مقصودا به أن يكون رمزا لمنح الرقيق حرية الانطلاق حيث يريد .

ولا تنقطع الصلة بين السيد ومولاه بمجرد العتق بل تبقى بينهما صلة من نوع جديد ؛ ذلك أن يكون السيد أحد ورثة الرقيق الذى تحرر ، فله جزء من الميراث ، أو جزء من الدية إذا مات مقتولا . وأصل هذا التشريع افتراض أن الرقيق قد يموت أو يقتل ولا وارث له من صلبه أو ذوى قرابته فيكون سيده السابق هو الأحق بالإرث ، وهو ولى الدم الذى يطالب بالدية ، هذا إلى جانب ما فى ذلك من إشارة إلى ما كان بينهما من علاقات سابقة .

* * *

تلك هى الطبقات الثلاث التى كان يتألف منها المجتمع الأنجلوسكسونى الذى أنشئت فيه ملحمة بيولف ، وتلك هى البيئة التى كانت تروى فيها هذه الملحمة وتردد فى كل نادٍ ومجتمع . ويلاحظ أن تلك الطبقات التى وضحناها وعرفنا بها لم تكن طبقات مقفلة أو جامدة ، بل كانت مرنة مفتوحة . فطبقة الأشراف كما أسلفنا كان ينشئها الملك إنشاء ، فيستطيع أن يقطع أرضا لمن يشاء فيدخله بهذا الإقطاع فى عداد النبلاء ، والنبيل قد يسرف ويتهور فيفقد نصاب النبلاء وينحدر إلى طبقة أخرى ، وكان الفرد من طبقة التشيورل يستطيع أن يجتهد ويوسع دائرة تملكه حتى يملك نصاب النبلاء ويلتمس من الملك أن يقره

فى طبقة النبلاء فيجيبه إلى ذلك ، وكان الرقيق أيضا يستطيع أن يفتدى نفسه ويشترى عتقه فينتقل إلى الطبقة الثانية وهكذا . . . فكانت هذه الطبقات أشبه شىء بسلم للصعود والهبوط ، وعلى رأس هذا السلم يستقر شخص واحد ، يمثل طبقة خاصة تتحكم فى كل الطبقات . هذا الشخص الواحد الذى يمثل طبقة خاصة هو الملك .

ومنذ العهد الجرمانى كان الملك يختار بالانتخاب إذ يجتمع مجلس عام من رجال القبيلة وينتخبون لحكمهم من تجمع الآراء عليه فيتوجونه ويسلمونه زمام أمورهم ، ويصبح هو الملك المتصرف على نحو ما كان يصنع العرب فى العصر الجاهلى حين ينتخبون شيخ القبيلة مع فارق بين نفوذ الملك ونفوذ شيخ القبيلة .

أما بعد الهجرة ، واستقرار القبائل فى مناطق بعضها عظيم الاتساع فقد ظل الملك يختار بالانتخاب ، ولكن اشترط فيمن يرشح نفسه لهذا الملك أن يكون فيه دم ملكى ، فليس لواحد أن يرشح نفسه مالم يثبت انتسابه إلى سلالة أحد الملوك السابقين ، وقد كان هذا الشرط من الأسباب التى أثارت العداوات بين القبائل وأدت إلى الحروب الأهلية .

ولما استقر المجتمع ، وأخذ بطرف من الحضارة بدأ العرف يجرى على أن يكون الوارث للعرش هو الابن الأكبر للملك ، ولكن هذه القاعدة لم تسلم من الشذوذ . فمن ذلك مثلا أن الملك ألفريد جلس على العرش ولم يكن الابن الأكبر للملك ولكنه أخوه ، أما أبناء الملك فكانوا فى دور الطفولة ، والبلاد مهددة بحرب وتحتاج إلى ملك حازم لا إلى طفل يقوم عليه أوصياء ، لهذا آل الملك إلى الأخ الأصلح فكان هو الملك ألفريد . ولا ينفى هذا وشبهه أن القاعدة العامة

التى كانت سائدة هى أن الملك يتم اختياره بالانتخاب ، ولو كان انتخاباصوريا .

وبعد أن كان الانتخاب قبليا قبل زمن الهجرة أصبح بعدها من اختصاص مجلس خاص يسمى مجلس الملك ، وكان أعضاؤه يسمون الحكماء . ولما استقرت المسيحية فى البلاد وسيطرت الكنيسة أصبح هؤلاء الحكماء يتألفون من رؤساء الأساقفة ، والأساقفة ، ورؤساء الأديرة الكبرى ، ومن النبلاء ، والقسيسين الذين يكونون من حاشية الملك ، وبهذا كان العنصر الغالب فى الحكماء هو عنصر رجال الكنيسة ، وكان هذا مما أسبغ على عملية التتويج صبغة الدين ، وجعل عملية التتويج من الطقوس الدينية . وكانت النظرية الكنسية أن الملك منفذ لإرادة الله فهو لايخطىء ، وكانت الكنيسة تتبع فى تتويج الملك ماتتبعه حين ترسم قسيسا . واقتران التتويج بالطقوس الدينية تجلى واضحا قويا منذ أواخر القرن الثامن الميلادى . ومن ذلك كله نستطيع أن ندرك أن الملك كان يستمد سلطانه من الكنيسة ، والكنيسة تستمد قوتها ونفوذها من الملك .

وقد يكون من الملائم هنا أن نعرض نص القسم الذى كان يلقيه الملك وقت تتويجه أمام الكنيسة لما لصيغة هذا القسم من الدلالة على قوة الارتباط بين الملك والكنيسة وعلى مدى ما كان بينهما من تحالف فى المجتمع الانجلوسكسونى وإن يكن قد ظهر بينهما بعض الخلافات فيما بعد . لقد كان القسم الذى ألقاه أحد الملوك ساعة التتويج :

« باسم الثالوث المقدس أعد الشعب المسيحى الذى أحكمه أن أقوم له فى مقدمة ما أقوم بأمور ثلاثة :

أولا — أن كنيسة الله ، ورعاياى المسيحيين سيعملان معا لتوطيد الأمن والسلام .

ثانيا — انى أحرم السرقة والظلم على جميع الناس من كافة الطبقات .

ثالثا — أنى أعد أن أحكم بالعدل ، وأن تتسم أحكامى وأحكام من ينوبون عنى بالرحمة ، وذلك لكى يمنحنا الله الرحمن الكريم الأبدية ، وهو سبحانه الذى يحكم ويسيطر على الجميع »

كان هذا ونحوه مما جعل الكنيسة فى أواخر القرن الحادى عشر تعتبر الملك ممثلا للمسيح بين الرعايا المسيحيين ، ومما جعلها أيضا توطد سلطة الملك على حساب سلطة طبقة النبلاء حتى انحصرت السلطة الروحية والزمنية فى الملك وفى الكنيسة .

وقد جعلت الكنيسة الملك مركزاً ممتازاً ، فابتداء من تتويجه يعفى من القسم لأنه لا يخطىء ، ولأن كل ما يقوله صدق ، وقاتله يعتبر قد ارتكب جريمة لا تغتفر ولا يمكن التكفير عنها ، ولا يجوز أن يمثل بين يديه شخص لوثته الخطيئة ، وإذا ارتكب شخص ما خطيئة توجب طرده من الكنيسة لا يجوز أن ينال شرف الحظوة بمقابلة الملك ، لأن للملك قداسة لا يجوز أن تدنسها خطيئة ، أو مرتكب خطيئة . والهدف من ذلك — أرادوا أو لم يريدوا — نشر الأمن والسلام ، فلكى يحظى أمرؤ ما برضاء الملك أو يتقرب منه يجب أن يكون بعيداً عن الخطيئة ، غير مدنس بإثم أو متهم بجريمة . لذلك كان الأمن العام عندهم يسمى « سلام الملك » وكان الملك ينتقل فى جهات كثيرة نشراً للسلام الذى يتبعه حيث سار . وكان يستقبل كثيراً من الزائرين ، ويشجع على هذه الزيارات ، ويتولى بنفسه الحكم فى بعض المشاكل والخصومات ، كما كان حكمه نافذاً لا معقب له .

وكانت العادة المتبعة مع ملوكهم هى العادة المألوفة مع كل الملوك وهى أن

الداخل عليهم يجرد من أسلحته ، ولا يدخل فى حضرة الملك إلا أعزل ، ولهذا تقول الملحمة أن بيولف حين قدم على الملك خروثجار ، وطلب المثول بين يديه جرد هو ورفاقه من كل سلاح ، وذلك رمز إلى أن مجلس الملك مجلس سلام ، وأن البيئة المحيطة به يجب أن يسودها السلام .

وكانت انجلترا فى تلك الآونة مقسمة إلى سبع ممالك لكل منها ملك إلا أن أقدارهم تختلف باختلاف المناطق التى يحكمونها ، ومع اختلاف أقدارهم فإنهم ينتخبون واحداً منهم يكون هو الملك الأكبر أو الزعيم ، ويسمونه بريتوالدا (Bretwalda) وتكون له الكلمة النافذة على كل الملوك ، ولكن لا سلطة له على شعوبهم .

(٦)

مؤلف الملحمة :

شىء من تاريخه

أهو منشىء الملحمة أم راوية لها ؟

لم يعرف على التحديد مؤلف ملحمة بيولف ، بل لقد كثر الحدس والتخمين حوله ، وحول كونها من إنشاء شاعر واحد أم أنها إنتاج عدد من الشعراء ، وهل الشاعر الذى نسبت إليه هو الذى أنشأها أو أنه كان مجرد راوية لها ؟ وبالجملة فإن الشكوك التى أحيط بها هوميروس المنسوبة إليه ملحمة الإلياذة هى نفسها التى أحيط بها مؤلف ملحمة بيولف .

ومن أصحاب الآراء فى هذا العالم الألمانى « كارل ملتهوف » : ومجمل رأيه أن النواة الأولى لملحمة بيولف كانت تتمثل فى قصيدتين متوسطتى الطول ، إحداهما تتناول صراعه مع جرندل ، والأخرى تتناول صراعه مع التنين ، وتناول هاتين القصيدتين شعراء آخرون مختلفون أضافوا إليهما ما زين لهم الخيال ، وكان من أبرز إضافاتهم قصة صراعه مع أم جرندل ، ثم قصة عودته إلى وطنه .

وقد يكون هذا الرأى مبنيا على أن الناقد نظر إلى كل معنى تكرر فى الملحمة وقدر أنه قد أقحم عليها ، ولكن فات من ذهبوا هذا المذهب أن الشاعر أحيانا يلجأ إلى مثل هذا التكرار لغرض فنى ، أو لغاية خاصة يهدف إليها .

وهناك رأى آخر للعالم الدانماركى الأستاذ « تنبرنك » (ten Brink)

يتلخص فى أن القصيدة من إنشاء شاعر واحد ، وقد تابعها الشاعر نفسه بزيادات ألحقها بها أثناء رواياته المتوالية لها .

ثم يأتى رأى العالم الألمانى « براندل » مكملا لذلك فيقول إن مؤلف الملحمة شاعر واحد ، ولكنه كان يتردد بين أسلوبين : الأسلوب الملحمى الوثيق ، وأسلوب الرواية الشعبية التى كان يتغنى بها شعراء القبائل الجرمانية ، وتردده بين الأسلوبين هو الذى يجعلنا ، نحس ونحن نقرؤها ، كأنها من نتاج أكثر من شاعر واحد .

وقد استقر الرأى حديثا على أن ملحمة بيولف من وضع شاعر واحد كان انجليزيا سكسونيا لغته الانجليزية القديمة ، وأنه لم ينقل أو يترجم عن أصول جرمانية أو سكندنافية .

ومما هو جدير بالملاحظة أن أقدم شعر سكندنافى عرفه الأدب يعتبر أحدث من الشعر السكسونى الذى ألفت به الملحمة، وليس معقولا أن يأخذ المتقدم عن المتأخر ، ولكن ذلك لا ينفى أن الشاعر ربما كان قد طاف فى البلاد السكندنافية ، وسمع هذه القصة الشعبية على ألسنة الرواة فاستقرت فى نفسه أحداثها وتأثر بها . وقد يكون سمع هذه الأسطورة فى بريطانيا نفسها لأنها كانت شائعة بين قبائل الأنجل التى كانت قد استوطنت بريطانيا مدى قرنين على الأقل قبل الزمن الذى ظهر فيه الشاعر المنسوبة إليه هذه الملحمة .

ويبدو أيضاً أن هذا الشاعر كان مثقفا واسع الثقافة ، عليما بتقاليد الملوك ، خبيراً بالقصور الملكية ، لهذا ذهب بعض النقاد إلى أنه كان من رجال بلاط أحد ملوك السكسونيين .

وظهور أثر المسيحية جليا فى الملحمة جعل بعض النقاد يذهبون إلى أنه كان راهبا يقيم فى أحد الأديرة .

ويبدو من أسلوب القصيدة أنها أنشئت لتروى أمام طبقة من الخاصة بينهم أحد الملوك ، لهذا نراه يكيل الثناء للملوك . وذكر « أوفا » ملك الأنجل فى الملحمة قد يكون دليلا على أن الشاعر كان يتلو القصيدة فى قصر الملك « أوفا الثانى » ملك مرشيا (Mercia) الذى كان يزعم أنه من سلالة الملك « أوفا » القديم .

وأوفا الثانى ملك مرشيا (أنظر الخريطة) قد توفى سنة ٧٦٦ م فإذا أخذنا بهذا الرأى استطعنا تحديد الوقت الذى أنشئت فيه هذه الملحمة على وجه التقريب .

والرأى الغالب هو أن الشاعر كان من حاشية « أوفا الثانى » لأن المدح الذى خص به « أوفا الأول » مقحم على تسلسل الملحمة إقحاما يوحى بأنه مقصود لذاته .

وهناك رأى آخر يذهب إلى أن القصيدة من إنشاء شاعر معاصر للمؤرخ الكنسى الأنجلوسكسونى الشهير « بيدا » الذى عاش فى مملكة « نورثمبريا » ومات سنة ٧٣٥ ، والعماد الوحيد لهذا الرأى أن الأدب السكسونى كان مزدهرا إبان هذه الفترة فى نورثمبريا ولا بد أنها أنشئت فى ظل هذا الازدهار .

وسواء أكانت قد أنشئت فى نورثمبريا أم فى مرشيا فإنها فى كلتا الحالين لم تنشأ قبل أواخر القرن السابع أو أوائل القرن الثامن ، ولا بعد أوائل القرن التاسع حين بدأت غارات الفايكنج تزيل آثار الحضارة الأنجلوسكسونية من بريطانيا .

(٧)
عرض لأحداث الملحمة

استغرقت أحداث هذه الملحمة جزأين :-

الجزء الأول : تناول هذا الجزء مغامرات بيولف فى بلاد الدانيين . ويبدأ بعرض قصة « شولد » رأس أسرة الشولدنج أى أبناء شولد الذين تولوا حكم الدانيين .

وتروى قصة « شولد » أن البحر قذف به إلى أرض الدانيين ، وهو طفل عليل ، وعاش بينهم وتوالت الأعوام وتحول الطفل العليل إلى رجل قوى ولاه الدانيون حكمهم وقد ظل يحكمهم حكما صالحا حتى طواه الموت ، فأبى الدانيون أن يواروا جثمانه التراب كغيره من الموتى ، ولكنهم ألقوا به إلى البحر ليذهب من حيث جاء .

وأحداث هذه الملحمة تدور كلها فى عهد «خروثجار» أحد خلفاء « شولد » فتزعم أنه بنى قصرا فخما سماه « هيوروت » ، وجعله مقرا لحكمه : أنشأ فى هذا القصر بهوا عظيما ليكون مكانا للحفلات والولائم التى كان يقيمها فيما بين آن وآخر لأتباعه وزواره وضيوفه . غير أن أمرا حدث قضى على التمتع بالبهو وبالقصر معا ، بعد فترة يسيرة . ذلك أن وحشا شيطانيا يدعى « جرندل » كان يسمع عبارات المدح والثناء يتردد صداها فى أذنيه ، فتملأ قلبه غيظا وحنقا على « خروثجار » الذى يخصونه بهذا المدح وذاك الثناء ، واشتد حنق الوحش

فقرر أن يدمر سعادة هؤلاء الدانيين الذين يزعجونه بما لا تطيب له نفسه . فأقبل ذات مساء وهاجم البهو فجأة ، وازدرد ثلاثين من الدانيين النائمين فى البهو ، وكرر فعلته فى الليلة التالية ، وهكذا ظل يوالى هجماته على البهو ، ويزدرد من يجد فيه من الدانيين مدى اثنتى عشرة سنة لم يستطع أحد من الدانيين أن يعترض طريقه أو يصد عدوانه لا عن طريق القوة ، ولا عن طريق الحكمة أو الحيلة .

اما « خروثجار » فقد حزن لذلك أشد الحزن ، واستولت عليه كآبة لا عهد لأحد بمثلها حتى تناجى الناس بحزنه ، وأخذت أخبار كآبته ، وذكرى مأساة قصره تتردد فى شتى الأنحاء ، حتى وصلت إلى مسامع « بيولف » ابن أخت « هوجلاك » ملك الجيات ، فعز عليه أن يدع هذا الوحش يعبث بأرواح الدانيين ولا يجد من يصده وهو الذى عرف بالقوة والشجاعة حتى وصف بأن قوة يده تعدل قوة أيدى ثلاثين فارسا مجتمعة . لقد قرر هذا البطل الشجاع أن يمد يد العون إلى «خروثجار» ولقى من شيوخ قبيلته مشجعا له على تنفيذ عزمه ، فوقع اختياره على أربعة عشر فارسا من خيرة المحاربين وأقواهم ، وسار بهم إلى شواطىء بلاد الدانيين .

وحين وصلوا إلى هـذا الشاطىء اعترض طريقهم أحد حراس الشواطىء وسألهم عن أمرهم ، وعن الغاية من قدومهم ، فأخبره بيولف عما جاء من أجله ، ففسح له ولرفاقه الطريق ، وقادهم إلى قصر « خرُوثجار » ، وهناك كان فى استقبالهم « وُولفجار » كبير أمناء القصر ، وأوصلهم إلى الملك الذى أحسن استقبالهم ، ورحب بهم خير ترحيب . ووقف « بيولف » بين يدى الملك يشرح له الغرض من قدومه فى صحبة رجاله ، وصرح له « خرُوثجار » بعاطفة الألم التى

تغمره بسبب ما يلاقى من غارات « جرندل » وما ينتج عنها من ذل له ، وآلام لقومه . وتكريما لبيولف ورفاقه أقام الملك « خروثجار » حفل عشاء اشتركت فيه معه أسرته مبالغة فى تكريم الضيوف .

وخلال حفل العشاء قام « أونفرت » أحد رجال حاشية ملك الدانيين وأراد أن يستثير حماسة بيولف ، فأشار إشارة عابرة إلى ما أصابه من إخفاق فى مسابقة السباحة بينه وبين « بريكا » .

وقام « بيولف » ليرد عليه فذكر تفصيلات هذه المسابقة وفيها ما يشرف « بيولف » وما يعتبر بالنسبة له انتصاراً لا إخفاقاً كما يظن بعض الناس ، وختم حديثه بأن تنبأ للحاضرين بأنه سينتصر على « جرندل » ويريح القوم من عدوانه .

وقد رحبت به الملكة « ويالخثيو » وأحسنت الحفاوة به فرد عليها بالشكر والاحترام ، وقطع على نفسه عهداً أمامها أن يطهر المكان من « جرندل » وغاراته ، أو يروح ضحية ذلك .

ولما انقضى شطر كبير من الليل ، واشتدت حلكة الظلام انصرف الدانيون إلى حيث يبيتون بعيداً عن متناول الوحش ، أما « بيولف » ورجاله فقد سهروا على حراسة البهو ، غير أن سلطان النوم قهر رجاله فراحوا فى سبات عميق ، ولكنه هو ظل ساهرا يترقب قدوم هذا العدو المخيف .

وفى ساعة متأخرة من الليل أقبل « جرندل » منحدراً من فوق الجبل يهز الأرض بقدميه الثقيلتين هزاً عنيفا ، ولما دنا من البهو حطم بابه ، وانقض على « هندشيو » أحد رجال الجيات ، وازدرده فى لحظة ، ثم استدار إلى « بيولف »

وقبض عليه ، فما راعه إلا أنه وجد نفسه فى قبضة أقوى من قبضته ، ودار بين الاثنين صراع رهيب هز الأرض تحت أقدامهما هزاً شديدا كاد يدك القصر على من فيه دون أن يقهر أحدهما الآخر .

وتسرب اليأس إلى نفس « جرندل » ، ورأى أنه عرضة لخطر ماحق ، فأراد أن يفر ، ولكن « بيولف » شدد القبضة عليه ، وخلال المعركة العنيفة بين العملاقين جذب الوحش ذراعه جذبة قوية ليتخلص من قبضة عدوه لكن ذراعه نزعت من جسمه نزعا فصرخ صرخة ألم مروعة ، وترك ذراعه فى يد خصمه وولى مدبرا نحو المخبأ الذى قدم منه ، ودم الموت ينزف من ذراعه المبتورة التى بقيت فى يد « بيولف » .

وما كاد ضوء الصباح ينبلج حتى كان كثير من المحاربين يقصون أثر هذا الوحش الذى أقض المضاجع ، وتتبعوا أثر الدم حتى وصلوا إلى بحيرة قد اختلطت دماؤه بمياهها ، فعرفوا أن الوحش قد غاص فيها ، وقدروا أنه لا بد قد أدركه الهلاك .

رجعوا من رحلة استقصائهم يتغنون بالثناء على بيولف ، وينصتون إلى قصيدة كان قد أنشأها شاعر القبيلة فى قصة « سِيجمُوند » و « هِيرمُود » لما بين هذين و بين « بيولف » من تشابه فى البطولة .

وسر « خروثجار » بهذا النبأ ، وأقبل هو وأسرته ورجال حاشيته إلى البهو يتشفون بالنظر إلى ذراع الوحش وقد علقت فى سقف البهو فى عرض مثير ، وأخذ « خروثجار » يشكر الآلهة التى أعانته على التخلص من هذا العدو الرهيب وأثنى خير الثناء على « بيولف » ووعده بحسن الجزاء مكافأة له على ما أبداه من بطولة وتضحية . و بادر « بيولف » بتقديم الشكر ، وأخذ يرسم بأسلوبه

صورة حية للصراع الجبار الذى دار بينه و بين الوحش ، حتى انتهى إلى ما انتهى إليه .

وأقيمت فى البهو وليمة كبرى ، وأخذت الهدايا الثمينة تتابع على بيولف ورفاقه ، وقام شاعر القبيلة يتغنى بين الحاضرين منشداً قصة « فِنزبُورج » ، وطافت الملكة «وَيالخثيو» بالموائد تكرم الحاضرين بأن تملأ لهم الكئوس بيدها إعلانا عن بهجتها ، وانشراح قلبها . ثم قدمت إلى « بيولف » هدايا ثمينة منها ، مشفوعة بإعلان أملها فى أن يظل مستقبلا يذكر ولديها ، ويبسط عليهما حمايته .

ولما انتهى الحفل ، وانصرف الملك والملكة ، انصرف كذلك بيولف ورجاله إلى مخادع أعدت لهم خارج البهو ، وبقى البهو فى حراســـة الفرسان الدانيين .

* * *

فى نفس هذه الليلة أقبلت أم الوحش « جرندل » إلى البهو لتثأر لولدها الذى روعها فيه « بيولف » . فاقتحمت البهو حين كان الدانيون غارقين فى نوم مطمئن ، فقتلت أحدهم ، وهو « آشير » أقرب رجال الحاشية إلى قلب « خُروثجار » وأحبهم إليه ، ثم اختطفت ذراع ابنها المعلقة فى سقف البهو ، وعادت تحمل الغنيمتين إلى مقرها فى المستنقعات .

ولما أقبل الصباح ، وعرفت قصة الغارة ، واختطاف آشير ، واسترداد الذراع تألم « خروثجار » ألماً شديداً ، وأمر باستدعاء بيولف فأقبل مسرعا ، ولما عرف الخبر رثى لآشير ، وحزن عليه حزناً عميقا ، ورجا أن يصف له الملك

مخبأ أم الوحش فوصفه له وصفا مخيفا مزعجا ، إلا أنه مع ذلك أعلن كبير أمله فى أن يخلصه من أم جرندل ، كما خلصه من جرندل نفسه من قبل . فأبدى بيولف كل استعداد لإنقاذ الملك من هذا الهول الذى يكدر عليه صفو حياته .

وسار « بيولف » ورجاله فى صحبة الملك وبعض الدانيين إلى المستنقعات التى تستقر فيها أم جرندل ، وهناك تدرع بيولف بعدة القتال من زرد وخوذة ومجن ، وودع الملك ومن حوله وداعا حاراً مخافة أن تعاجله المنية فلا يعود إليهم .

سار فى المستنقعات حتى غاص فيها ، وإذا بأم الوحش تلقاه وتجره ، وتغوص به إلى قاع الماء ، وفى هـذا القاع دار بينهما صراع رهيب استعان فيه بيولف بسيفه غير أنه لم يجده نفعا ، وكاد يروح ضحيتها إذ قد غدا بغير سلاح ، غير أن الحظ أسعفه بأن لمح سيفا عريقا كبيراً معلقا على مقربة منه ، وفى لمحة خاطفة استولى عليه ، وأهوى به على أم جرندل فقتلها ، ثم لمح جثة ابنها فبتر رأسه بهذا السيف .

وبينما كانت المعركة على أشدها بين بيولف وأم جرندل كان الدانيون على الشاطىء ينظرون بقلق إلى الماء ، ويريدون أن يعرفوا حقيقة ما يدور تحته ، ولما وجدوا الماء معكراً ، والدماء مختلطة به لم يخامرهم شك فى أن بيولف قد قتل ، فأخذ الدانيون فى الانصراف ، ولكن رجال بيولف من الجيات أبوا أن ينصرفوا معهم ، وظلوا يترقبون . ولم يمض وقت طويل حتى لمحوا بطلهم يطفو فوق الماء ، وهو يحمل رأس جرندل بإحدى يديه ، وفى اليد الأخرى يلمع مقبض سيف ذهبي عتيق بدون شباة لأن السيف قد ذاب مصهوراً بفعل دم أم جرندل المسموم ، واستقبله فرسان الجيات فرحين مهللين ، وعادوا معه إلى القصر « هيُورُوت » يحملون غنيمته .

وحين وصلوا إلى القصر استقبلهم الملك وحاشيته ، وأخذ بيوولف يقص عليهم قصة نضاله مقرراً فى ختام خطابه أنه قد طهر أرض الملك من كل خطر يتهددها ولم يبق إلا أن يرحل مطمئناً إلى سلامة الملك وآله وشعبه .

ورد عليه خروثجار بخطبة تجلت فيها روح الحكمة والعظة . ثم أقيمت وليمة كبرى فى البهو ابتهاجاً بالظفر الحاسم الذى أحرزه بيوولف . وفى صبيحة اليوم التالى استعد الجيات للرحيل ، وألقى بيوولف خطاب وداع جميل ، ورد عليه خروثجار شاكراً ، مودعا ، متمنيا ، وفى خطابه تنبأ للبطل بأنه سيكون فى يوم ما ملكا على الجيات .

أبحر بيوولف مع رجاله ، ولما وصلوا إلى شواطىء بلادهم كان أول ما فعلوه أنهم ذهبوا إلى قصر الملك « هُوجْلاَكْ » حيث استقبلهم هو وقرينته « هُوجْدْ » . وهنا يستطرد مؤلف الملحمة فيوازن بين الملكة الشريرة « ثْرُوتْ » وبين الملكة الصالحة « هوجد » ، بعدئذ أخذ بيوولف يقص على مسامع الملك والملكة أخبار مغامرته فى بلاد الدانيين ، وأشار فى خلال حديثه إلى أن خطبة الزواج التى انعقدت بين « فِرِيَاوَارُو » ابنة خروثجار إلى « أنجلد » لن تستطيع أن تزيل ما بين الدانيين والهِيَاثُوبَارْدْ من خلاف ونزاع .

بعدئذ أخذ يعرض الكنوز التى عاد بها على أنظار الملك والملكة ، واقتسم تلك الكنوز معهما ، ثم تلقى منهما هدايا ثمينة تقديراً لإخلاصه ، وعاش بيوولف بعد ذلك فى قبيلته موضع الاحترام والتبجيل ، وموضع التكريم من خاله الملك « هُوجْلاَكْ ».

* * *

والجزء الثانى من الملحمة يتناول الصراع بين بيوولف والتنين ، ويتحدث عن نهاية البطل :

مات الملك « هوجلاك » فى إحدى غاراته على الفرنج ، وخلفه فى الملك ابنه « هياردريد » ووقف « بيولف » إلى جانب الملك الجديد يعاضده ويناصره وظل كذلك حتى مات « هَياردريد » أيضاً أثناء معركة بينه وبين السويد . وبموت « هياردريد » آل الملك إلى بيولف ، وصحت نبوءة ملك الدانيين ، وظل بيولف ملكاً على الجيات خمسين عاما .

وفى الفترة الأخيرة من حكمه حدث أن أحد العبيد الآبقين استولى على كنز يملكه تنين شرس . ولما لم يجد التنين كنزه ثار وغضب ، وأخذ يدمر كل ما يعترض سبيله انتقاماً لكنزه المسلوب ، وأزعج ذلك « بيولف » فقرر أن يتولى بنفسه مصارعة هذا التنين ليخلص شعبه من عدوانه وأمر بأن يصنع له ترس من أقوى أنواع الحديد ليقى نفسه به من التنين الذى كان ينفث من فمه لهبا وهاجا شديد الفتك . ولما أعد الترس استصحب معه أحد عشر رجلا انتقاهم من خيرة رجاله وسار بهم يبحث عن مأوى التنين ، وكأن إحساساً خفياً داخله بأن حياته قد وصلت إلى نهايتها فودع قومه بخطبة طويلة استعرض فيها ماضى حياته ، واستذكر ما عرض له فى شبابه من حوادث ، وما وقع له فى حرب السويد ، وما جرى فى بيت ملك الجيات . ثم ودع رفاقه الأحد عشر ، وطلب منهم أن ينتظروه لأنه قرر أن يصارع التنين وحده .

ونادى التنين إذ كان هاجعا فى كهفه ، ثم هجم عليه بجرأة وشجاعة ، غير أنه لم يستطع احتمال وهج اللهب الذى كان التنين ينفثه ، وخانه سيفه فى تلك الساعة الحرجة فلم يسعفه ، وفزع رفاقه الأحد عشر لما رأوه من هول

الموقف ، وفقدوا صوابهم ففروا إلى الغابات المجاورة . ولم يثبت منهم غير « ويجلاف » الذى أخذ يؤنبهم على جبنهم ، وعلى تخليهم عن زعيمهم فى ساعة الحرج والشدة . وبادر « ويجلاف » إلى نجدة قريبه وزعيمه فطعن التنين طعنة قاتلة فى مؤخرة جسمه ، وفى هذه اللحظة استطاع بيولف أن يضرب ضربة قاضية فشطر التنين شطرين ، لكنه كان — مع الأسف — قد جرح جرحا مميتا .

أمر الملك « بيولف » قريبه « ويجلاف » أن يدخل كهف التنين ، وأن يحمل ما يستطيع من كنوزه ، ونفذ « ويجلاف » أمر مليكه وجاء بكنوز رائعة أخذ « بيولف » يتأملها ، وهو يشكر الآلهة التى أعانته على أن ينتصر على التنين ، ويعود إلى شعبه بهذه الكنوز الثمينة . ولما عاد إلى شعبه أوصى بأن يقام له نصب عال فوق تل « خرونسناس » تذكاراً له ، كما أوصى بكل دروعه وأسلحته لويجلاف قريبه تقديراً لوفائه وبطولته ، وما كاد يفرغ من وصيته حتى قضى نحبه .

وانفجر مرجل غضب ويجلاف ، وفاض حزنه ، وأخذ يؤنب رفاقه بعنف وقسوة على ما كان منهم من جبن وفرار ، ثم بعث بمن يعلن فى الشعب خبر موت مليكه البطل ، وقام رسوله خطيبا فى جموع الشعب يرثى الملك ويعدد مآثره ، ويتنبأ بما يلاقى الشعب بعده من مصاعب ومتاعب . وذكر بالتفصيل قصة ماجرى بين الفرنج والسويد .

اجتمع محاربو الجيات فى الميدان الذى دارت فيه رحى المعركة بين « بيولف » والتنين ، وقرروا أن لعنة الذهب قد تحققت فيهم ، وأمرهم « ويجلاف » أن يخرجوا ما بقى من الكنز ، وأن يلقوا التنين فى عرض الماء ،

ثم حملوا جثة الملك إلى تل « خرونسناس » حيث أقيم النصب الذى أوصى به . وفوق التل أقيمت محرقة كبرى ، وزينت بالأسلحة ، ووضعت فوقها جثة البطل وأشعلت فيها النار وأخذت تلتهمها بين بكاء الشعب وعويله ، ثم جمع ما تخلف من رماد جثة الملك الراحل ودفن ، وأقيم فوقه نصب عال تذكاراً له ، وتحته دفن الشعب كنوز التنين التى دفعوا لها أغلى ثمن وهو حياة الملك البطل العظيم .

وامتطى اثنا عشر فارساً جيادهم ، وأخذوا يطوفون حول النصب يرثون مليكهم ، ويذكرون جليل مآثره وأعماله ، ويمجدون فضائله التى كان يتغنى بها بين الملوك .

(٨)

مخطوطة الملحمة

ظلت قصة بيولف تروى ، ويعتمد فيها على الرواة إذ لم يعثر لها على أثر مكتوب ما عدا مخطوطة محفوظة بالمتحف البريطانى ، وهى مسجلة فى فهارسه تحت اسم : Codex Vitellius Axv وهذا اسم المجلد يحتوى على تسعة نصوص بالإنجليزية القديمة تتناول موضوعات مختلفة منها قصة بيولف .

ويلوح أن هذه القصص جمعت فى مجلد واحد فى أوائل القرن السابع عشر الميلادى ، ولكنها كتبت قبل ذلك بكثير .

والنص الخاص بقصة بيولف يستغرق الصفحات من ١٢٩ إلى ١٩٨ من الجزء الثانى من المجلد . ويظهر أنها كتبت بيد ناسخين أحدهما كتب من أولها إلى البيت رقم ١٩٣٩ ، والناسخ الثانى كتب باقى الملحمة ، وباقى النصوص التى تضمنها المجلد .

ولا يعرف على التحقيق تاريخ هذه المخطوطة ، غير أن الصفحة الأولى من قصيدة بيولف عليها اسم Laurence Nouell بتاريخ سنة ١٥٦٣ ، ويفهم من ذلك أن المخطوطة كانت فى حيازة صاحب هذا الاسم ، وهو أسقف فى كاتدرائية مدينة Lichfield (حيث ولد الدكتور جونسون) ، وقد توفى هذا الأسقف سنة ١٥٧٦ ، وكان من أوائل المهتمين بأدب اللغة الإنجليزية القديمة .

ويسجل التاريخ أن انجلترا حين اعتنقت البروتستانتية وقع فيها عدوان شديد على أديرة الكاثوليك فأغلقت ، وأحرق كثير منها ، وشرد رهبانها وضاعت

ذخائر كتبها ، غير أنه كان من حسن حظ هذه المخطوطة أن الأسقف لم يكن يحتفظ بها فى الدير أو الكنيسة بل أبقاها ضمن مكتبته الخاصة فى بيته لذلك سلمت مما أصاب غيرها .

ويبدو من طريقة كتابة الناسخين اللذين كتبا هذه الملحمة أنها دونت فى أواخر القرن العاشر ، أى بعد حوالى قرنين من تاريخ إنشائها ثم وصلت المخطوطة إلى يد السير روبرت كوتون الذى كان من هواة جمع الكتب ، والذى توفى سنة ١٦٣٠ ، وبقيت فى مكتبته إلى ما بعد موته . ثم حدث حريق فى البيت الذى فيه المكتبة التى تضمها ، وكان ذلك سنة ١٧٣١ ، والتهمت النار كثيراً من الكتب ، وسلمت هذه المخطوطة من الدمار مرة أخرى وإن كانت بعض جوانب منها أصابها بعض أذى الحريق .

وفى سنة ١٧٨٦ جاء إلى انجلترا عالم دانمركى يدعى Grim Thorkelin واطلع على هذه النسخة ، فكلف أحد الناسخين بنقل ما يمكن نقله من هذه المخطوطة ، وقام العالم بنفسه بكتابة نسخة أخرى بخطه . وبسبب توالى الزمن تعرضت النسخة الأصلية للتلف وساعد على ذلك آثار النار التى كانت قد تعرضت لها ، ولولا أن الله قيض هذا العالم فكتب نسخة بيده ، وأخرى بيد ناسخ لضاع هذا الأثر الأدبى .

واهتمام هذا العالم الدانمركى بنص ملحمة بيولف يرجع إلى أن العلماء الدانمركيين كانوا منذ أواخر القرن الثامن عشر قد أخذوا يبدون اهتماماً كبيراً بجمع الآثار الأوربية القديمة للدانمرك ، وكانوا يعتقدون أن قصيدة بيولف تصور حروب الدانمرك والسويد ، وأنها إنما ترجمت إلى الإنجليزية القديمة عن أصل دانمركى مفقود . وهذا الرأى — أيا كان حظه من الخطأ والصواب

يرجع إلى وصف للقصيدة وجد فى فهرس للكتابات الإنجليزية القديمة من وضع Humphrey Wanley سنة ١٧٠٥ وفيه إشارة إلى أن هذا النص منقول عن الدانمركية .

وعاد العالم الدانمركى ثوركلين إلى وطنه وأخذ يعنى بشرح هـذا النص ، وتحقيقه ، والتعليق عليه . وحـدث فى سنة ١٨٠٧ أن قام الأسطول البريطانى بضرب مدينة كوبنهاجن ، وسقطت بعض قذائفه على بيت هذا العالم واشتعلت فيه النار وأتت على كل ما فيه . ومن ذلك الذى راح ضحية النار تحقيق هذا العالم ولكن بقى النص الذى نسخه هو ، والذى كتبه النساخ ، لذلك عاد إلى كتابة تحقيقه من جديد .

وفى سنة ١٨١٥ ظهرت أول طبعة لهذه الملحمة مقرونة بترجمة لاتينية لها .

أما فى انجلترا فقد طبعت هذه الملحمة بالإنجليزية القديمة أول مرة سـنة ١٨٣٣ وتولى ذلك العالم G. H. Kemble الأستاذ بجامعة كمبردج ، ثم ترجمها بعدئذ إلى الإنجليزية الحديثة ، ثم طبعها سنة ١٨٣٧ .

وكل الطبعات الحديثة بعد ذلك اعتمدت على نسخة منقولة عن الأصل القديم بطريق التصوير الشمسى . وقد قام بتصوير هـــذا الأصل وتحقيقه العالم الألمانى زوبتا Zupitza سنة ١٨٨٢ .

ويبدو من كتابة النساخين القدامى الذين تولوا نقل الملحمة فى القرن العاشر أنهم كانوا ينقلون وهم لايفهمون ما ينقلون ، لذلك نراهم لم يستعملوا من علامات الترقيم غير النقطة ، وحتى هذه غالباً ماتراها موضوعة فى غير موضعها مما يجعلنا نعتقد أنهم كانوا يضعونها كمجرد علامة لما وصلوا إلى كتابته فى الجلسة الواحدة .

ويلاحظ أيضاً أنهم قسموا الملحمة إلى ٤٣ جزءاً ، وجعلوا للأجزاء أرقاماً رومانية ، وجعلوا بداية الترقيم البيت الثالث والخمسين . وترقيمهم غير منطقى إذ نرى أحياناً رقم الجزء يبدأ من وسط جملة .

ومن الملاحظ عليهم أيضاً أنهم كانوا يكتبون الكلمة الأولى من أول كل جزء بالحرف الكبير ، وأحياناً يبدءون بعض الكلمات بالحرف الكبير دون مراعاة لأصول كتابة الحرف الكبير ، فلم يكتبوا مثلا أسماء الأعلام مبدوءة بهذا الحرف على نحو ما هو متفق عليه .

ومما يدل على أنهم كانوا يكتبون مالا يعرفون أنهم يقطعون الكلمة الواحدة كأنها كلمات متعددة ، وحيناً تراهم يجعلون عدة كلمات كأنها كلمة واحدة ، والنص مع أنه شعر نراه كتب بطريقة كتابة النثر .

أما النص الذى اخترنا أن نجعله عمادنا فى هذه الترجمة فهو النص الذى قام بتحقيقه الأستاذ فردريك كليبر (Klaeber) وقد طبع مرة سنة ١٩٢٢ ، ثم طبع طبعة منقحة سنة ١٩٥١ ، وهى التى وقع اختيارنا عليها .

(٩)

مظهر القصص الشعبي في ملحمة بيولف

ملحمة بيولف تشتمل على مغامرات ثلاث لها أشباه كثيرة في القصص الشعبي الجرماني والإسكندناڤي منذ أقدم العصور .

والمغامرتان الأوليان في ملحمة بيولف تتمثلان في الصراع الذي دار بينه وبين « جرندل » ، ثم بينه وبين « أم جرندل » . أما المغامرة الثالثة ففي الصراع الذي دار بينه وبين التنين .

وللمغامرتين الأوليين أشباه ونظائر في القصص الشعبي في أنحاء متعددة من العالم ، وفي عصور مختلفة ، والعالم الألماني « بانزر » بعد البحث الطويل والاستقصاء العميق ، أطلق على جميع هذا النوع من القصص اسم « قصة ابن الدب » ووجدها تروى في أوربا وحدها على نحو مائتي رواية ، وتكاد تكون هي التي تعرف عندنا في الشرق باسم « قصص الغول » وقصص « أم الغول » وبعض العلماء وجدوا لذلك روايات مشابهة عند اليابانيين ، وعند قبائل هنود أمريكا الشمالية .

وتتلخص عناصر قصة « ابن الدب » في ثلاثة أجزاء :

أولها : وصف شيطان يظهر ليلا فيروع سكان قصر أقامه ملك عجوز ، ويرتاع لذلك أبناء هذا الملك ، ويتملكهم الخوف من سطوة هذا الشيطان فيعجزون عن مطاردته حتى يستجمع قواه أحد كبار أبناء هذا الملك ويتصدى له ، و بعد صراع يتمكن من إصابة الشيطان ببعض الجروح ، ثم يفر الشيطان متأثراً بجروحه ، ويلجأ إلى مخبئه بعد أن يترك في طريقه آثار دمه المنزوف فتدل على مكانه .

وثاني العناصر أن الابن الأصغر ، وهو الذي يمثل البطل ، يظل يطارد هذا الشيطان مهتديا بأثر دمائه حتى يصل إلى مخبئه تحت الأرض فيجد هناك شيطانا ذكرا ، وشيطانا أنثى ، ويدور بينه وبينهما قتال ينتهي بأن ينتصر عليهما أو على أحدهما . فإذا تم له هذا الانتصار أطلق من في سجن الشيطان من فتيات أسيرات فيعدن إلى الظهور على وجه الأرض بعد اختفائهن عنها أزمانا متفاوتة .

والغالب في هذه القصص أنها تبرز في هذه اللحظة مسألة خيانة من بعض رفقاء البطل ، وتكون نتيجة هذه الخيانة أن يقع البطل أسيراً في يد أحد الشيطانين ، ويبقى وحيداً إذ يكون قد أطلق كل من هناك من الأسرى . ويظل في سجنه زمناً يطول أو يقصر حتى يتمكن من الفرار على أثر مجازفات بطولية يقوم بها .

فإذا ما تم له الخلاص ، وظهر على وجه الأرض فإنه يبحث عمن خانوه حتى يتعرف عليهم ، ويوقع بهم ما يستحقون من جزاء ، ويتزوج بواحدة ممن أطلق سراحهن من الأسيرات . وهذا هو العنصر الثالث .

ويبدو واضحاً أن هناك صلة بين جذور هذه القصة وجذور بعض القصص الشعبي الأوربي فهذه الوقائع التي سردناها مشتركة بين أكثر القصص الشعبي في مختلف أنحاء العالم ، ولهذا فليس عجيبا ما نرى من تشابه وتقارب بين قصة بيولف وبين قصة ابن الدب ، غير أن هذا التشابه وذلك التقارب أشد وأقوى فيما بين قصة بيولف والقصص الشعبي الاسكندناڤي عامة ، وبخاصة ملحمة « جريتير » (Grettirsaga) الايسلندية المشهورة التي لم يدونها النساخ إلا في منتصف القرن الرابع عشر . وتشتمل على عناصر قديمة تتناول معتقدات القبائل السكندناڤية القديمة وقصصهم الشعبي .

ونرى من المفيد هنا أن نعرض موجزاً لقصة « جريتير » هذه :

كان مزارع يدعى « تورستين هفيتى » Thorstein Hviti يعيش مع زوجته وأولاده الصغار فى بيت تتردد عليه الأشباح ، وكان هذا البيت فى بلدة « بارثادال » (Barthardal) وفى أحد أعياد الميلاد ذهبت السيدة إلى كنيسة فى قرية من قرى البلد ، أما الفلاح فقد بقى فى البيت . ولما أقبل المساء ، وعم الظلام ، وساد السكون سمع خدم الفلاح حركة وضوضاء مصدرها حجرة نوم الفلاح فاضطربوا لذلك وسيطر عليهم رعب جعلهم لا يستطيعون الدنو من هذه الحجرة لمعرفة مايجرى ، أو لإنقاذ سيدهم إن كان فى خطر . ولبثوا جامدين حتى أشرق نور الصباح وعادت السيدة من الكنيسة ، وبحثت عن زوجها فلم تجد له أثراً إذ كان قد اختفى ، ولا تعرف هى أو خدمها كيف ولا أين اختفى .

وفى عيد ميلاد العام التالى قررت أن تذهب إلى الكنيسة وتترك البيت فى حراسة خادم وقع اختيارها عليه ، ولما عادت صباح اليوم التالى وجدت هذا الخادم أيضا قد اختفى ، ووجدت آثار دماء .

سمع بهذه المأساة أحد الأبطال ويدعى « جريتير » فقرر أن يقوم بعمل ، وانتظر حتى أقبل عيد ميلاد العام التالى ، وذهب إلى سيدة البيت يعرض عليها أن تكل إليه حراسة بيتها حين ذهابها إلى الكنيسة ، فقبلت هذا العرض ، وشكرت له سلفا تضحيته فى سبيلها .

فلما نشر الليل ظلاله أقبلت على « جريتير » أنثى شيطان تحمل فى إحدى يديها « بلطة » وتحمل فى اليد الأخرى مطرقة ضخمة ، وهاجمت « جريتير » ولكنه كان متيقظاً لها فدار بينه وبينها صراع هائل جبار اهتز له كل ما فى البيت حتى زلزلت الأبواب وطارت من أماكنها . وانتهى الصراع بأن تمكنت

أنثى الشيطان من جر « جريتير » إلى حافة هوة عميقة يجرى تحتها نهر متدفق وأفزع ذلك « جريتير » إذ قد خشى أن تلقى به فى النهر ، فأمده تشبثه بالحياة بقوة خارقة مكنته من أن يخلص إحدى يديه من قبضتها ثم أخرج سيفه وضربها ضربة بترت يمنى يديها فسقطت فى الهوة وغاصت فى النهر .

وعاد « جريتير » إلى البيت ، وانتابه ضعف ألزمه الفراش أياماً طوالا حتى استعاد قوته التى ذهب بها هذا الصراع الجبار المروع . وعندئذ طلب من قس صديق له يدعى « ستاين » (Stein) أن يرافقه إلى شاطىء النهر ، وقبل القس أن يكون طرفاً فى هذه المغامرة ، وسارا معاً حتى بلغا الهوة التى سقطت عندها الشيطانة ، وهناك لمحا كهفاً خفياً فى أسفل جدار الهوة ، وحول هذا الكهف تتدفق المياه من جنادل هناك ، فقام كل من جريتير وستاين بتثبيت حبل على حافة الهوة وإسقاط هذا الحبل إلى سطح النهر ، وبعدئذ تجرد جريتير من ثيابه ، وأخذ سيفه وتدلى بهذا الحبل حتى وصل إلى وجه الماء ثم دخل الكهف فوجد فيه وحشاً مخيفاً قد جلس ، ووضع أمامه مدفأة ، ولما رأى الوحش هذا القادم الغريب هم إلى سلاح له — وهو سلاح خرافى — يدعى Heptisax ولكن جريتير استطاع أن يضرب هذا السلاح بسيفه ضربة شقت مقبضه ، وحاول الوحش أن يتناول سيفاً كان معلقاً على جدار الكهف ، ولكن جريتير استطاع خلال هذه المحاولة أن يضربه ضربة حاسمة شطرته شطرين .

كان القس ستاين لا يزال ينتظر ، وهو بين حين وحين ينظر إلى الماء من أسفله ، وحدث أن نظره وقع على دماء وأحشاء أخذت تطفو على سطح الماء فلم يخامره شك فى أن جريتير قد قتل فآلمه ذلك ، وعاد إلى القرية حزينا آسفا .

فى هذا الحين كان جريتير يتوغل فى الكهف ، ويفحص داخله فوجد

عظام رجلين ، ووجد كنوزاً ثمينة جمعها فى كيس وتسلق الحبل وصعد إلى
وجه الأرض، فلم يجد صديقه القس فكتب له رسالة على قطعة من الخشب ومضى
إلى الكنيسة التى يرعاها هذا القس ، وأمام بابها وضع الكيس بما فيه ومعه
الرسالة ، ثم مضى لسبيله .

وفى صباح الليلة التى وضع فيها جريتير الكيس والرسالة استيقظ القس
وذهب ليفتح باب الكنيسة فعثر على الكيس والرسالة فعرف أن جريتير لم يمت
وأنه قد انتصر .

وتقول القصة أنه منذ ذلك الحين تطهرت البلاد من غارات الوحوش
الشيطانية .

* * *

أما الجزء الثانى من الملحمة فهو حول الصراع الذى دار بين بيولف والتنين،
ولهذا الجزء أيضاً أشباه ونظائر فى القصص العالمى عامة ، والقصص الشعبى
الأوربى خاصة .

وهذا النوع من القصص يمكن ايجازه فيما يلى :

أولاً ـ نوع موضوعه يدور حول بطل يعمل على الظفر بكنز يحرسه تنين.
وأهم مثل لهذا النوع قصة « سيجفريد » (Siegfried) الشهيرة فى الآداب
الشعبية الجرمانية . ويجب أن يكون ملحوظاً أن مغامرات سيجفريد تضمنتها
ملحمة بيولف فى الأبيات من ٨٨٦ — ٨٩٧ ، ولكنها نسبت إلى بطل يدعى
« سيجموند » (Siegmund) .

ثانياً ـ بعض هذه القصص تجعل البطل يصارع التنين فى سبيل إنقاذ أميرة

وقعت أسيرة فى يد هذا التنين . ومن أشهر قصص هذا النوع ما ينسب إلى
القديس مارى جرجس فى الأساطير الأوربية .

ثالثاً ـ منها نوع يصارع فيه البطل التنين دفاعاً عن قوم أغار عليهم ذلك
التنين وعجزوا عن رد أذاه عنهم . ومن هذا النوع أساطير الإله « ثور »
(Thor) فى الديانة الوثنية الجرمانية .

ويبدو من هذا كله أن قصة بيولف مزيج من النوع الأول والنوع الثالث
وقد ذكر العالم الألمانى « لانزر » أن هناك شبهاً كبيراً بين قصة صراع بيولف
مع التنين وقصة صراع فروثو (Frotho) مع التنين فى الأساطير الدانماركية ،
وكان هذا التشابه مما حمل العالم الألمانى على القول بأن قصة بيولف لها جذور فى
القصص الدانماركى . ولكن علماء آخرين قالوا إن قصة بيولف لها جذور فى
أنواع عدة من القصص الشعبى وليس أصلها مستمداً من القصص الدانماركى وحده.

ومما هو جدير بالذكر أن أفراد الشعب الإنجليزى ظلوا إلى ما بعد اعتناقهم
المسيحية يعتقدون أن للتنين وجوداً حقيقياً ، لذلك نجد له ذكراً فى كتاب
« تاريخ الأنجلو سكسون » وهو كتاب يتبع طريقة التأريخ على حسب السنين كما
فعل المقريزى وغيره من أوائل مؤرخى العرب ، وفى سنة ٧٩٣ ميلادية يذكر من
حوادث هذه السنة ظهور تنين ينفث من فمه لهباً يزعج الناس ويخيفهم ، ويقول
إن ذلك كان فى مملكة « نورثمبريا » (Northumbria) بشمالى انجلترا .

وإلى عهد غير بعيد كان بعض العلماء يفسرون قصة بيولف تفسيراً رمزياً
أسطورياً ، وعلى الرغم من أن الاتجاه الآن يرمى إلى الموازنة بين العناصر التاريخية
والعناصر الأسطورية فى القصة فإنه ليس من الإنصاف أن نهمل الإشارة إلى مثل
هذه التفسيرات القديمة . فمثلا : يرى الفقيه الألمانى « كارل ميلنهوف »

(Karl Mullenhof) أن اسم « بيولف » مشتق من اسم اله انجلوسكسونى يدعى « بياو » تنسب إليه معجزات كان يقوم بها ، ولا يستطيع البشر القيام بها ، وكان السكسونيون يعبدونه فى العصر الوثنى ، لذلك اختلطت الأفعال المنسوبة إلى هذا الإله بالأفعال التى تنسب إلى بيولف فى مغامراته . وفى بحث هذا العالم عن اشتقاق كلمة « بيو » ربط أصل معنى هذه الكلمة بمعنى الفعل « Buan » ومعناه ينمو ، أو يقطن ، أو يزرع الأرض . لذلك فهناك صلة بين بيولف وشولد شيفنج (وشولد معناه الترس ، وشيف معناه حزمة القمح) . وهذا الربط يشير إلى أن المقصود من كلمة « بيولف » إدخال الفنون الزراعية ، ومظاهر الحضارة والمدنية فى بيئة فطرية تعيش على الرعى . فاختلط معنى اسمه بصفات « انج » (Ing) الإله الأسطورى المنسوب إليه تأسيس قبيلة الدانيين ، وكانوا يعدونه إله الخصوبة والرخاء .

أما « جرندل » وأمه فإنهما رمز لبحر الشمال الذى كانت تتوالى ثوراته ويتتابع تهديده للشواطىء ، فصراع بيولف لهما رمز لتوقف زحف البحر على الشواطىء إبان فصل الربيع .

أما صراع بيولف للتنين فإنه يرمز إلى حماية القرية من قسوة الخريف ، وموت البطل بيولف فى نهاية الملحمة يعنى انتصار الشتاء .

وقد كثرت التأويلات للأساطير والخرافات على هذا النحو ، ومنها مايذهب إلى أن بيولف رمز لإله القمر ، ومنها ما يقول إنه يرمز لإله العواصف والبرق ، ومنها مايقول إنه رمز لحامى النحالين ، أو رمز للحياة المستقرة التى يستطاع فيها تربية النحل . وأما جرندل فهو فى تفسيرهم يرمز لمخاوف البشر من الأمراض التى تتولد من المستنقعات كالطاعون ، والحمى ، والأبخرة الخانقة ، أو هو رمز لليالى الشتاء الباردة التى تصحبها المجاعات ، ويشتد فيها القحط .

وهناك عالم من القدامى يدعى « يعقوب جريم » ذهب فى التفسير مذهبا آخر ففهم اسم بيولف على أنه عدو النحل ، أو ذئب النحل وكان هذا اسما أطلقوه على طائر يسمى « الطائر النقار » لأنه دائما ينقر الخشب ، ويشتهر بأنه فى صراع مستمر مع غيره من الطيور ، وكان يعبد فى العهد الوثنى ، ويرمز به للمحارب القوى .

هذه التفسيرات وما إليها لاتعدو كونها مجرد اجتهاد وتخريج ، ولكنها فى جملتها لم تصل إلى حد أن يعتبر رأى منها مقطوعا به ، أو كالمقطوع به ، بل إن باب التأويل والتخريج ما زال مفتوحاً ، وإن كان الأدنى إلى المعقول ما قد أخذ به أكثر العلماء المحدثين من أن بيولف بطل جرمانى تقليدى ، وأن جرندل شخصية برزت فيها صفات شياطين المستنقعات التى آمن بوجودها قدماء الإنجليز ، ويلمح بعض هؤلاء العلماء فى أعمالها أثرا للفعل « Grindan » الذى معناه يطغى على . . ، أو يطحن . فجرندل بناء على ذلك تؤدى معنى المدمر أو الطاحن .

ونحن إذ نستعرض كل تلك التأويلات والتخريجات يجب أن نضع نصب أعيننا ما أضفاه القصص الشعبى على أبطال القصص والروايات من أحداث تدخل فى الخوارق والمعجزات التى ينسبونها إليهم على نحو ما نرى مثلا فيما نسب إلى عنترة ، وإلى سيف بن ذى يزن ، وإلى الظاهر بيبرس من خوارق فوق طاقة البشر ، ولكن القصص الذى وضع حولهم تضمن تلك الخوارق على أنها وقائع وأحداث قد حصلت بالفعل ، وبها خلد ذكرهم ، وردد التاريخ اسمهم .

(١٠)

الإطار التاريخى للملحمة

هذه الملحمة قد أنشأها شاعر انجليزى قديم ، ورددها قدماء الإنجليز ، ومن بلادهم شاعت وتناقلها الرواة . غير أنها مع ذلك تعتبر أقدم نص أدبى يتضمن تسجيلا لوقائع من تاريخ السكندنافيين . فإذا نظرنا إليها من جانب الصراع الذى دار بين بيولف وجرندل ، ثم بينه وبين أم جرندل وجدناه حافلا بذكر وقائع تاريخية تدور حول الدانيين الذين يظن أنهم كانوا يعيشون جنوبى السويد ، ثم هاجروا إلى جزر زيلند ، وشبه جزيرة جاتلاند ، ومكانهما الآن إقليم الدانمارك .

وإذا نظرنا من جانب صراع بيولف مع التنين وجدنا الحوادث التاريخية تدور حول الجيات ، وهم قبيلة سكندنافية أقامت فى السويد جنوبى البحيرات الكبرى (أنظر الخريطة) .

ووقائع الدانيين التى تتناولها الملحمة تتلخص فيما يلى :

فى سنة ٤٩٨م تقريبا كانت قبيلة جرمانية تدعى الهياثوبارد (Heathobard) تقطن جنوب الدانيين ، وكان على هذه القبيلة ملك يسمى « فرودا » وكان على الدانيين ملك يدعى « هيالفدينى » ، واستحكم الخصام بين الملكين فقتل « فرودا » ملك الهياثوبارد « هيالفدينى » ملك الدانيين ، وفتح هـذا القتل باب العـداوة بين القبيلتين على مصراعيه ، إذ أن أبناء الملك القتيل وهم « هيوروجار » و « هالجا » و « خرونجار » أعلنوا الحرب على قبيلة الهياثوبارد ، وأتيح لهم أن ينتصروا ، وأن يأخذوا بثأر أبيهم بقتل « فرودا » سنة ٤٩٦ م .

وقبض (خرونجار) على زمام حكم الدانيين خلفا لأبيه (هيالفدينى) وجعل القصر « هيوروت » الذى كان قد شيده أبوه مقرا لحكمه . وبعد نحو عشرين سنة من حكمه بدا له أن يحاول إصلاح ما بينه وبين الهياثوبارد ، وأن يزيل أثر الثـأر الذى بينهما ، ويصل ما بين القبيلتين بصلة النسب فقرر أن يزوج ابنته من ملك الهياثوبارد وهو انجلد Ingeld بن فرودا وكان ذلك سنة ٤٩٩ م .

وتم ذلك الزواج ولكنه لم يستطع أن يطفىء نار الثأر إطفاء تاما ، فإنها مالبثت أن اشتعلت مرة أخرى إذ أغار الهياثوبارد على أراضى الدانيين ودمروا القصر هيوروت حرقا ، ولكن خرونجار تمكن من رد عادية هؤلاء المغيرين بقوة جيشه سنة ٥٢٠ م .

وفى سنة ٥٢٥ م . مات خرونجار ، وبدأت المتاعب والمشكلات تعود بعد موته إذ أن خرونولف بن هالجا أخى خرونجار ثار ضد ابن عمه « خريذريكش » ولى العهد وتمكن من قتله ، وجلس على عرش البلاد بدلا منه .

وفى سنة ٥٤٥ م . سقط خرونولف عن العرش الذى اغتصبه ، ونشبت فى قبيلته حرب أهلية دمرت الشعب ، وانتهت باندثار أسرة الشولدنج .

هذا من ناحية الدانيين ، أما من ناحية الجيات فقد كان « خريثل » (٤٤٥ — ٥٠٣) معاصرا لهيالفدينى ، وكان ملكا على الجيات ، وأنجب ثلاثة أبناء وابنة واحدة . وحدث أن ابنه الأوسط « هائكون » (٥٧٢ — ٥١٠) قتل « هربيالد » (٤٧٢ — ٥١٠) الابن الأكبر وكان القتل خطأ ، ولكن الملك الوالد اكتأب من هذا الحادث ، وحزن حزنا عميقا أدى به إلى الموت ، وبموته آل الملك إلى ابنه « هائكون » الذى قتل أخاه . وعقب ولايته الحكم

نشبت معارك بين الجيات وقبيلة تسكن شمالى البحيرات ، وأهل هذه القبيلة هم السويديون. وكان أهل السويد قد بدءوا بالإغارة على جيرانهم الجيات ، ودمروا ما استطاعوا تدميره من مساكن ومزارع ، فتحرك جيش الجيات بقيادة هائسكون وأخيه الأصغر « هوجلاك (٥٤٧ — ٥٢١) » ليثأروا من السويد الذين أغاروا عليهم عدوانا . وفى الجولة الأولى من المعارك كان النصر حليف الجيات ، فهزموا جيش السويد الذى كان يقـوده ملـكهم « اونجنثيو Ongentheow (٤٥٠ — ٥١٠) وأسروا كثيرين منهم وكان من الأسرى زوجة أونجنثيو نفسه ، إلا أن ملك السويد جمع فلول جيشه ، وأعاد تنظيمهم، وهاجم الجيات على حين غفلة منهم، وفى غمار نشوة انتصارهم الأول ، فحقق نصرا مبينا ، وقتل الملك هائسكون ، واسترد كثيرا من الأسرى ، من بينهم زوجته ، وحاصر جيش الجيات فى غابة « خرنفسهولت » أى غابة الغداف أو « الغراب الاسود » ، ولما وجد اليأس قد استبد بهم عرض عليهم التسليم وإلا فالموت بين مشنوق ومقتول بالسيف ..

ودبت فى جيش الجيات المحاصر روح جديدة ، وكان قد حل هوجلاك فى القيادة محل أخيه الملك القتيل ، فاستطاع فى فجر أحد الأيام أن يقوم بهجوم مضاد مستيئس ، و ببسالة نادرة مزق الحصار وتمكن من مطاردة جيش السويد . وفى مبارزات دارت خلال هذه المعركة الحامية استطاع الأخوان « ايوفور » و « وولف » من جيش الجيات أن يقتلا أونجنثيو ملك السويد .

ولما عاد هوجلاك منتصرا إلى موطنه أراد أن يكافىء البطل ايوفور على

ما أبداه من بطولة فى مبارزة أونجنثيو وقتله فعرض عليه أن يزوجه من ابنة له من زوجة سابقة ، وتم الزواج وكان عنوانا للعرفان بالجميل .

وكان بيولف ابن أخت هوجلاك ممن حضروا هذه المعارك ولكنه لم يبرز فيها ، ولم يقم بدور يذكر به ، ولم يبدأ نجمه فى الظهور إلا ابتداء من سنة ٥١٥ م إذ ترك قصر هوجلاك ، وذهب إلى بلاد الدانيين ليصارع الوحوش . وسواء كان لهذه الوحوش حقيقة واقعة ، أم كانت مجرد خيال ابتدعته الأساطير فإن مجد بيولف قد بدأ منذ تلك المغامرة المنسوبة إليه .

لم يقنع هوجلاك بالنصر الذى أحرزه فى المعارك التى أثارها ضد جيرانه من الشمال فبدأ فى سنة ٥٢١ يهاجم جيرانه من الجنوب وهم الفرنج . وأول هجوم قام به كان ضد قبيلة الفريزيين الذين كانوا يعيشون فى مكان الجزء الغربى من هولنده الآن ، وأتيح له أن يهزم هذه القبيلة ، ثم تركها وسافر بسفنه فى نهر الراين حتى وصل إلى موطن قبيلة إفرنجيه أخرى تسمى « الهتوارى » وكانت تسكن المكان الذى يقع الآن بين هولندة وبروسيا ، وانتصر هناك أيضاً ، وحمل سفنه بكثير من الغنائم والأسرى ، وأمر أن يعود أكثر جيشه بالسفن وما عليها من غنائم إلى البلاد، أما هو فقد بقى على شواطىء الهتوارى مع حرس قليل ، وانتهز « ثيودوريك » (Theodoric) ملك الفرنج هذه الفرصة وبعث بابنه على رأس جيش عظيم وهاجم هوجلاك فى حرسه القليل فقضى عليه وعلى حرسه ، وأبادهم جميعاً بحيث لم ينج منهم إلا بيولف إذ كان فى عداد الحراس وقاتل ببسالة نادرة ووجد أن بسالته لاتجدى مع هذا المدد الضخم من الجيش المهاجم فألقى بنفسه

فى الماء ، وظل يسبح بعيداً حتى نجا من الموت ، وكان هو الوحيد الذى عاد بالنبأ للجيات .

عرض عرش الجيات على بيولف فأبى أن يقبله ، لذلك تولاه هياردريد ابن هوجلاك وكان لايزال فتى حدثاً ، ولما كانت أمه هى التى عرضت العرش على بيولف فأباه طلبت منه أن يكون مستشاراً ورائداً لولدها الذى صار ملكا فقبل بيولف أن يقوم بذلك .

ومنذ أسند الحكم إلى الملك الشاب هياردريد (٥٣٢ — ٥٣٥) بدأت مناوشات تدور بين شعبه وبين شعب السويد ، فبعد أن قتل أونجنثيو ملك السويد فى موقعة غابة الغداف (الغراب الأسود) تولى أكبر أبنائه العرش ، ثم مات تخلفه أخوه « أونيلا » الذى كان قد تزوج من ابنة هيالفدينى ملك الدانيين . وكان قد اغتصب العرش اغتصاباً من ابنى أخيه وهما أيانمودوأيادجليس واضطهدهما حتى فرا من وجهه ، وذهبا إلى قصر هياردريد ليحتميا فيه ، وأقبل أونيلا على رأس جيش إلى أرض الجيات سنة ٥٣٣ م متعقباً ابنى أخيه ، وهناك دارت معركة قتل فيها هياردريد ، وأيانموند ، وعندئذ أسند الحكم إلى بيولف واكتفى ملك السويد بذلك ، وعاد منسحبا بجيشه .

وبعد عامين قاد أيادجليس جيشا من الجيات ، وأغار على السويد ابتغاء العودة إلى وطنه ، والاستيلاء على العرش الذى اغتصب منه ، وقد أتاحت له الظروف أن يقتل عمه ويسترد عرشه سنة ٥٣٥ م .

***

دارت كل هذه الحوادث فى القرن السادس ، ولم يبدأ تدوينها إلا فى أوائل القرن العاشر ، لذلك لم يكن من الميسور معرفة التاريخ الدقيق الصادق لبيولف وكل مايعلم عنه أنه ولد سنة ٤٩٥ م ، وأنه تربى فى بيت جده لأمه منذ بلغ السابعة من عمره ، وأن المرحلة الأولى من عمره لم يكن فيها ما يشير إلى مجد أو عظمة ، فقد عرفنا مما سلف أنه مثلا لم يقم بدور بارز فى معركة غابة الغداف (الغراب الأسود) ، ولم تثبت له أى أية بطولة فيها أو فى غيرها من قبل . وفى سنة ٥١٥ م ذهب لزيارة خروثجار ملك الدانيين ، وقد نسجت قصة قتال جرندل وأمه حول هذه الزيارة . وفى سنة ٥٢١ م صحب خاله هوجلاك فى إغارته على الفرنج . وفى هذه المعركة التى دارت بينه وبين السويد سنة ٥٣٣ م تولى العرش ، وعمر فى الحكم طويلا ، وقدر منشىء الملحمة عمر حكمه بخمسين عاما ، ولم يعرف على التحديد وقت موته .

وهذا جماع ماانعقدت الآراء على صحته من تاريخ بيولف ، وما عداه فهو من خيال الشاعر مؤلف الملحمة ، أو مما استوحاه من القصص الشعبى .

(١١)

ملامح القصيدة

هذه الملحمة تتألف من جزءين لاتربط بينهما إلا شخصية البطل «بيولف» وفيما عدا ذلك فكل جزء قائم بذاته ، ويمكن أن يكون وحدة مستقلة ، وليس الجزء الثانى تتمة للجزء الأول على مألوف مايكون فى الملاحم ونحوها من الأعمال الأدبية الأخرى . ومع هذا الانفصال فى الأحداث والوقائع ، وأرض المعارك ، وشخصيات المشتركين فيهما فهناك ناحية فنية تربط بين الجزءين ربطا وثيقا : ذلك أن النهج القصصى فيهما واحد ، وطريقة العرض واحدة ، والبطل واحد . ففى الجزء الأول نرى الشاعر قد اصطنع للمعركة سببا مثيرا ، وهو يصور مقدمات الصراع ، ويسترسل حتى يصل به إلى قمة شدته فيحشد فى رسم أهواله ما يتاح له من صور البلاغة ، ثم يعود إلى العرض الهادىء الذى تتمثل فيه السكينة التى يبرزها فى الجزء الأول ، تتمثل فى سكون المنتصر وهدوء نفسه ، أما السكينة فى الجزء الثانى فهى تمثل سكون الموت وهدوءه .

والذى يقرأ الملحمة قراءة عميقة يدرك أن الشاعر فى تصويره للصراع الذى قام بين بيولف وجرندل قد استخدم أسلوبا بعيداً عن الإثارة ، خاليا من عناصر التشويق ، يكاد يبعث الملل إلى نفس السامع أو القارىء ، أما فى تصوير الصراع الذى دار بين البطل بيولف وأم جرندل فإن جانب الإثارة يتجلى فيه قويا ، فهو يرسم صورة مثيرة لخطورة الموقف ، ويضرب على ذلك الوتر حتى يجعل البطل

لا يظفر بالانتصار إلا بعد يأس شديد وعناء . أما فى المغامرة الأخيرة من الملحمة فإن الشاعر يبلغ قمة الإثارة فى تصوير القتال المروع الذى دار بين بيولف والتنين وينجح فى رسم صورة قوية لانتصار البطل ، ولكنه انتصار ينتهى بمأساة هى موت البطل قبل أن يهنأ بثمرة ما ظفر به من انتصار .

ومما يجب ألا يغيب عن ذهن دارس الملحمة أن « جرندل » قد بدأ بالعدوان فلا بد أن تدور عليه الدائرة ، لأن البادىء بالشر أظلم ، والظلم مرتعه وخيم ، وهو قد هاجم القصر بدون مبرر إلا مبرر الغيرة والحسد من إقبال الناس على هذا القصر ، واسترسالهم فى المرح والسرور ، وهذا لا يصلح فى شرع العقل الحكيم أن يكون مبررا لانتهاك الحرمات ، فكان لزاما أن يدور الصراع معه عنيفا قويا جزاء وفاقا لعدوانه وافتياته .

أما أم جرندل فقد دفعها الغضب لابنها القتيل إلى أن تهاجم بعنف ، وتقاتل بضراوة . ولابد للبطل أن يلقى العنف بعنف ، والضراوة بضراوة مثلها ، وذلك مما ألهم الشاعر صور البلاغة التى اصطنعها فى تصوير مادار من قتال . ومثل ذلك أيضا نلمحه فى تصوير القتال الذى دار بين البطل وبين التنين فى نهاية الملحمة ، إذ أن التنين أيضا إنما قد ثار من أجل كنزه السليب ، ولشعوره بأنه قد استبيحت حرماته ، واعتدى على كرامته . وإذا كانت صور الصراع قد اختلفت فى الحدة والقوة فما ذلك إلا لأن الشاعر وائم بين القتال والحالة النفسية للمتقاتلين ، وتبعا لاختلاف تلك الحالات النفسية اختلف العنف حدة وقوة .

* * *

وفى الجزء الأول من للملحمة نحو أربعمائة وخمسين بيتا كلها عرض لأشياء
بعيدة عن جوهر الملحمة ، ولكنها تمهد لها ، وتهيء الجو لأحداثها ، مثل قصة
« فين » وقصة « هابيل » وقصة الحرب بين « الدانيين » و « الهياثوبارد »
ومثل النبوءة التى تتحدث عن سقوط « هوجلاك » ونحو ذلك مما تضمنته
تلك الأبيات .

ولم يعمد الشاعر إلى هذا الاستطراد عبثا بل إن له من ورائه أهدافا منها
التمهيد لفهم أخلاق البطل وأحواله ونفسيته ، ومنها ما يؤدى وظيفة فنية هى
تلطيف الجفاف القصصى . . . ونحو ذلك . والآراء الحديثة فى النقد الأدبى تجمع
على أن هذه الاستطرادات لها دور فنى واضح فى القصيدة . . . وهذا هو مايقول
به العالم الانجليزى « تولكين » J.R.R. Tolkien فى محاضرته المطبوعة فى رسالة
عنوانها : (Beowulf : The Monsters and the Critics) والعالم الفرنسى
« أدريان بونجور » (Adrien Bonjour) فى كتابه : (The Digressions in
Beowulf) فكلاهما يقرر أننا حين نتأمل الملحمة يبدو لنا منها أن بناء القصيدة
فى الواقع أقوى مما يبدو من القراءة السطحية غير المتعمقة ، فهى لاتعتمد على عرض
الوقائع وفق الترتيب الزمنى المعروف ، ولكنها تحاول أن تحدث لدى سامعها أو
قارئها لذة فنية تستمد من حقيقة عميقة الجذور ، هى أن المأساة تكمن فى كل
تصرفات البشر ، وفى تقلبات الزمن بهم ، فنرى البطل يصل إلى قمة المجد فى شبابه ،
حتى إذا دق أبواب الشيخوخة ، وظفر بالانتصار على ألد أعدائه وأكثرهم قوة إذا
هو يلقى مصيره المحتوم دون أن يهنأ بلذة الانتصار ، تحقيقا لقول من قال : إن
الدنيا لاتكاد تعطى حتى تأخذ ؛ ولا تكاد تمنح حتى تسلب ما منحت .

والاستطرادات التى يلوح لنا أنها مجرد استطرادات هى فى جملتها تشير إلى
وقائع وأساطير كانت معروفة للجمهور الذى من أجله أنشئت الملحمة ، وكانت
تلقى عليه ، فيستخلص منها أن الحياة ، والسعى ، والعادة مصيرها جميعا الموت
والفناء ، والبقاء الذكرى . . الذكرى الخبيثة لذوى السعى الخبيث ، والذكرى
الجميلة لذوى العمل الجميل . فكأن الشاعر يهىء جمهور سامعيه بهذه الاستطرادات
لسماع نهاية المأساة .

هناك بلا ريب قيمة رمزية للوحش وأمه والتنين ، ونحسب أنه يمثل بها
الظلام والشر والفناء ، ويرمز بالبطل إلى نموذج المثل العليا التى يستطيع بها
الإنسان أن يتغلب على كل ظروف حياته ، ولكن مهما يكن مدى تغلبه على
تلك الظروف فالهزيمة فى النهاية محتمة . . ! وهذا المعنى نلمحه فى كل الاستطرادات
التى تشير إلى نهاية مؤلمة ، وكأنها تتجمع لتعد الذهن لتقبل المأساة فى النهاية ،
فمأتم « شولد شيفنج » فى أول القصيدة مثلا يشير إلى توقع موت البطل ، وقصة
« فين » تعد الذهن لما سيحدث للدانيين من كوارث بعد موت « خروثجار »
. . . وهكذا

ومن ناحية أخرى يمكن أن يقال إن جرندل وأمه أريد بهما الرمز إلى
الكوارث التى كانت تهدد الدانيين ، أما التنين فقد أريد به الرمز إلى ما يهدد
الجيات بعد موت بيولف . فبعد أن وصف الشاعر قصر « هيوروت » بالعظمة
وأسبغ عليه صفات الجلال قرر أن أمره سينتهى بأن يحترق وتلتهمه النيران .
كأنه يقول إن كفاح بيولف ليس إلا محاولة لتفادى الكوارث التى يتوقع
حدوثها مستقبلا ، فهى إذن بمثابة عبرة وإنذار للقبائل المتحاربة بأن كل ماتلقى

من سعادة وهناء مصيرها الفناء ، ولم يكن ذلك إلا مجرد تذكير للجمهور الذى يستمع إلى الملحمة فقد كان جمهورا يؤمن بأنه بعد الهدوء تأتى العاصفة ، وبعد الهناء والسعادة تقع المأساة وتأتى النهاية ، على أن فكرة الفناء ، والحديث عن تقلبات الدهر كانت من الموضوعات المحببة لدى قدماء الإنجليز بوجه عام .

والمؤرخ الدينى « بيدا » مؤلف وضعه فى تاريخ الكنيسة رسم فيه صورة لحياة الإنسان يمثله فيها بعصفور صغير ولد ودرج فى ظلام الشتاء فلما اشتدت قواه ، وبدت له من ثنايا عشه نافذة يشع منها النور انطلق منها مخلفا وراءه ذلك العش المظلم ، غير أنه مالبث أن بهر النور عينيه ، فمل ذلك الضياء الباهر ، وعاف البقاء فيه فعاد أدراجه يتحسس النافذة التى انطلق منها ليعود إلى ظلامه الأول . هكذا الحياة ظلام فى أولها وعودة إلى ذلك الظلام فى نهايتها . هذا الشعور بأن كل شىء إلى فناء ، وكل عظمة إلى زوال نجده محورا لكثير من القصائد الإنجليزية القديمة ، وكلها يدور حول حكمته التى يقول فيها « الحياة فانية ، ومتاعها قليل . . كل مافيها يتلاشى و يزول . . النور والحياة معا » .

Lif is laene, eal scaeceth, leoht ond lif somod

وإدراكنا لذلك يكشف لنا أن هذه الملحمة متأثرة من جانب بالوثنية القديمة ، ومتأثرة من جانب آخر بالمسيحية التى كان القوم قد آمنوا بها يومئذ حديثا ، ويمكن أن يقال إجمالا إنها ملحمة مسيحية إلا أن بطلها وثنى . ومن ملامح براعة الشاعر أنه استطاع أن يجمع بين عناصر وثنية لا تتنافر مع العناصر المسيحية من نحو الإيمان بفناء الدنيا ، وزوال متاعها ، وقصر أمد المتعة فيها .

والعبرة التى تهدف إليها هذه الملحمة هى أن واجب البطل أن يعمل مايستطيع

عمله لكى يظفر بإعجاب معاصريه وينال حسن تقديرهم . عليه أن يسلك سبيل البطولة وهو عالم أن مصيرها الهزيمة فى النهاية ، لأن السمعة الطيبة والذكرى الجميلة هى خير شهرة يظفر بها الإنسان ، و « الشهرة » يعبر عنها فى الانجليزية القديمة بكلمة من العسير أن نجد لها مرادفا أو كلمة تؤدى معناها بدقة . إنهم كانوا يسمونها « Dom » وهى تعنى الشهرة التى تتولد عن البسالة والأعمال المجيدة وتلازم صاحبها فى حياته و بعد موته .

وهناك فكرة وثنية تتردد كثيرا على لسان الشاعر فى هذه الملحمة ، وهى فكرة « القضاء والقدر » التى يعبر عنها فى الأنجليزية القديمة بكلمة « ويرد Wyrd » فنراه يتأرجح بين فكرتين : فكرة أن « ويرد » هو الذى يتحكم فى مصير الإنسان وفكرة أن الله هو المتصرف المتحكم ، وأحيانا يمزج بين الفكرتين ، فيجعل « الويرد » أو القضاء والقدر هو المسئول عن كل المآسى التى تفجع البشر ، أما الخير ، والانتصار ، والفوز فمن الله ، فما أصاب البطل من حسنة فمن الله ، وما أصابه من سيئة فمحض قضاء وقدر .

وحين أورد ذكر هابيل وقابيل ابنى آدم وعرض لمأساتهما دلنا بذلك على أنه قرأ العهد القديم (التوراة) ، والعهد القديم ملازم عادة للعهد الجديد (الإنجيل) فلم لم يبد إذن أثر المسيحية واضحا فى الملحمة ؟ أغلب الظن أن ذلك مرجعه إلى أن رسالة المسيح رسالة سلام ، وروحها لاتتمشى مع روح الملحمة التى تمثل الكفاح الوثنى القائم على العدوان والقتال . ونراه فى ذلك يعمد إلى إبراز المثل العليا التى كان يلتزمها العصر الوثنى مثل التمسك بالثأر باعتباره تقليدا اجتماعيا كان يسود العصر الوثنى ولو أن التزامه كان يفضى فى النهاية إلى الهلاك

والفناء، كما أنه يبرز فضيلة وثانية أخرى هى فضيلة الولاء لولى الأمر، والانتصار له وقت الشدائد، ويقرر أن السيد وتابعه تجمع بينهما رابطة مقدسة واجبة الاحترام فى السراء والضراء حتى حين يتعرض السيد لأمر ميئوس من الانتصار فيه. وهذه الرابطة بلا ريب تعتبر من أقوى الروابط فى مثل هذا المجتمع القبلى الذى جعله الشاعر موضوعا لملحمته.

هذه المثل ونحوها مما نسج الشاعر فى ملحمته قد عرضها متماسكة يأخذ بعضها برقاب بعض، ويرضى عنها الوثنى والمسيحى على السواء بدون أن يتأذى منها هذا أو ذاك، مما يدل على براعة الشاعر وحسن اختياره، وتدل على أنه لم يتقيد بالسرد القصصى الزمنى إلا حين تكون له غاية فنية يهدف إليها، فبرغم ما يبدو فيها من ظاهرة السرد القصصى، ومن ظاهرة الاستطرادات، ومن الخطب التى تلوح كأنها مقحمة على الملحمة إقحاما؛ على الرغم من هذا كله يمكن أن تتضح وحدة الملحمة مجملة فى درس مؤداه أن البشر إلى فناء، وأن كل شىء فى الوجود إلى زوال. وأن المجد للروح الإنسانية التى تتغلب على اليأس، والتى تواصل الكفاح فى سبيل إتمام كل عمل جميل من الأعمال بدأت به، ولا يثنيها عن مواصلة الجد كون عملها هذا مشكوكا فى الوصول به إلى حد النجاح أو الكمال. إنها تدعو إلى الأمل وتكافح اليأس، كأنما تستوحى روحها من قول نبى العرب الكريم «إذا أتاكم ملك الموت وفى يد أحدكم نبتة فليغرسها» أو قوله: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا»

(١٢)

مكانة ملحمة بيولف فى الأدب الأوربى

لا نجد فى الأدب الإنجليزى شعرا يعبر أصدق تعبير عن ثقافة انجلترا فى العصر الانجلوسكسونى كما تعبر عنه قصيدة «بيولف». لقد أنشئت هذه القصيدة فى عصر كانت فيه انجلترا تنزع ثقافة أوربا الغربية، وكانت تلك القصيدة أصدق تعبير عن هذه الحضارة أو الثقافة التى انبثقت من توالد إقامة التقاليد المسيحية على أسس وقواعد من الحضارة الوثنية الجرمانية القديمة. والمبشرون الذين كانوا ينطلقون من انجلترا المسيحية لدعوة القبائل الجرمانية التى تعيش فى القارة الأوربية إلى اعتناق الدين الجديد كانوا يحملون مع الدعوة إلى المسيحية ملحمة بيولف وينشرونها حيثما ينشرون المسيحية، وكان من أثر ذلك أن أصبحت مألوفة لدى الجرمان بمقدار ما هى مألوفة لدى الانجلوسكسون، كما أصبحت تمثل الثقافة المشتركة بينهما.

وقد يكون السبب فى ذلك أن موضوع الملحمة يتناول تراثا يهم الجرمانيين فى كل مكان سواء منهم من كان فى مهجره الإنجليزى، ومن لا يزال فى موطنه الأصيل. والعظات التى وصلت إلينا من الأدب الإنجليزى القديم، ومن الأدب الجرمانى فى العصور الوسطى نرى الأدباء الذين كتبوها يكثرون من الاستشهاد والتمثيل بأبيات من هذه الملحمة كأنها نص من النصوص المقدسة. ولا شك أن هذا يدل دلالة واضحة على ما لهذه الملحمة من مكانة أدبية سامية.

وبعد : فهل هذه القصيدة قصيدة بطولية ، أم هى مأساة ، أم هى ملحمة ؟

لقد اخترنا أن نسميها ملحمة من باب التجوز لأننا نراها لا تدخل فى أى نوع من أنواع القصائد المعروفة ، وإن كانت تسمية « ملحمة » لا تصدق عليها كل الصدق ، لأننا حين نقول « ملحمة » يتجه بنا التفكير إلى أسلوب ملاحم « هوميروس » و « فرجيل » ، وليس بين قصيدتنا هذه و بين تلك الملاحم تشابه فى الشكل أو طريقة العرض ، أو الأسلوب ، ولا تقوم على القواعد التى تقوم عليها الملاحم التقليدية (الكلاسيكية) ، وذلك بالرغم من أن الشاعر الذى ألفها يدل أسلوبه على أنه ألم ببعض ما أنشأ « فرجيل » فى ملحمته « الانيادة » وأن شيئا من التشابه يقوم بينهما ، ومن ذلك أنه جعل بطل ملحمته « بيولف » يروى مغامراته الماضية أمام الملك « هوجلاك » فى قصره كما فعل « فرجيل » حين جعل « اينياس » يروى قصة سقوط ترواده . ويشتركان أيضاً فيما عمد إليه كل منهما من وصف طقوس دفن الموتى وصفا مفصلا مبسوطا .

لهذا ونحوه اتجه بعض الأدباء والنقاد المحدثين إلى احتساب قصيدة بيولف « قصيدة بطولية » وفضلوا ذلك على إدخالها فى عداد الملاحم .

غير أننا نفضل اعتبارها ملحمة ، ولو كان ذلك من باب التجوز ، فهى وإن كانت حقا لا تستوفى كل عناصر الملحمة ، لكنها تقترب منها فى الاعتماد على الأسلوب الخاص بالملاحم . وتتميز بأنها لا تعتمد على أساس موحد ولكنها تعتمد على أساس من التقليد المسيحى من جانب ، والتقليد الوثنى من جانب آخر ، فى حين أن الملحمة التقليدية تستمد من أصل واحد هو الأصل الوثنى .

ويجب ألا يفوتنا أن نشير إلى أن قصيدة بيولف ليست ملحمة قومية انجليزية لأن كل شخصياتها من السابقين على تكوين المجتمع الانجليزى بل يعودون إلى أصل جرمانى .

ويجب أن نلاحظ أنها أنشئت لجمهور أرستقراطى انجليزى لم يكن قد استقر فى انجلترا قبل نحو قرنين على الأكثر ، فالصلة بينه و بين ماضيه الجرمانى ما تزال عالقة بالنفوس ، مستقرة فى الأذهان . فهى إذن جرمانية أكثر مما هى انجليزية ، ويتمثل فيها حنين الجمهور إلى ماضيهم البعيد ، وقد كان ذلك مما يسر انتشارها فى القارة الأوربية بين الشعوب الجرمانية الأصل ، وظل انتشارها سائدا من القرن الثامن حتى نهاية القرن الثانى عشر .

والشاعر المسيحى الذى أنشأها كان متأثراً بالمسيحية تأثراً عميقاً لذلك لم ينتخب من المثل الجرمانية إلا ما يتمشى مع المبادىء المسيحية التى يؤمن بها . ولم يقع اختياره إلا على الوقائع والقيم الجرمانية التى أقرتها المسيحية ليحتفظ من جانب بمجد الجرمان ، وليحيى من جانب آخر المسيحية التى يؤمن بها . فمن ذلك مثلا : إيمانه بقوة قاهرة تسيطر على القوة البشرية ، ودعوته إلى التواضع ونبذ الكبرياء ، والدعوة إلى البر والإحسان ، وعدم الاغترار بالمجد الدنيوى الذى مصيره إلى الزوال والفناء . . . كل هذا ونحوه كان مثلا عليا فى العهود الجرمانية ، وجاءت المسيحية أيضاً بها ، وقد اعتمد عليها الشاعر فيما اعتمد .

وقد قلنا إننا نميل إلى تسميتها ملحمة ، ونرى أنها إذا لم تعتبر كذلك

فالأولى بها أن تعتبر « مأساة » لأن بطل القصة قد مات على الرغم من كفاحه وبطولته وتشبثه بالحياة . وفى المنطق الوثنى أن هذه النهاية لابد منها لأن البطل إلى فناء ، ولا خلود إلا لمجده وطيب ذكراه ، وفى المنطق المسيحى أن البطل ككل كائن جسده إلى فناء ، أما روحه فسيكون لها الخلود فى جنات النعيم . .

ملحمة بيولف

هانحن أولاء قد سمعنا عن عظمة القدماء من الملوك (الدانيين) حملة الرماح وكيف كان أبطالهم يقاتلون ببسالة . وكثيراً ما كان (شولد شيفنج)[1] يخضع القبائل ويسلب الندمان مجالسهم ، كما كان يفزع المحاربين منذ عثر عليه لقيطاً هزيلا ، وقد وجد مايعوضه عن ضآلة بدنه بما صادفه من رخاء ومجد فى حياته . حتى أن الشعوب المجاورة دانت له وقدمت إليه فروض الطاعة ، وكذلك الشعوب القاطنة وراء البحر طريق الحوت . لقد كان ملكا عظيما حقاً ! .

وقد خلف ابناً مثيلا له فى عظمته أرسله الله عوناً للشعب . وقد شب فى قصر أبيه ، وساقه الله إلى الشعب لعلمه بما عاناه طويلا بسبب افتقاره إلى قواد. هذا ما فعله سيد الحياة وملك السموات ، الذى منحه جميع صفات العظمة فى حياته وقد امتد مجد (بيوانف) بن (شولد) فى جميع أنحاء بلاد (الدانيين) .

وهكذا ينبغى أن يحرص كل شاب مثله على المنح بسخاء من ثروة أبيه حتى إذا كبر خدمه الشعب بإرادته ووقف معه جنباً إلى جنب فى الحروب وهذا السلوك الذى يجعل الإنسان ينجح فى قيادة الشعوب .

وفى اللحظة المقدرة له فاضت روحه – وهو صاحب الحول والطول – إلى بارئها . ثم حمله رفاقه المخلصون إلى شاطىء اليم تنفيذاً لوصيته حين كان يسيطر على لسانه . وبهذا نفذوا وصية شيخهم المحبوب ، نفذوا وصية راعى قبيلة (الشولدنج) المهيب .

وهاهى ذى السفينة ذات المقدم المقوس ترسو على الشاطىء مغطاة بالجليد

اللامع ، ومهيأة للإبحار . إنها لسفينة جديرة بحمل محارب باسل عظيم . ثم وضعوا فوقها أميرهم العزيز ، أميرهم مانح الخواتم الثمينة ، وضعوه فى قلب السفينة بجوار الصارى . وقد حملت معه كنوز عديدة وحلى ذهبية من جميع أنحاء العالم القريبة والبعيدة . ولم أسمع قط بسفينة تماثلها فى الجمال ، وحليت بمثل ماحليت به من الأسلحة والدروع والزرد والسيوف . وكان يغطى صدره كنوز ثمينة لتصحبه أثناء رحلته الطويلة فى حمى الأمواج .

لقد زود بقدر من الحلى والكنوز يماثل ماصحبه حينما أقبل من وراء البحار وهو لقيط . ثم رفعوا علما ذهبيا فوق هامته ، وأرسلوه على الأمواج ، وتركوا الخضم يحمله بعيداً عنهم . وكان الحزن يملأ أفئدتهم ، والاكتئاب يفعم صدورهم . ولا يعرف الحكماء منهم أين ذهب بطلهم تحت السموات وإلى أى ميناء رسا .

وفى مضارب (الشولدنج) حكم (بيولف) ملكا ، وكان سيدا محبوبا فى شعبه . وقد حكم مدة مديدة ، وامتدت شهرته بعيداً من بعد وفاة أبيه ، ذلك الملك العظيم الذى غادر الملك وفارق الحياة . لقد حكم (بيولف) طويلا حتى ظهر (هيالفدينى) (٢) المعظم الذى حكم (الشولدنج) الشرفاء المظفرين ، وكان يقودهم فى الحروب ببسالة حتى شيخوخته . وقد ولد له أربعة أولاد كانوا محاربين أمجادا منذ تفتحت عيونهم على الحياة ، وهم (هيوروجار) و(خروثجار) و (هالجا) الخير ، وبنت أيضا أصبحت — كما سمعت — زوجة الملك (أونيلا) ، شريكة فراش بطل المعارك العظيم .

ومنح (خروثجار) المجد فى المعارك ، وتبجيل الرفاق ، حتى أن أقرانه كانوا

يطيعونه بإرادتهم ، فأصبحت رابطة رفاقه به وثيقة وقوية . وقد خطر بذهنه أن يشيد دارا جديرة بمجده ، وأن يقيم بهواً يعاقرون فيه الراح أعظم مما شهده الناس من قبل ، وأن يبنى مأوى يتناسب مع الشهرة التى بلغها ، وفيه يهب الناس شبانا وشيبا حقوقهم بالقدر الذى مكنه الله منه ، واستثنى من ذلك سيادة القبيلة وحكم الشعب . وقد ترامى إلى أذنى أن الأوامر قد صدرت لقبائل كثيرة فى أنحاء العالم للاشتراك فى إقامة هذا البناء الفخم . وفى الموعد المقرر له تم البناء الفسيح العالى العظيم ، وسماه (هيوروت) (٣) ، هكذا سماه الحاكم العظيم وسماه الحاكم العظيم الذى كانت كلمته نافذة فى كل مكان ، ولم ينس وعده ، بمنح الخواتم الثمينة والنفائس فى الولائم .

وظل ذلك البهو العظيم شامخ البناء ، وقرون الوعول تعلو رتاجه ، ولم تؤثر فيه ألسنة اللهب حينما امتدت إليه لأن الكراهية التى تعبر عن نفسها بالسيف بين المرء وحميه لم تكن قد استيقظت بعد .

ولكن الوحش الشرير ذلك الشيطان الرجيم الذى كان يعيش متربصا فى الظلمات شق عليه أن يسمع كل يوم أصوات الفرح والابتهاج التى كانت تنبعث من البهو . وكان صوت القيثارة يصدح ، والشاعر ينشد وهو يقص ما سمعه عن أصل الإنسان ، وكيفية خلق الله الجبار الأرض ، تلك الأرض المشرقة التى تكتنفها البحار ، وكيف برأ الشمس والقمر لينيرا طريق سكان الأرض ، وزين جوانبها بالغصون وأوراق الأشجار . إنه أيضا قد منح الحياة لكل إنسان يولد .

كذلك عاش أفراد القبيلة طويلا فى سعادة ورخاء حتى كان يوم حاك فيه

الشيطان الجهنمى خيوط الخيانة • وكان ذلك الوحش الغريب يدعى (جرندل). ويهيم على وجهه فى الأماكن المهجورة والتلال الجرداء والمستنقعات الخيفة، كان يعيش فى هذه الأماكن متحديا كل شرائع العالم • وقد عاش طويلا بهذه الديار مأوى الشياطين ، عاش فيها طويلا ذلك المخلوق اللعين . وكان الخالق قد لعنه ونفاه بعيدا عن البشر بسبب قرابته (لقابيل) (٤) قاتل أخيه الذى عاقبه الله بطرده من الجنس البشرى ، وأصبح كل نسله من المخلوقات الغريبة من أمثال العمالقة والغيلان ، ذلك النسل للفزع الذى صارع طويلا ضد الله . ولكن الله عاقبهم بمثل أعمالهم .

وحينما أرخى الليل سدوله أقبل الوحش يتطلع إلى (الدانيين) حملة الخواتم الذين بقوا فى الدار العالية بعد الوليمة ، ووجد جماعة من أبطال القبيلة قد غلبهم النعاس بعد أن امتلأت بطونهم وخلت أذهانهم من همومهم وأحزان العالم فلم يتورع ذلك الشرير المدمر الجشع المكتئب عن أن يقبض على ثلاثين بطلا وهم يغطون فى نومهم ، مزقهم وجر جثثهم شامتا إلى مخبئه فى الجبال . وعند الفجر ظهرت أعمال (جرندل) المدمرة للأبطال ، فاستبدلوا بصيحة الابتهاج النحيب والعويل ، وتحول مكان الوليمة إلى مبكى للشجعان والأبطال . فجلس السيد ذو الحول والطول على عرشه تعلوه الكآبة ، جلس المحارب الباسل وصدره مفعم بالحزن على أبطاله حينما رأى آثار الدمار والهلاك التى خلفها الوحش اللعين . والهفتاه على تلك المذبحة التى جاوزت الحد فى الوحشية والشناعة . ولكن لم تكد تمر ليلة واحدة حتى عاد الوحش إلى التدمير والاغتيال من جديد ، لأنه كان قد اعتاد القتل والفتك . ففر الكثير من الدار ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا،

وافترشوا الأرض فى الخلاء لأنه قد تبين بوضوح أن كراهية الوحش متجهة نحو صاحب الدار . ومن استطاع الهرب شعر بأنه فى مأمن من شر الوحش •

وهكذا سيطر الوحش بفتكه وظلمه حتى أصبحت تلك الدار قاعا صفصفا . واستمر الفتك اثنى عشر شتاء ، وأمير (الشولدنج) فى اللوعة وحرقة الفؤاد . وظلت الحال كذلك حتى ترامت الأخبار إلى أبناء البلاد أجمعين بوساطة أغانى الشعراء التى تقول بأن حربا شعواء قد دارت رحاها بين (جرندل) و (خروثجار) ، حربا وحشية دامية مليئة بالعداوة ومشتعلة بنار البغضاء استمرت سنين عديدة . ولم يقبل الوحش أن يسحب وعيده فى مقابل فدية يقدمها أى رجل من الدانيين ، وقد تأكد شيوخ القبيلة تمام التأكد أنه لا أمل فى الحصول على دية قتلاهم من الوحش ، ذلك الغول المرعب الذى كان يقض مضاجعهم ، ذلك الوحش ظل خطرا يتوعد أقوياءهم وشبابهم ويتربص بهم . كان يخطو خطوة الفتك فوق الرواسى المغطاة بالغيوم ، ولا يعلم الناس من أين يبدو وحش مثله إذا خبط فى الظلام . وهكذا ارتكب هذا العدو الشرير جرائم كثيرة ضد البشر ، هذا الوحش الذى اعتزل الناس وكثيرا ما كان يوقع بهم مصائب مذلة . عاش فى قصر (هيوروت) ، ذلك البهو الفخم المنمق ، كان يعيش فيه أثناء الليالى المعتمة ، ولكن الله سيد الكون لم يسمح له أن يمس العرش (٥) ولا كنز القبيلة ، لأنه كان لا يدين بحب الله .

كانت هذه الحال سببا فى لوعة حامى (الشولدنج) العزيز وقلق باله . وكثيرا ما اجتمع الحكماء المبرزون فى فنون السر والعلانية ليتشاوروا فيما يجب أن يدبره الأبطال لمقاومة هذا الفزع الأليم . وطالما أقسموا الأيمان فى معابد آلهتهم ،

وتضرعوا إليهم أن يمدوهم بالمعونة من أجل مقاومة شقاء الشعب . وكانت هذه
سنتهم فى الشدائد ، كما كان هذا أمل الوثنيين . وكانوا دائما يحسون النار المتأججة
فى أفكارهم ، لأنهم كانوا لايدينون بالإله الذى يحكم على أعمال الناس ،
كانوا لايعرفون الله القدير راعى المجد ، وحقا كانوا يجهلون كيف يعبدون حامى
السموات وسيد الأمجاد . وويل لمن يدع روحه فى الشدائد تحترق فى نار جهنم
ولا يلتمس السلوى والخلاص ، وطوبى لمن يعتصم بالله ويلوذ بأحضانه حتى يجد
هناك السلام (٦) .

وكذلك كان ابن (هيالفدينى) دائما يفكر وقلبه مفعم بالأشجان ، ولم
يستطع البطل رغم حكمته أن يتخلى عن بؤسه . فقد كانت الشدائد التى نزلت
بالشعب بالغة فى العنف والطول والإيلام . وما كان أقسى ذلك الظلم وأكثر
ذلك الشر الذى يحل بالليل . ولكن أحد أفراد عصبته سمع بكل ذلك فى داره
البعيدة ، سمع أحد عظماء شعب (الجيات) بجرائم (جرندل) . وقد كان أقوى
الرجال وأسماهم منزلة فى هذه الحياة . فأمر بإعداد سفينة قائلا إنه بوصفه قائد
حرب سيعبر البحر ، طريق البجع ، ليصل إلى الأمير العظيم الذى كان بحاجة إلى
الرجال . ولم يحاول نصراؤه فى المعركة أن يصرفوه عن الترحال رغم عظيم تعلقهم
به ، بل أثاروا حماسته واستطلعوا من أجله بخته . فاختار الزعيم أبطاله من شعب
(الجيات) . اختار أبسلهم مرافقين له فى رحلته . وتقدم إلى الشاطىء مع أربعة
عشر من نصرائه ، تقدم إلى السفينة ذلك العليم بأسرار السير فى البحار .

وفى الموعد المحدد من اليوم التالى كان المحاربون يقفون على مقدم السفينة
هى تمخر عباب البحر الذى يشرف عليه الجبل ، والزبد يلطمها ، والأمواج

تزحف على رمال الشاطىء . وكان الرجال قد وضعوا فى داخل السفينة أسلحتهم
ودروع المعارك الرائعة ، ودفعوا السفينة فى الماء بحماسة ، تلك السفينة المعدة
إعدادا قويا . فمضت مدفوعة بقوة الرياح تشق صفحة الماء والزبد يطوق جيدها
كأنها طائر يحلق فوق سطح البحر . ظلت مبحرة نهارا وليلة لايعوقها عائق ، تلك
السفينة التى كان يرتفع مقدمها فوق الماء كبرا وزهوا حتى رأى بحارتها الأرض
من بعيد ، رأوا جبالا شاهقة لاسفح لها وجزءا ضخما من اليابسة بارزا فى الماء .
وبذلك بلغوا مرساهم وانتهت رحلتهم .

فنهض رجال (الويدر) ، ووثبوا من السفينة إلى البر ، وأرسوها بجانب
الشاطىء . وكانت الزرود والدروع تصل ، وحمدوا الله على سهولة رحلتهم
فوق الأمواج .

ورأى حارس (الشولدنج) من معقله ، حيث كان يراقب الجبال المجاورة
للبحر ، رأى هؤلاء الرجال وهم يحملون تروسهم البراقة ودروعهم اللامعة فوق
معبر السفينة ، فدهش وتساءل عمن يكون هؤلاء الرجال ؟ وامتطى البطل خروتجار
جواده ، ونزل به إلى الشاطىء ، ثم رفع رمحه الهائل رفعا مريعا وهو يقول :

« من أنتم أيها المحاربون المسلحون يامن ترتدون الزرود ؟ من أنتم يا من
أبحرتم فى سفينة عالية البنيان عبر طريق البحار ، فجئتم إلى هذه الديار ؟ ها أنذا
كنت حارسا للشاطىء منذ أمد بعيد أراقب البحر حتى لايغير عدو كريه على
أرض (الدانيين) ، حتى لايدهمنا بجيش تحمله السفن . وإلى الآن لم يجرؤ أى

حامل للترس أن يأتى إلينا بهذه العلانية ، رغم أنكم لاتعرفون كلمة السر ولم تحصلوا على إذن من أهلى وأقربائى . ولم أر فى حياتى على وجه البسيطة محاربا أقوى من ذلك الذى يقف بينكم ، ذلك المحارب الذى يرتدى درع الحرب ، فهو ليس جنديا عاديا مالم يكن مظهره لايدل على مخبره ، ما تلك الطلعة التى لامثيل لها ؟ والآن يجب أن تخبرونى باسم قبيلتكم قبل أن تتقدموا خطوة فى أرض (الدانيين) ، فقد تكونون عيونا للأعداء. أيها المقبلون من أطراف نائية ، أنصتوا إلى ، أيها الماخرون فى البحار ، أرعوا آذانكم كلامى الواضح ! وينبغى أن تفصحوا سريعا عن جنسكم ووطنكم» .

فأجابه الزعيم الحكيم بين رفاقه فاتحا خزائن كلامه وقائلا :

« إننا رفقة من قبيلة (الجيات) ، نحن ندماء (هو جلاك) . كان أبى شهيرا بين شعوب العالم ، وكان قائد حرب عظيما اسمه (ادجثيو) ، عاش بيننا أشتية كثيرة قبل أن يمضى فى طريقه وهو شيخ كبير . وكل عالم وحكيم فى بقاع الأرض يسهل عليه تذكره . ولقد جئنا نحن بقلوب يملؤها الولاء والإخلاص لنبحث عن أميركم ابن (هيالفدينى) . لذلك نرجو أن ترشدنا وتنصحنا لأننا أقبلنا هنا برسالة هامة لنلتقى بأميركم الذائع الصيت ، وقد بانفتك ولا أرى داعيا لإخفاء مقصدنا . وأملنا أن تصدقنا عما إذا كان الخبر الذى ترامى إلى آذاننا صحيحا ، وهو أن هناك وحشا شريرا ضارا (بالشولدنج) ، مجرما خفيا يهيم فى الليالى الحالكة الظلام ، ويوقع بالناس التخريب والدمار والشرور التى لا يحيط بها الوصف . وفى هذه الحالة أستطيع أن أنصح (خرونجار) نصيحة قد تريحه

وتساعده على الخلاص من هذا الرعب والانتصار على هذا الشيطان ، إذا كان هذا العذاب قابلا للزوال، والمتاعب يمكن أن تكشف ، وأمواج الهم الشديدة الاصطخاب من الممكن أن تخف حدتها. فإذا لم يتيسر ذلك فعليه أن يقضى ما تبقى من حياته فى تعاسة وشقاء ما دام هذا القصر الفخم ، أشرف الديار ، ماثلا فوق جباله الشامخ» .

فنطق الحارس من فوق جواده ، تكلم الجندى الذى لايعرف الخوف وقال :

« إن المحارب البصير يستطيع أن يميز بين الأقوال والأفعال إذا كان يجيد التفكير . وقد تأكدت الآن أنكم نصراء مخلصون لأمير (الشولدنج) ، لذلك أتركم تحملون دروعكم وسلاحكم ، فامضوا فى سبيلكم وسأكون مرشدا لكم وسأكلف رفاقى بأن يحرسوا سفينتكم من الأعداء ، يحرسون سفينتكم المعدة إعدادا كاملا وجديدا ، ويمجدونها تمجيدا عظيما إلى أن يقدر لها حمل سيدها العزيز إلى مملكة (الجيات) وهى تمخر عباب البحر يتقدمها الحاد المقوس ، هذا إذا لم يصب بأذى فى حومة الوغى ذلك البطل المغوار الذى سيقوم بأعمال باسلة» .

فمضوا وبقيت السفينة ساكنة مربوطة بحبل متين ، تلك السفينة التى اعتادت الإبحار ظلت مثبتة بمرساتها . وكانت الشارة المعدنية للخنزير البرى [٧] تتلألأ فوق خوذات المحاربين وتضىء الأقنعة المرصعة بالذهب فوق عوارضهم ، هذه الأقنعة الفخمة للزينة المصقولة. وكانت هذه الشارات المفزعة تحرس المحاربين وهم يتقدمون حتى وصلوا إلى الدار المقواة بالعروق الخشبية للتينة ، وصلوا إلى البهو العظيم

وكانت هذه الدار أشهر السقائف بين سكان الأرض وأبرزها المحلى بالذهب . وكانت قصرا فخما يقيم فيه الملك العظيم ، قصرا تشع منه أنوار تحت قبة السماء ، تضيء أقطارا كثيرة . وأراهم الحارس القصر من بعد ، تلك القلعة ذات الرونق التي يقيم فيها المحاربون الشجعان . وبين لهم معالم الطريق ، ثم توقف ، وعطف جواده قائلا :

« لقد حان وقت الفراق ، وإنى أتركـكم داعيا المولى القدير أن يتولاكم بهدايته ورحمته ، وأن يحفظـكم فى كل ماتقدمون عليه . أما أنا فيجب أن أعود إلى شاطىء البحر كى أحرسه من الأعداء » .

وكان الطريق مرصوفا بالأحجار ، واضحا يدل على نفسه بنفسه . وكان الزرد يتلألأ فوق صدور الرجال ، حلقاته قوية ومحبوكة باليد ، تلك الحلقات التى كانت تصلصل أثناء السير كأنها تترنم ، والأبطال يمشون صفا صفا إلى القصر بأسلحتهم المرعبة . فلما بلغوه أمالوا تروسهم على جدرانه لشدة الإعياء من الرحلة فوق البحار ، وضعوا أسلحتهم القوية وجلسوا على المقاعد . وكان الزرد وعدة الحرب تصلصل حينما هموا بالجلوس . وتلاقت رءوس الحراب مستندا بعضها إلى بعض ، وقنواتها القوية مصنوعة من المران وذات سنان رمادى اللون وشديد الصلابة ، لأن هذه الرفقة كانت مزودة بأسلحة عديمة النظير . فتنبه لهم محارب معتز بشخصيته ، وسألهم عن سلسلة نسبهم قائلا :

« أيها الرجال ! من أين أتيتم ؟ ومن أين حصلتم على هذه التروس البراقة ، وعلى هذه الزرود الرمادية ، وهذه الخوذات ذات القناع ، وهذه الأكوام من الحراب ؟ إنى مذيع (خرونجار) وملازمة ولم أر قط فى حياتى هذا العدد من

الغرباء بمثل هذا الاعتزاز بالنفس ، وإنى لواثق أنكم لجأتم إلى (خرونجار) لانتيجة للنفى وإنما سعيا لأغراض سامية فى سبيل العزة والكرامة » .

وفى الحال أجابه البطل أمير (الويدر) العزيز النفس الذى تجمعت الشجاعة تحت خوذته قائلا :

« إننا رفقاء (هوجلاك) ومطيعو أوامره . أما أنا فاسمى (بيولف) وإنى أرغب أن أعبر عن رسالتى إلى ابن (هيالفدينى) الملك العظيم زعيمك لو أراد أن يسمح لى بذلك حتى نستطيع أن نحييه ، نحيي ذلك الرجل الخير » .

فتكلم (ولفجار) ، وكان أميرا لقبيلة (الوندل) ، وأخلاقه وبسالته وحكمته معروفة للكثير ، قال :

« أرجو أن أقف على رأيه فى مجيئكم ، ثم أعـود إليكم بالجواب السريع حتى تتأكدوا من ارتياحه أو عدم ارتياحه لإقبالكم حسبما يتراءى لمليكى العظيم » .

فانصرف بسرعة إلى الموضع الذى تربع فيه (خرونجار) ذلك الشيخ الهرم الأشيب ، فوق عرشه بين حاشيته من الأبطال ، تقدم إليه الرسول بشجاعة حتى حاذى ملك (الدانيين) ، وهو يعرف سنة البلاد حق المعرفة ، وقال (ولفجار) لمليكه ووليه :

« هاهم أولاء مسافرون أتوا من مكان سحيق ، عبر عرض الخضم ، هؤلاء

الرجال من قبيلة (الجيات) ويسمى هؤلاء الجند زعيمهم باسم (بيولف) .
وهم الآن يلتمسون منك يا مولاى أن يمثلوا بين يديك وأن يتحدثوا إليك فلا
تضن عليهم بالجواب ، بل امنحهم إياه يا (خروثجار) الكريم ، وهم مسلحون
خير سلاح ، ويبدو أنهم جديرون بترحاب المحاربين . وإن الزعيم الذى قاد
هذه الرفقة إلى هنا لذو سطوة وبسالة » .

ثم تكلم (خروثجار) راعى الشولدنج) قائلا :

« إنى كنت أعرفه وهو صبى وكان أبوه اسمه (ادجنثيو) ، وقد زوجه
(خريثل) الجياتى من ابنته الوحيدة . وأظن أن ابنه المقدام قد أتى هنا الآن
باحثاً عن صديق حميم ، وقد سمعت من بحارة مروا ببلادنا ومعهم هدايا إلى
قبيلة (الجيات) أن هذا الزعيم الجسور يدين له بالطاعة والولاء ثلاثون محارباً .
والله العلى أرسله لنا رحمة ، أرسله إلى (الدانيين) الغربيين ليكون ساعداً لنا
ـ كما آمل ـ ضد نكبات (جرندل) : ونظير بسالته سأمنح الهدايا الثمينة
إلى ذلك الرجل الوفى ، فأسرع أيها المذيع ومرهم بالمثول بين يدى . قل لهؤلاء
الأبطال أن يدخلوا جميعاً ، قل لهم بصريح العبارة إن شعب (الدانيين)
يرحب بهم » .

فاتجه نحو باب القصر وصاح من الداخل قائلا :

« قد أمرنى زعيمى فى المعارك أن أقول لك يا زعيم (الدانيين) الشرقيين
إنه يعرف حسبك ونسبك ، وإنك عنده موضع الإعزاز والتكريم ، فإنه يرحب
بكم بعد قدومكم من وراء أمواج اليم أيها المحاربون البواسل . ولهذا تستطيعون

المثول بين يدى (خروثجار) بدروعكم وخوذاتكم ، ولكن دعوا تروسكم
ورماحكم هنا . هذا ما أمر به » .

فوقف الزعيم وحوله رفقته ، هؤلاء المحاربون الأشداء ، وقفوا جميعا
ما عدا قلة منهم ظلت تحرس أدوات الحرب إطاعة لأمر زعيمهم . وأسرعوا معاً
إلى بهو (هيوروت) بقيادة (ولفجار) حتى وصل الزعيم المقدام الذى تجمعت
الشجاعة تحت خوذته إلى داخل القصر ، ثم توقف .

فتكلم (بيولف) والزرد يتلألأ على صدره ؛ تلك الحلقات التى نسجها
الحداد أحكم نسج ، وقال :

« تحية لك يا خروثجار) ، إنى من عصبة (هوجلاك) وأحد فرسانه ، واعتدت
منذ الصبا على الأعمال العظيمة ، وقد سمعت فى بلدى عما أصابكم من (جرندل)
فالبحارة يروون أن هذا القصر يقف خالياً وساكناً وعديم الفائدة للناس جميعا
وذلك بعد أن يجن الليل وتختفى أضواؤه وراء حجب السماء . وقد نصحنى شعبى
ذلك الشعب الحكيم المقدام أن آتى لك أيها الأمير (خروثجار) ، نصحنى أن
أبحث عنك لأن شعبى يعرف حق المعرفة قوتى وصلابتى . فهم ولاشك يذكرون
الوقت الذى عدت إليهم فيه ملطخاً بدماء أعدائى ، عدت من المعركة بخمسة
عمالقة قيدتهم واستأصلت شأفتهم ، ثم عدت من معركة أخرى بين الأمواج
بعد أن قتلت أعداداً عديدة من التنين المعتم اللون ، يذكرون كيف
تحملت الشدائد التى لا يتصورها العقل انتقاماً لقبيلة (الويدر) التى عانت
الكوارث فأبدت عدوهم ، والآن أريد أن أصارع وحدى (جرندل) ذلك
الوحش الرهيب ، أريد أن أنتهى من أمر ذلك الشيطان . لذلك أطلب منك

يا سيد (الدانيين) الغر ، يا أمير (الشولدنج) ، معروفا واحداً وهو ألا تحرمني يا حامي المحاربين وراعي الشعوب أن أطهر قصر (هيوروت) أنا وفرسان قبيلتي وحدنا ، أنا وهؤلاء الرفقة الشجعان ، لأنني قد قدمت من بعيد . وقد علمت أيضا أن ذلك الوحش الذي لا يعبأ بشدائد النزال لا يلجأ إلى استعمال الأسلحة ، وكذلك أفعل أنا حتى يكون (هوجلاك) سيدي راضيا عني . وسأترفع عن أن أستعمل سيفا أو ترسا عريضا أو درقة المعارك الصفراء ، بل سأناضل العدو بيدي فحسب (٨) ، وسنتصارع حتى الموت عدوا ضد عدو . ومن يهلك منا يرض بقضاء الله العادل .

ولا شك في أن الوحش ، لو قدر له أن يتغلب على أبطال الجيات فسيلتهمهم فقد طالما التهم من قبل زهرة المحاربين (الدانيين) . وإذا مت أنا فلا داعي لأن تؤدوا طقوس الدفن لرأسي لأنه إذا قتلني أخذني واستنزف دمي وحمل جثتي المهشمة إلى مخبئه ليلتهمها وحده . لا ، فلن تكون هناك حاجة لأداء طقوس الجناز ، ولكن إن سقطت في المعركة فأرسل (لهوجلاك) الزرد الذي أرتديه ، ذلك الدرع الممتاز خير الأردية ، الذي ورثته عن (خريثل) وصنعه (ويلاند) نفسه (٩) . فلتجر المقادير كيف شاءت » .

ثم تكلم (خروثجار) أمير (الشولدنج) قائلا :

« يا صديقي بيولف ، لا شك أنك قد قصدتنا نتيجة للبطولات السالفة والالتزامات الناجمة عنها ، فأبوك قد انتصر في أقسى المعارك حينما قتل (هياثولاف) من قبيلة (الولفنج) ، ولكن شعب (الويدر) لم يؤوه خوفاً من شدائد الحرب ، فهرب ولجأ إلى (الدانيين الجنوبيين) ، أولئك (الشولدنج) الكرام

وراء أمواج الخضم . وكنت وقتئذ في بدء ملكي لشعب (الدانيين) ، وهذه المدينة الغنية بالأبطال كان لها في شبابي سطوة عظيمة . ثم مات (هيوروجار) ابن (هيالفدين) ، مات أخي الأكبر ، وكم كان يمتاز عني ، وبعد ذلك أديت الفدية لأنهي الخصام ، وأرسلت إلى الولفنج وراء البحار كنوزاً أثرية ، فأدى والدك يمين الطاعة لي . وإني ليحزن قلبي ويؤذيني أن أقص على أحد من المحاربين كيف أذلني (جرندل) في قصر (هيوروت) بأعماله العدوانية وبالهول الذي صبه علينا ، فرفاقي في القصر هؤلاء الرفقة من المحاربين ، قد قتلوا ، لأن القدر قد قذف ببعضهم إلى أحشاء (جرندل) ، ولكن الله قادر على أن يحول بين المدمر وأعماله .

ما أكثر ما شمخ أبطالي السكارى بعد أن احتسوا الجعة ، وما أعظم ما تفاخروا وهم يتبادلون الحديث حول الكئوس ، وقالوا إنهم سيستقبلون انقضاض (جرندل) بصوارم سيوفهم وهم في بهو الشراب . غير أن ذلك البهو ما لبث أن تلطخ بدمائهم في اليوم التالي ، ومجالسهم مبتلة بمياه حياتهم بعد المذبحة ، فقل عدد نصرائي المخلصين الأعزاء البواسل لأن الموت قد اختطفهم مني . فاجلس الآن حول المائدة واعرض ما في ذهنك من خطة أيها الشهير بانتصاراته » .

وبعدئذ أعدت المجالس في بهو الشراب لرجال (الجيات) المجتمعين ، ثم اتخذ البواسل المعتزون بقوتهم مجالسهم ، وقام ساقي الكئوس بواجبه فطاف يحمل كئوس الجعة المزخرفة ، وسقى الشراب العذب . وأنشد الشاعر أثناء ذلك بصوت

رخيم فى بهو (هيوروت)، وساد الابتهاج بين الأبطال أولئك العظماء من
قبيلتى الدانيين والويدر .

ثم نفث (أونفرث)[١٠] بن (ادجلاف) سموم لسانه وهو الذى كان
يجلس دائماً عند قدمى أمير (الشوادنج) لأنه غضب من أن يقوم (بيولف)
بهذه الرحلة الجريئة، ولم يرضه أن يقسم العالم لرجل آخر غيره يقدر له من المجد
أكثر مما قدر له، وقال :

« هل أنت (بيولف) ذلك الذى صارع (بريكا) فى عرض البحر وأنتما
تسبحان ؟ وهل صحيح أنكما تجاسرتما على خوض الخضم وخاطرتما بحياتكما
كبرا وفخارا أحمق ؟ ولم يستطع أحد صديقا كان أو عدواً أن يصرفكما عن هذه
التجربة الحمقاء . فقذفتما بنفسيكما فى اليم، وعانقتماه، ولوحتما بذراعيكما،
وخضتما التيارات المائية بدفع أيديكما وأنتما تطفوان فوق الأمواج الفائرة،
وكافحتما قوة المياه فى صميم الشتاء سبع ليالى . ثم تغلب عليك فى السباحة
وفاقك فى إظهار القوة، وفى صباح اليوم التالى قذف به البحر إلى الشاطىء،
إلى شاطىء إقليم (الهياثوريم)، ومن هنا قصد بعد مدة وطنه، قصد أرض
قبيلة (البروندنج) حيث كان يملك قلعة حصينة . و يتمتع بحب عصبته، ويحوز
مدينة وكنوزا . حقاً حقاً . إن ابن (بيانستان) قد حقق فخاره ضدك . لذلك
فإنى أتنبأ لك بالعواقب الوخيمة لو تجرأت على أن تتربص (لجرندل) طول
الليل حتى تصارعه مصارعة الحياة أو الموت » .

ثم تكلم (بيولف) بن (ادجيثيو) قائلا :

« عجباً ! ما أشد ثرثرتك ياصديقى (أونفرث) أيها السكير بالجعة، لقد
تكلمت عن (بريكا) وعن رحلته، ولكنى أعتبر نفسى حقيقة أقوى من أى
رجل آخر فى البحر وفى صراع الأمواج . حينما كنا صبيين وكنا فى فتوتنا
الطائشة تفاخرنا بالمخاطرة بحياتنا فى خوض الخضم وذلك هو مافعلناه بالفعل .
وبينما كنا نسبح فى اليم كان كل منا يقبض على سيف مجرد من غمده لحماية
أنفسنا من الحيتان . فلم يستطع أن يتفوق على فى السرعة كما لم أستطع أن أتغلب
عليه، بل كنا فرسى رهان . وجبنا البحر خمس ليال حتى فرقت بيننا تيارات
عنيفة، وأمواج هائجة، و برد قارس، وظلمة حالكة . وعصفت بنا رياح الشمال
وافترسنا بحر مائج . وثارت وحوش البحر ضدنا ولم يكن لدى سوى الزرد الذى
كنت أرتديه، وقد أحكم الإنسان صنعه بيده، وهو الذى وقانى . حمانى ذلك
الزرد الذى أحكمت حلقاته وزينت بالذهب، فجذبنى عدوى المرعب إلى قاع
البحر وكادت قبضته تودى بحياتى، غير أن القدر شاء أن أصل إلى الوحش
بحسامى صارم المعارك، و بعد ضربة قاتلة فى عاصفة المعركة قضيت على الوحش
البحرى الهائل رغم ضراوته ونتيجة لقوة يمينى .

وهكذا ما أكثر مااعتدى على أعدائى وقدمت لهم ما يستحقونه بسيفى
العزيز، وهذا هو دأب الأبطال . لقد حرمت هؤلاء الأشرار اللذة وليمة فخمة
لأنهم لم يستطيعوا أن يلتهمونى، إنهم المجرمون المقيمون فى قاع البحر، وفى
صبيحة اليوم التالى قذف البحر بجثثهم إلى الشاطىء بعد أن مزقتهم إربا إربا بسيفى
ومنذ ذلك الحين لم يعترضوا طريق أحد من الملاحين وهم يجوبون البحار اللجية . ثم
سطع النور من الشرق، وهو من مصباح الله البراق، وهبطت الأمواج، فرأيت
الشاطىء من بعيد، والصخور الشاهقة تلطمها الأمواج . والقدر كثيراً ما يقى

البطل الهالك مابقيت شجاعته (١١) ، وقد قدر لى أن أبيد تسعة من الوحوش بحسامى ، ولم أسمع قط بمعركة ليلية أقسى من تلك التى ناضلتها تحت قبة السماء ولم أسمع بأى رجل آخر هاجمته تيارات البحر بصورة أبشع ، ولكنى رغم نصبى من الكفاح أنقذت حياتى من قبضة العدو ، وحملنى الخضم إلى أرض قبيلة (الفينيين) ، دفعنى البحر بتياراته وأمواجه الجائشة . أما أنت فلم أسمع عن معركة خضتها ولا عن أى هول واجهته شاهرا سيفك ، فلا أنت ولا (بريكا) قمتما بما قمت به من أعمال باسلة فى معمعة الصراع أمثال تلك التى حققتها بسيفى الذى يقطر دما (مع العلم بأننى لا أفاخر) . وأنا أعلم أنك كنت كارثة لإخوتك ومصيبة لأهلك ، لذلك فأنت ملعون ومصيرك جهنم برغم أنك تمتاز بالذكاء . أقول لك حقاً يابن (ادجلاف) إنه لو كان قلبك وبسالتك بالدرجة التى تدعيها لما استطاع (جرندل) أن يرتكب مثل هذه الأهوال التى لا حصر لها ، وما تمكن هذا الوحش المفترس أن يشين زعيمك وقصر (هيوروت) هذا الشين . إلا أن الوحش قد تيقن أنه لاداعى فى هذه المعركة لأنه يخشاك أو يخشى ذويك فتفاخر (الشوادنج) أولى النصرة لاقيمة له ، لأن الوحش يستولى على مايريده من ضريبة الدم ، ولا يستثنى أحداً من قبيلة (الدانيين) ، وينال مايريد ويشتهى من غير أن يخشى ثأر (الدانيين) ذوى الرماح . ولكن سيجد أن (الجيات) لديهم شجاعة وقوة كما سأوضح له فى المعركة القادمة . وبعدئذ يستطيع كل إنسان أن يذهب إلى بهو الشراب من غير خوف عندما ينبلج نور الصباح ويشرق على البشر ، وقتما تسطع الشمس من الجنوب » .

فسر مانح الجواهر الأشيب الشجاع ، سر أمير (الدانيين) الغر ، سر حامى شعبه ؛ وتيقن أن المعونة قد حانت بعد أن سمع ماقاله (بيولف) عن تصميمه

وعلت صيحات الابتهاج بين الأبطال ، وعمت كلمات الفرح الجميع ، وتعالت ضحكات السرور . ثم دخلت (ويلختيو) قرينة (حروثجار) آخذة بأساليب اللياقة ومزدانة بالحلى الذهبية ، ووقفت حيث الأبطال فى البهو ، ثم قدمت أنبل السيدات كأس المدام إلى زعيم (الدانيين) الشرقيين مراعاة لما يقتضيه المقام ورجته أن يحتسى الجرعة متمتعاً بإعزاز شعبه ، فتقبل الملك الأغر الوليمة وكأس المدام قبولا حسنا . ثم مرت سيدة (الهيلفنج) بكل محارب وكل شاب تملأ كئوسهم حتى حان الوقت الذى قامت فيه الملكة ذات الحلى الذهبية وصاحبة النبل وقدمت (لبيولف) كأس العسل المختمر . فحيت شعب (الجيات) ونطق لسانها الحكيم بحمد الله على أن حقق رجاءها بأن تجد بطلا تثق به ليعاونهم فى الكارثة الإجرامية ، ويرفع الظلم عنهم . تقبل البطل الكاسر الكأس من يدى (ويلختيو) ثم ألقى خطبة مناسبة استعداداً للنزال .

تكلم (بيوليف) (ادجيثو) قائلا :

« حينما أبحرت مع رفاقى لنعبر البحر كانت نيتى أن أحقق أعز رغبات شعبكم تحقيقاً كاملاً ، أو أن أموت فى صراعى وأنا فى قبضة الوحش . فإما أن أنجز هذا العمل البطولى وإما أن ألقى حتفى فى بهو الشراب هذا » .

فراقت هذه الكلمات السيدة الجليلة ، رافها فخر (الجيات) ، وذهبت تلك السيدة الشريفة مزدانة بخواتم الذهب لتجلس إلى جوار قرينها الملك .

ثم ألقيت كلمات حماسية فى البهو ، وابتهج الناس فيه ، وارتفعت أصوات

الأبطال المحار بن حتى حان الوقت الذى أراد فيه ابن (هيالفدينى) أن يأوى
إلى مخدعه ، وهو يعلم حق العلم أن الوحش ينوى الانقضاض على البهو العظيم
عند اختفاء نور الشمس وإسدال الليل ستائره على كل شىء ، وتحرك الخوذات
المختالة الغامضة تحت السحب . عندئذ وقف الجميع ، وسلم (خرونجار) على
(بيولف) سلاماً أشبه بتحية الوداع ، وتمنى له التوفيق والنصر والسيطرة على
بهو الشراب ، ثم فاه بهذه الكلمات :

«منذ أن استطعت أن أرفع الترس على يدى لم أعهد بسيادة بهو (الدانيين)
العظيم لأحد سواك . فتسلمه الآن وسيطر على خير الديار هذا ، واذكر دائماً
مجدك ، وأظهر بسالتك العظيمة ، وتربص بالعدو المفترس . ولو قدر لك البقاء
بعد هذا حيا فلن تحتاج إلى أى شىء مستقبلا » .

ثم غادر (خرونجار) البهو برفقة محاربيه ، خرج حامى (الشولدنج) ليدرك
ملكته ، ليلحق بفراش (ويالخثيو) .

وانتشر الخبر بأن الملك المجيد قد وضع حارسا فى البهوضد (جرندل) ، وكان
على هذا الحارس أن يحمى أمير (الدانيين) من العمالقة ، كما كان من الواضح أن
زعيم (الجيات) يثق فى قوته العظمى وفى عون الله، فخلع درعه الحديدى والخوذة
من فوق رأسه ، وسلم سيفه المرصع ، خير الأسلحة ، الى ملازمه آمرا إياه أن
يحرس عدة حربه . وقبل أن يصعد إلى فراشه نطق (بيولف) الجياتى بكلمات
حماسية قائلا : « انى لاأعتبر نفسى أقل من (جرندل) عينه فى أعمال الحرب
ولافى بطولة النزال ، ولن أحرمه حياته ، بحد السيف ولو أنى أستطيع ذلك،لأنه
لايملك السلاح الذى يدق به ترسى أو يطعننى به رغم قوته الكبرى فى أعمال

القتال . ولكننا كلانا سنستغنى عن السيف هذه الليلة لوتجرأ على القدوم الى هنا ،
وسنحارب من غير سلاح ، فليقض الله الحكيم بالنصر للجانب الذى يراه
أهلا للنصر ، وليقض السيد العليم بالفوز لمن يريد » .

ذهب بطل المعارك الى مخدعه ، واحتواه فراشه ، وحوله كثير من أساطين
البحر ركنوا الى الراحة على أرائك البهو . ولم يتوقع واحد منهم أن يعود ثانية
إلى وطنه العزيز ، أو عشيرته ، أو المدينة الطيبة التى ترعرع فيها ، لانهم كانوا
يعرفون حق المعرفة أن الموت كان قد اختطف عديدا من (الدانيين) فى هذا
البهو . ولكن الله جعل حظ الانتصار لشعب (الويدر) ، ومنحهم العون
والمساعدة ، وشاء أن يتغلبوا على عدوهم بمهارة شخص واحد وحده . وإنه لمن
الجلى أن الله القدير هو الذى يهيمن على جميع أعمال العباد من الأزل إلى الأبد .

وفى حلوكة الليل دب الهائم فى الظلام . وكان المحاربون المكلفون بحراسة
البهو المزين بالقرون نائمين عدا واحدا منهم ، وكان المعتقد الشائع بينهم أن هذا
العدو الشيطانى لايستطيع أن يجذبهم الى الأعماق المظلمة ضد مشيئة الله،ولكن
الزعيم الحذر كان راقدا مترقبا بالمرصاد ، كان الأرق والغضب يستوليان عليه
انتظارا للمعركة . ثم تسلل (جرندل) من الجبال والمنحدرات المغطاة بالضباب ،
جاء ولعنة الله على رأسه ، وكانت نية هذا المدمر أن يفترس واحدا من الرجال
الراقدين فى البهو الشامخ ، فمشى حتى اقترب من بهو الشراب ، ذلك البهو الغنى
المتلالىء بلوحات الذهب . ولم تكن هذه أول مرة يزور فيها بهو الملك
(خروثجار) ، إلا أنه لم يصادف قبل ذلك أو بعده حظا أسوأ مما صادفه هذه
المرة،فجاء ذلك المخلوق الذى لايعرف السرور قلبه ، جاء يتسلل الى باب القصر .

وعلى الرغم من أنه كان محكما بقضبان الحديد، فإنها لم تقف طويلا أمام قوة ساعديه، فسرعان ما انفتح الباب على مصراعيه بدفعة يديه ، ووقف على باب القصر وهو يغلى بالضغينة والغضب ، وخطا الوحش على البلاط البراق فى القصر ، وبريق مخيف يشع من عينيه كأنه لهيب ، ووقعت عيناه الحانقتان على المحاربين ، على الأبطال النائمين ، على الرفاق البواسل ، فامتلأ قلبه جذلا لأنه وهو الشيطان المفترس كان ينوى أن يفصل قبل شروق الشمس بين أجساد المحاربين وأرواحهم طمعا فى وليمة حافلة ولكن مصيره كان غير ذلك إذ كتب عليه ألا يزدرد شخصا آخر بعد تلك الليلة ، وكان قريب (هوجلاك) له بالمرصاد ، كان يراقبه ليتبين أسلوبه فى الخطف . ولم يلبث الوحش أن أمسك بأحد المحاربين النائمين ، ومزقه بشراهة إربا إربا ، وانتزع لحمه بأسنانه ، وشرب الدم من شرايينه ، ثم التهم قطعة كبيرة من لحمه وسرعان ما ازدرد الرجلين واليدين ثم سائر الجثة . وبعدئذ دنا من البطل ومد يديه ، ووضعهما على المحارب المستريح ، ولكن شجاعته لم تخنه ، وكاد الوحش - متخبطا فى الظلام - أن ينشب أظافره فى البطل وهو على سريره ، ولكن الزعيم سرعان ما أدرك حركته ، ونهض متكئا على مرفقه وقبض على يده فتحقق أبو الشرور والجرائم أنه لم يصادف فى هذا العالم ، ولا فى أى ركن من أركان الأرض قبضة يد فى قوة قبضة هذا البطل ، فخشى على حياته ولكنه لم يجد سبيلا للخلاص ، وكان كل ما يرجوه هو أن يهرب ويختفى مع ذويه الشياطين ، لأنه كان قد عانى ما لم يعانه من قبل طول حياته .

ثم تذكر البطل قريب (هو جلاك) فخره فى المساء ، فنهض وضم الوحش ضمة عنيفة طقطقت لها أصابعه . وحاول العملاق أن يفلت ولكن للبطل ضمه

بين ذراعيه . جاهد العدو أن يهرب إلى مخبئه بالآجام ، بيد أنه أحس بشدة قبضة عدوه . فما كان أسوأ هذه الرحلة التى قام بها الوحش إلى قصر (هيوروت) وكان البهو يرعد بالضجيج ، واستولى الفزع على كل واحد من (الدانيين) سواء منهم الجنود والزعماء . وكان المتصارعان فى نزال عنيف بغية السيطرة على بهو الشراب ، فكان القصر كله يعج بالصخب ، وكان من المعجزات أن يصمد ذلك البهو الفخم لهذا الصراع دون أن يتداعى أنقاضا وأطلالا ، ولكنه كان مدعما من الداخل والخارج بقضبان حديدية صنعها أمهر الصناع . وروى أنه فى مكان المصارعة كانت الأرائك المثبتة فى الأرض والمزدانة بالذهب تقتلع الواحدة بعد الأخرى من مكانها . وإلى ذلك الوقت لم يتصور أحد حتى أبعد (الشولدنج) نظرا أن يمس أحد بأى شكل من الأشكال بهوهما المزدان بقرون الأيائل بضرر ولا أن يهدمه بالمكر والخديعة (ماعدا النار التى كانت ستلتهمه يوما) . وعلت الأصوات مرعبة ومتصلة ، واستولى على الدانيين الشماليين فزع هائل وهم ينصتون إلى ضجيج الصراع ، وسمعوا من خارج الجدران النواح والعويل سمعوا ، صرخة الفزع الصادرة من عدو الله ، من ذلك المخلوق الجهنمى المهزوم المكلوم ، إنها ولولته البشعة . فقد كان سجينا فى قبضة بطل من أقوى العباد ، كان حبيسا فى أشد القبضات ، وكان حامى المحاربين قد قرر ألا يترك العدو حيا بصورة من الصور ، لأنه كان يعتبره نكبة على البشر . والتف حول (بيولف) كثير من رفاقه يلوحون بأسلحتهم العريقة ابتغاء أن يحموا حياة أميرهم وسيدهم المجيد ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، ولما اشتبكوا مع الوحش فى المعركة يضربونه بأسلحتهم لم يكونوا يدرون أن أجود السيوف صنعا لا يستطيع أن يؤثر فى جسمه لأنه كان قد سحر كل حسام حتى لا يمسه بسوء . ولكن موته كان مقدرا . وحينما

حان موعد الموت ، جاءت ساعة الرحيل عن الحياة ، لقى الوحش نهاية تعيسة ، وقدر له أن يقذف به بعيدا عن سيطرة إخوانه الشياطين .

وأصبح ذلك الوحش الذى كان قد جر على الناس ويلات كثيرة ومصائب عظيمة إن عدو الله هذا ، ذلك المدمر الشرير ، أصبح يشعر بأن قوة جسده تنهار وتتلاشى وهو بين ذراعى البطل قريب (هوجلاك) . وكان كل من المتصارعين يشعر بأن عدوه اللدود أبغض الخلق إليه على وجه الأرض مادام يتنسم نسيم الحياة وكان الوحش البشع جريحا جرحا أليما انفرج فوق كتفه ، وتفجرت عروقه ، وتهشمت مفاصله ، وكان المجد فى المعركة (لبيولف) . ولم يكن أمام (جرندل) سوى أن يهرب وهو مجروح جرحا قاتلا ، ويوم مخبأه الكئيب بين المستنقعات ، وقد علم حق العلم أن نهايته قد دنت ، وأن أيامه قد انقضت .

وفى ختام تلك المعركة الدامية كانت آمال الدانيين قد تحققت . فالبطل المقبل من بعيد ، المخلص الباسل ، هو الذى طهر بهو (خرونجار) ، وأنقذه من غضب العدو . واغتبط أمير (الجيات) بعمل تلك الليلة وبجهوده الباسلة ، لأنه كان قد حقق فخره أمام (الدانيين) الشرقيين ، وأنجز وعده ، وأنهى بؤسهم ونكباتهم ، النكبات تلك كانوا قد عانوها من قبل مدة غير قصيرة . ولما علق البطل مخلب الوحش وذراعه وكتفه ، أى علق يمناه كلها تحت السقف العالى وضع الدليل للجميع .

وفى صباح اليوم التالى ، على ما روى لى ، تجمع كثيرون من بواسل المحاربين حول البهو العظيم ، وأتى زعماء القبائل من قريب ومن بعيد ليتأملوا المعجزة

وينظروا إلى ماخلفه الوحش من آثار ، ولم يكن موته باعثا على شفقة أولئك المحاربين وهم يقتفون أثر الدم المسفوك . لقد كان أثر الدماء يوضح كيف غادر الوحش البهو وهو مكدود القلب مطعون طعنة لاشفاء منها ، وقدماه متثاقلتان من شدة الإعياء إلى أن رمى بنفسه فى بحيرة الوحوش . وكانت فقاقيع الدم تطفو على سطح البحيرة ، والعلق يدور فى دوامات الأمواج ، وامتلأت المياه القرمزية بدم حياة الوحش حينما غاص إلى نهايته . ولفظ نفسه الأخير وأسلم روحه الكافرة فى قاع البحيرة مكتئبا ملعونا تتلقفه جهنم .

وعاد الشيوخ من بحيرة الموت على جيادهم بقلوب مفعمة بالسرور ، وشبان القبائل يرافقونهم ، عادوا على ظهور خيلهم بفخار وإباء . وما أكثر ماروى الرواة عن قصة (بيولف) ، وما أعظم مارددوا أنه لم يوجد رجل تحت قبة السماء أشجع منه ، لا بين البحرين ولا فى الشمال ولا فى الجنوب ، كما لم يخلق شخص بين المحاربين ذوى التروس أحق منه بالزعامة ، غير أن مدحهم هذا لم ينقص من قدر ولائهم لسيدهم (خرونجار) الكريم لأنه كان ملكا خيرا حقا .

وأحيانا كان الأبطال يتركون جيادهم الدكناء تتسابق فى مباراة حرة عندما يرون المرج صالحا للعدو ، فكانوا يدعونها تجرى فى سباق للسرعة ، وأحيانا كان الشاعر منهم ينشىء الأغانى الحماسية بمهارة عن (بيولف) ومغامراته ورحلاته ومعاركه كان ينشئها أولئك الذين اشتهروا بتذكر الأغانى القديمة وإتقان العزف ، والذين كانت ملاحم القبائل العتيقة تحيا فى أذهانهم ، ويعرفون كيف ينسجونها نسجا محكما ، ويرددون القصة المعروفة للجميع ، ولكن كل واحد بأسلوبه الخاص ،

فتلا أحدهم كل الأعمال التى سمعها عن البطل (سيجموند) بن (ولز) ومغامراته العجيبة البارعة ، قص سيرة كفاحه ورحلاته ، وروى المعارك التى لم يعرفها بنو البشر ، والخصومات التى خاضها بمعونة (فيتيلا) .

كان (فيتيلا) يعلم كل ذلك لأن عمه (سيجموند) كان يقص عليه قصة مغامراته ، وقد كانا متلازمين يقفان جنبا إلى جنب فى المعامع ، وما أكثر ما قتلا مما بسيفيهما من نسل العمالقة . وقد لقى (سيجموند) العظيم بعد موته شهرة ليست بالقليلة ، اشتهر زعيم الأشراف هذا بقتله حارس الكنز بيده المجردة ، دخل الكهف المخيف وحده ولم يكن (فيتيلا) معه ، ووجده قد أنجز العمل العظيم الجرىء ، والذى حدث أنه ضرب التنين الشهير بسيفه ، فاخترقه والتصق بجدار الكهف ، ومات التنين ، ذلك التنين الذى سلب الكنز واحتكره لنفسه . فشحن ابن (ولز) السفينة بالكنز ، ووضع الجواهر البراقة فى جوفها ، أما التنين فقد تحلل بلهيبه . وكان ذلك البطل يتغنى بصفاته أكثر من غيره بين الأمم فقد كان حاميا المحاربين بسبب شهرته فى أعمال البسالة ، لذلك تمتع بكل تمجيد وشرف بعد أن ذبلت شهرة (هيريمود) واضمحلت قوته وسلطانه لأنه حينما التجأ إلى قبيلة الجوت تآمرت عليه ، وسلمته إلى أيدى العدو ، وأعدم فى الحال . وما أشد ما قاسى من آلام مبرحة مدة أطول مما يحتمل ، فكان على شعبه عالة ، وعلى رفاقه البواسل هما ينوء بحمله الأبطال . أما قبل حدوث هذا فكان الكثير من الحكماء يأسفون لسلوك هذا المالك المتغطرس ، ومنهم من كان يعتمد عليه فى مواجهة النكبات ، ومنهم من كان يأمل أن يسمو ذلك الأمير بشرف بيته ، وأن يحكم شعبه حكما مصحوبا بالرخاء ، ويحمى قلعة المدينة وكنوز

وطن (الشولدنج) . ولكن بقدر مالحق الشر (بهيريمود) ، ودخلت الخطيئة قلبه ازدهر (بيوولف) قريب (هوجلاك) ، وتمتع بإعزاز أكبر بين رفاقه بين الناس أجمعين .

ومن حين لآخر كان المتسابقون يطلقون جيادهم فى الطرقات المتربة ، وعندما تقدم الصباح فى سيره كان كثير من المحاربين قد أم البهو الشامخ للاطلاع على المعجزة ، وكذلك فعل الملك نفسه ، فخرج من مخدعه . ظهر حامى الكنوز ظهورا مهيبا على رأس حاشية عظيمة . رافق ذلك البارز بشهرته زوجة الملكة، مع وصيفاتها العذارى ، وعبر معهن بهو الشراب .

ثم تكلم (خروثجار) بعد أن سار حتى وقف بعتبة الباب ونظر إلى أعلى فرأى السقف مرونقا بالذهب، كما شاهد ذراع (جرندل) معلقة به ، قال :

« فلنحمد الله قبل كل شىء على مانراه ! لقد عانيت الكثير من عداوة (جرندل) لى ، ولكن الله المجيد قدير على أن يتبع المعجزة بمعجزة ، ومنذ أمد غير بعيد يئست أن أرى علاجا لهمومى وخاصة أن هذا القصر العظيم كان دائما مرويا بالدماء ، وكان هذا مصدر اكتئاب لجميع حاشيتى ونصحائى ، لأنهم فقدوا الأمل فى الدفاع عن الحصن ضد المخلوقات المعادية ، ضد الوحوش الجهنمية وشياطين الشر .

ولكن شاءت رحمة الله الآن أن يقبل إلينا بطل أنجز عملا باهرا لم يستطع ذكاؤنا أو حكمتنا أو بسالتنا إنجازه من قبل . حقا إن المرأة التى حملته كائنة من

كانت تستطيع أن تقول ، إن كانت لاتزال على قيد الحياة ، إن الله سيدها قد
أسبغ عليها نعمه عندما وضعت مثل هذا الابن العظيم .

والآن يا (بيولف) أرجو ياسيد الشرفاء أن تعتبر نفسك ابنا لى ، لذلك
فكن عصبة لى من الآن فصاعدا ، ومادمت مستويا على عرش الملك فلن تحتاج
إلى أى شىء فى هذه الدنيا ، فإنى كثيرا ماوهبت المنح لمن هم أقل جدارة منك .
وما أكثر ما أعطيت من كنوزى لمن هم أضعف منك فى المعارك ، وأنت قد
أنجزت من الأعمال ما يجعل صيتك يذيع أبد الآبدين . فجزاك الله النصر
والتوفيق كما فعل حتى الآن » .

ثم تكلم (بيولف) بن (أدجثيو) مجيبا :

« عندما اختبرنا أنفسنا بكل إقدام وجرأة أمام قوة العدو كان من فضل
الله علينا أننا انتصرنا على قوة لانعلم مداها ، وكم كنت أود لو عرضت أمامكم جثة
ذلك المخلوق الغريب بكامل أجزائها . فقد كان همى الأول أن أثبته فى فراش
موته بضمة ذراعى التى لايمكن أن يفلت منها أحد أبدا ، فيستقر فى ذلك المكان
حتى تفارقه الحياة فى آلام ومحن ، ولكنى لم أستطع أن أحول بينه وبين الهرب
لأن الله لم يشأ غير ذلك ، فلم أتمكن أن أمنع بقوتى ذلك العدو الفاتك من أن
يفلت ، إذ كانت قوته فوق التصور ، ومع ذلك ترك مخلبه وذراعه وكتفه عند
محاولته الخلاص ، وبهذا أنقذ حياته وإن كان قد دل على مكانه عن طريق
هروبه ، غير أن الهرب لم يجد ذلك المخلوق التعس . لقد قضى على ذلك الشرير
ألا يعيش طويلا بعد ذلك ، فقد كان مثقلا بالخطايا وبجرح عميق تقيده

آلامه بقيود لاخلاص منها . . فليس أمام ذلك الآثم التعس سوى أن ينتظر
قضاء الله القدير فى يوم الدين » .

وهنا التزم (أونفرث) بن (اد جلاف) الصمت ، ولم يفاخر كبرا ببسالته
فى الحرب بعد أن رأى الأبطال ما يتمثل فى قوة البطل فى أثر ذراع العدو معلقة
فى السقف العالى ، وبعد أن رأوا مخالبه يتدلى منه . وكانت أنامل ذلك الشيطان
كالحديد صلابة ، كانت أظافر الوحش الكافر حادة كالمسامير . وتأكد كل
مشاهد أن حسام الحروب مهما بلغت صلابته لم يكن ليستطيع أن يخترق جسد
الشيطان او أن يبتر يمينه فى المعارك الدامية .

ثم صدر الأمر بأن تسرع الأيدى البشرية فى تزيين قصر (هيوروت) ،
فقام عدد عديد من النساء والرجال بتعليق الزخارف على بهو الشراب ، وكانت
الطنافس المزركشة تتلألأ على الجدران . كما كانت هناك أشياء كثيرة مثيرة
لإعجاب من كان قوى الملاحظة . ومع أن هذا البهو المنمق كان مدعما بقضبان من
الحديد فإن كثيرا منه قد تخرب أثناء المعركة ، إذ نزعت الأبواب من مفاصلها ،
ولم ينج من الخراب ، عندما هم المجرم بالهروب خوفا على حياته ، سوى السقف .
وليس من الممكن الإفلات من الموت مهما حاول المحاولون ، لأن كل حى على
وجه الارض لابد أن يصل الى النهاية المقدرة له ، كل امرىء فى الدنيا عليه لابد
أن يصل الى المكان الذى لامفر من الوصول إليه حيث يرقد جسده فى فراش
المنية الضيق ، ينام فيه بعد وليمة الحياة .

وفى الساعة المناسبة دخل ابن (هيالفدينى) البهو ، دخل الملك ليترأس مائدة
الوليمة ولم أسمع قط عن رفقة أشرف ولا أبهى من تلك التى التفت حول

مانح الكنوز . وجلس الأمجاد على الأرائك ، وابتهجوا أشد الابتهاج ، واحتسوا كثيرا من كئوس شراب الشهد المختمر حسبما قضت به المناسبة . وجلس القريبان الباسلان (خرونجار) و (خرونولف) فى البهو العظيم جنبا إلى جنب ، وكان قصر (هيوروت) عامرا بالأصدقاء المخلصين فى ذلك اليوم . ولم يتصور (الشولدنج) أبداً أن الخيانة سوف تفرق بينهم (١٤) ومنح ابن (هيالفدينى) (بيولف) لواء مزركشا وخوذة وزردا وحساما ثمينا ، وشهد الناس قاطبة ذلك السيف المرصع بالأحجار الثمينة وهو يمنح للبطل العظيم ، ثم شرب (بيولف) واقفا نخب المناسبة وكانت الهدايا ثمينة إلى حد أنه لم يشعر بالخجل منها أمام رفاقه المحاربين . ويندر أن تمنح أربعة كنوز ذهبية بمثل هذه النية الخالصة ، فقد أحاط بالخوذة جزء بارز عليه قطع من سلوك حديدية لحماية وجه لابسها ، فأقوى السيوف فى حومة الوغى لا يستطيع أن يجرح وجه البطل فى صراعه مع الأعداء . وأمر حامى الأبطال زيادة على ذلك ، بأن تعد ثمانية جياد ملجمة بالذهب وكان على أحدها سرج محلى بمهارة ومتلألىء بالجواهر ، كان ذلك سرج العاهل العظيم نفسه السرج الذى كان يجلس عليه ابن (هيالفدينى) نفسه عند المبـــارزة بالسيف .

وكانت بسالة (خرونجار) تدفعه دائما إلى الأمام فى المعارك ، لأنه كان مشهورا بالشجاعة خاصة فى الوقت الذى يقع فيه رفاقه صرعى . ثم منح أمير (الإنجوين) (بيولف) الخواتم النفيسة والجياد والأسلحة ، وأوصاه بحسن استعمالها . وكذلك منح المليك العظيم صاحب مجمع الكنوز الجياد والتحف النفيسة نظير قسوة المبارزة حتى لايلومه أحد من أولئك الذين يصدقون القول عنه .

ثم وهب ملك الأبطال الجواهر النفيسة لكل من رافق (بيولف) فى إبحاره ، ووقف بجوار مائدة الشراب وأهدى آثارا أصيلة لكل منهم ، وأمر بأن يمنح الذهب هبة على روح البطل الذى كان قد لقى حتفه على يدى (جرندل) الشرير . ولا شك أن (جرندل) كان من الممكن أن يقضى على أكثر من واحد لولا أن رحمة الله الحكيم وبسالة البطل حالتا دون ذلك ، فان الرب كان بحكمة يصرف البشرية فى ذلك الوقت كما يهيمن عليها الآن ، وليس من شأن الحياة أن تعم الحكمة دائما والحذق المستنير . فمن يعش طويلا فى هذه الدنيا لابد أن يجرب الكثير من الخير ومن الشر فى هذه الأرض الشقية .

ارتفعت الأصوات بالغناء والابتهاج بين يدى زعيم معارك (هيالفدينى) وعلا صوت القيثارة . وبدأ شاعر(خرونجار) ينشد قصيدة أثناء الطرب والسرور ، قص فيها وهو يقف بجوار مائدة الشراب قصة الفزع الذى استولى على أولاد (فين) (١٦) وروى كيف أن (خناف) (الشولدنج) كان مقدرا له أن يقع ضحية لسيوف أولاد (فين) حينما فاجأت الكارثة (الدانيين) ، ولكن (هلدبورخ) (أخت خناف وزوج فين) فقدت الثقة فى قبيلة (الجوت) لأنها فقدت ، من غير ذنب جنته ، أحب الناس إليها : ابنها وأخاها اللذين لقيا حتفهما بطعن الرماح ، و بقيت هى حزينة ثكلى . ولا شك أن بنت (هوك) هذه لم تبك اعتباطا ، لأنه مع انبلاج الصبح رأت جليا مذبحة أعز الناس عليها ، رأت جثث أقاربها الذين كان جل سعادتها فى هذه الدنيا يرجع إليهم . وقضت المعركة على جميع أولاد (فين) ماعدا القليل منهم ، ولم يكن من الممكن أن يقتل (هنجست) فريق (خناف) ولا أن تطرد البقية الباقية من (الدانيين) خارج القلعة ، فعرضت عليهم الشروط الآتية ، وهى أن (الفريزيين) يفسحون

لهم المكان فى قصر آخر به عرش خاص يقتسمه (الدانيون) و (الجوت) كما أن (فين) بن (فولسكولدا) تعهد بألا يحرم (الدانيين) عند توزيعه الأجور والغنائم يوميا ، كما تعهد بأن يمنح جنود (هنجست) حلى الأذرع والتحف المصنوعة من الذهب الأملس بقدر مايمنح (الفريزيين) أنفسهم فى بهو الولائم . وأبرموا بذلك معاهدة صداقة وثيقة ، وأقسم (فين) بدون قيد ولا شرط أمام (هنجست) أنه سيعامل البقية الباقية من جيش (الدانيين) معاملة شريفة حسب قرارات مجلس شوراه ، وتعاهدوا على ألا يفسخ أحدهم العقد لا بالقول ولا بالعمل ، وألا يعير لئيم (الدانيين) بفقد رئيسهم ، وعلى ضرورة ولائهم لمن قضى على زعيمهم المحبوب . كما اتفقوا على أنه إذا أشعل أحد (الفريزيين) من جديد نار الثأر بالتنديد يقطع رأسه بالسيف .

ثم أعد محرق الجثث ووضع فوقه سبائك ذهبية من كنز الملك وجهزت جثة خير المحاربين عند (الشولدنج) آباء الجيوش ، وأرقدت فوق كوم الحطب وكان يبدو عليه جليا أيضا زرد ملطخ بالدماء وشارة ذهبية لخنزير برى ، ذلك الخنزير البرى الرهيب الذى يوضع فوق الخوذات وكثير من جثث الأبطال الذين ماتوا متأثرين بجروحهم . وكم من بطل وقع صريعا فى تلك المذبحة ! . ثم أمرت (هلدبورخ) أن توضع جثة ابنها إلى جوار جثة (خناف) فى المحرق للتهب ، وأن يرقد بجانب خاله فوق المحرق. ثم علا عويلها ونواحها ، وارتفع ضجيج الحزن ، ارتفعت ألسنة اللهب مزمجرة إلى السموات ، وتحللت الرءوس ، وانبثق الدم من فتحات الجروح ، وتفتتت الجثث فى النار . وابتلع اللهيب من كان قد أرداهم النزال ، تلك القوة الجهنمية الجشعة ازدردت أمجاد الشعبين ، حتى ولى مجدها .

ثم انصرف المحاربون وعادوا إلى ديارهم محرومين من رفاقهم ، عادوا ليروا أرض (الفريزيين) من جديد : ديارها ومدنها الشاهقة ، وعاش (هنجست) مع (فين) طوال ذلك الشتاء الملوث بالمجازر ، ولكنه لم يكن سعيدا ، إذ تذكر وطنه وهو لا يستطيع أن يبحر إليه فى سفينة ذات مقدم مقوس . ان الخضم كان يرغى ويزبد بالعواصف ، والمياه تصارع الرياح ، ثم قلد الشتاء أمواج البحر بأغلال من الثلج حتى أقبل ربيع جديد إلى ديار البشر على نحو مايفعل كل عام ، لأن الجو يخضع دائما لسنة المواسم . انقشع الشتاء ، وأخذت الأرض زينتها ، وكان الضيف المنفى يشعر بحنين شديد للترحال ، وكان الانتقام همه الأول ، فقد كان ميله إليه أشد من مجرد ميله إلى الإبحار ، فكان كل همه أن يدبر المكيدة حتى يلقى (الفريزيين) فى معركة دامية . لذلك لم يرفض هدية (هونلافنج) لما قدم له بتار السيوف ، بريق المعارك ، ووضعه بين يديه وكانت حدة شباته مشهورة بين (الجوت) . وحينما عاد البطلان (جوثلاف) (واوسلاف) من رحلتهما شاكيين من كمين وقعا فيه ، ولائمين (هنجست) على ذلك ، لم يستطع أن يضبط ثائرة الغضب فى قلبه . ومن هنا قدر (لفين) أن يعانى فى بيته نفسه موتا قاسيا بسيف عدوه ، فلطخ البهو بالحمرة ، حمرة دم عدوين لدودين ، وهكذا قتل الملك (فين) وسط حاشيته ، وأسرت زوجته الملكة ، وحمل محاربو (الشولدنج) إلى سفنهم كل ماوصلت إليه أيديهم مما كان يملكه فين ، استولوا على الجواهر والقلائد وعلى تلك الأحجار النفيسة التى كانت تصنع بإتقان لملك الإقليم . وحينما عادوا إلى وطن (الدانيين) اصطحبوا السيدة الجليلة وأعادوها إلى شعبها .

انتهى إنشاد القصيدة ثم صعد المرح من جديد ، وارتفعت أصوات الابتهاج

حينما كان الأبطال يملأون الكؤوس من أباريق الشراب الكريمة ، ثم دخلت (ويالخثيو) مرتدية تاجاً ذهبياً ودنت من الاثنين الذائعي الصيت : العم الفخور وقريبه ، وكان السلام يسود علاقتهما ، والثقة لاتزال تحيـــا بينهما ، وجلس (أونفرث) للذبح ، جلس بين يدى سيد (الشولدنج) ، ووثق الجميع بشجاعته وفروسيته غير أنه كان ذات مرة قد أظهر الخيانة لأقاربه فى إحدى المعارك . ثم تكلمت سيدة (الشولدنج) قائلة : خذ هذا الكأس أيها الملك سيد الكنوز ، فلتكن السعادة نصيبك ياحامى المحاربين خاطب (الجيات) بما ينبغى أن تخاطب به الضيوف الكرام ، وكن كريماً معهم ، وامنحهم الهدايا من كنزك الذى اقتنيته من جميع أطراف الأرض . وقد قيل لى إنك سوف تعتبر هذا البطل المحارب ابناً لك . والآن وقد طهر بهو (هيوروت) العظيم فامنح ما تستطيع من العطايا ، وحينما تحين منيتك يكفى أن تورث أبناءك حمـــاية شعبك وكنزك . ياحامى (الشولدنج) إنى لأعرف (خروثلف) معرفة كافية ، وأعلم أنه إذا سبقته فى الحياة فسيرعى أبناءك رعاية كريمة ، وإنى لواثقة أنه سيكافىء أبناءنا بحسن المعاملة حينما يتذكر جميع العطف الذى غمرناه به فى سبيل خيره وإسعاده وقتما كان شاباً .

و بعد ذلك اتجهت إلى الأريكة التى كان يجلس عليها ابناها (خريثريتش) و (خروثموند) ، وكانا جالسين فى جمهرة من الشباب أبناء رؤساء القبائل، و بينهما كان يجلس (بيولف) بطل (الجيات) .

قدمت إليه الكأس ودعته دعوة كريمة أن يحتسيها ، وأمرت بأن يمنح

هدية من الذهب . وكانت هذه الهدية حليتى ذراع وأختاماً وزرداً وأبهى قلادة ذهبية فى العالم . ويروى أنه لم يوجد فى العالم كله ولا فى أى كنز من كنوز الناس أثمن من تلك القلادة منذ استولى (هما) (١٧) على قلادة (البروسنج) ، وعاد بها إلى قلعته الحصينة ، ثم طارده (يورمنريتش) (١٨) وقتله فى الطريق . وهذه القلادة كان (هوجلاك) الجياتى من بيت (سويرتنج) قد أخذها معه فى حملته الأخيرة حينما اضطر أن يدافع عن كنزه وغنائمه إلى آخر رمق من حياته . لقد لقى حتفه لأنه تهور وبحث عن المتاعب عندما أراد أن يبدأ حرباً انتقامية مع (الفريزيين) . وبعد أن حمل الأمير العظيم كنزه وجواهره إلى ما وراء البحار مات والترس فى يده . فاستولى الفرنجة على جثة (هوجلاك) وعدة حربه وقلادته الذهبية . ولما انتهت المجزرة هم مقاتلون وضيعون أن يسلبوا نفائس الصرعى من (الجيات) ، وقد كانت جثثهم تغطى ميدان المعركة .

فضج البهو بالهتاف والتصفيق ، ثم تكلمت (ويالخثيو) أمام الجميع قائلة :

« تسلم هذه القلادة يا (بيولف) العزيز ، خذها لتجلب لك الحظ أيها البطل الشاب ، ارتد هذا الزرد ، وانتعش ، وكن شهيراً ببسالتك . إن هذه العطايا ثمينة وعريقة . ولكن كن راعياً صالحاً لأبنائى ، ولن يفوتنى أن أكافئك على ذلك . لقد أنجزت أعمالا تجعل الناس فى كل مكان تتغنى بمديحك أبد الآبدين، وسيذيع صيتك و يصل إلى كل أطراف الأرض ، إلى جميع الجدران التى تلطمها الريح، وتكون البحار مهداً لها . فليكن نصيبك الرخاء طول حياتك ، وإنى سأبتهج لتوفيقك، ولكن كن صديقاً راعياً لابنى يامن تتمتع بهذا القدر من السعادة الآن ، وفى هذا المكان كل بطل وفى للآخر ، قلبه خير ، وولاؤه خالص للملك ، ورؤساء

القبائل أهل الثقة ، والشعوب متحدة ومستعدة دائماً ، والمحاربون منتشون ، فأطع ما أطلبه منك » .

ثم عادت إلى مجلسها ، واستؤنف اللهو والقصف ، وانتشى المحاربون بالمدام ، ولم يكونوا فطنين للمصير الذي ينتظرهم بعد أن يسدل الليل ستاره ويذهب (خروثجار) العظيم إلى مخدعه . واحتل الأبطال ، كما فعلوا في الماضي ، البهو الفخم ، فصفت الأرائك بجوار الجدران ، وبسطت أغطية الفراش ووسائده على الأرض ، ورقد أحد القاصفين وكان مقدراً له أن يموت تلك الليلة ، ووضع الفرسان التروس البراقة عند رءوسهم ، تلك التروس التي تحميهم في المعارك ، ووراء كل بطل استقرت على الأرائك الخوذة الطويلة والزرد والحربة الكبيرة وكان من دأبهم أن يستعدوا للنزال في كل وقت سواء أكانوا في ديارهم أم كانوا في حملات خارجية ، كانوا على أتم استعداد في كل موسم لو دعت الضرورة إلى ذلك ، أو احتاج إليهم زعيمهم العزيز . فما كان أعرق هؤلاء الأبطال ! .

فناموا ، ولكن واحداً منهم دفع ثمن نومه غالياً كما حدث من قبل وقتما كان (جرندل) يسيطر على البهو الذهبي ويرتكب فيه جرائمه حتى لقي مصرعه جزاء لذنوبه . إذ ظهر تلك الليلة أن هناك مطالباً بالدم ليثأر لذلك المجرم العدو الذي صرع في النضال ، فقد كانت أنثى من الوحش هي أم (جرندل) تندب ابنها وهي في مخبئها المائي حيث كانت تقوم وحدها في أعماق البحر الشديدة البرودة . وكان السبب في ذلك أن قابيل قد قتل أخاه في قديم الزمان ، قتل ابن أبيه ، فنفي من بين الناس موسوماً بسمة الاغتيال ، هرب من المجتمع وعاش

في التيه والبيداء ، ثم تفرع عن قابيل كائنات لعينة كثيرة منها (جرندل) ذلك المنبوذ الكريه الذي وجد في (هيوروت) حارساً رقيباً متأهباً لقتاله ، فقبض عليه الوحش إلا أنه تبين بعد قليل أن الله تعالى وهب الرجل القوة والجلد ، وتغلب على المارد الذي لقي حتفه ذليلاً مغلوباً على أمره وهو يحاول النجاة إلى مستنقعه حيث كان يقيم عدواً للبشر أجمعين . غير أن أمه الآن ، وهي نهمة ضارية ، شرعت تقوم برحلتها الآثمة لتثأر لابنها القتيل .

فجاءت إلى (هيوروت) حيث كان البهو ممتلئاً (بالدانيين) ذوي الأختام وهم نائمون ، فسرعان ما انتشر الرعب فجأة لما ظهرت العدوة أم (جرندل) ، بيد أن الرعب الذي أثارته كان أقل مما أثاره ابنها من الفزع بنسبة قوة المرأة إلى قوة الرجل عندما تهشم بادرة سيفه الفتاك المرصع المصقول شارة الخنزير البري فوق خوذات العدو . وسرعان ما امتشقوا سيوفهم من أرائك البهو ، وحملوا تروسهم غير أنهم نسوا خوذاتهم ولم يفطنوا لزرودهم لشدة فزعهم لما رأوا الوحش . ولم تكن تقصد البقاء ، وحينما اتضح لها انكشاف أمرها بدأت تدور متلمسة طريق الهرب إنقاذاً لحياتها . فخطفت أحد الأبطال في مخالبها ، ثم مضت متجهة صوب المستنقعات . وكان ذلك الرجل الذي اغتالته هو أحب ملازمي (خروثجار) إلى نفسه ، كان مقاتلاً جباراً ذوباً مشهوراً بين البحرين .

ولم يكن (بيولف) حاضراً فبعد الوليمة خصص له ، وهو بطل (الجيات) الشهير ، مخدع آخر . فارتفع الصياح في (هيوروت) لأن أم (جرندل) قد اختطفت مخلب ابنها من السقف ، وهو تلك الغنيمة الدامية ، فعاد الاكتئاب إلى البهو ، وكانت الصفقة خسراناً للطرفين ، دفع ثمنها من أرواح الأعزاء . وكان الزعيم

الحكيم الملك الأشيب يشعر بالألم يحز فى قلبه لما عرف أن فارسه أصبح فى عداد الموتى ، لما علم أن أعز تابعيه كان قد اغتيل . وسرعان ما استدعى (بيولف) من مخدعه ، استدعى البطل الظافر ، وعند الفجر الخافت الضوء نهض المحارب الكريم الذائع الصيت بين الناس، نهض بين رفاقه ، وذهب إلى حيث كان الملك الحكيم ينتظر امل الله القدير على كل شيء يبدل أخبار المأساة بما فيه عزاء وسلوى ، فعبر البطل الباسل أرض البهو على رأس قلة من أصدقائه ، وضج البهو بقدومه ، وقال مخاطباً رئيس (الإنجوين) يسأله عما إذا كان قد حدث فى الليل ما يعكر صفوه ، فرد عليه (خرونجار) ، خوذة (الشولدنج) قائلا :

« لا تسألني عن راحة خاطرى فإن الاكتئاب قد حل ثانية بشعب (الدانيين) . (فآشير) قد مات ، قد مات (آشير) أخو (أورمنلاف) ، مات (آشير) مستشارى ونصيحى وساعدى الأيمن حينما كنا ندافع عن حياتنا جنباً إلى جنب فى المعارك المتشابكة والخوذات المزدانة بشارات الخنزير البرى نصل من وقع السيوف . كان (آشير) يتحلى بجميع ما يجب أن يكون عليه الرجل ، كان فارساً خبيراً عركته الحوادث . اغتاله شيطان ضال فى (هيوروت)، ثم قفل راجعاً إلى مأواه الذى لا يعرفه أحد حاملا الجثة يتفرس فيها مزهواً بانتصاره . ولقد انتقم ذلك الوحش لتلك المعركة الدامية التى أبدت فيها (جرندل) بقبضتك القاسية أمس ، لأنه طالما افترس شعبى ودمره . إنه أضاع حياته فى المعركة ، ولكن ظهر الآن مدمر جديد ليطالب بدم نسله ، ولا شك أن الثأر قد حدث بصورة بشعة كما يبدو لكل رجل يبكى (آشر) زعيمه الكريم بقلب ممزق وتلك الكف التى ما حرمت سائلا عطاء قط أصبحت الآن هامدة ساكنة .

لقد سمعت من بعض رعاياى فى الريف ومن بعض ناصحى فى البهو أنهم قد رأوا اثنين من شياطين المستنقعات الضخام يهيمان على وجهيهما ، وأن أحدهما بقدر ما استطاعوا أن يروا فى صورة أنثى ، أما اللعين الآخر الذى كان يطلق عليه الريفيون اسم (جرندل) فكان يسير فى البيداء والتيه فى صورة بشر وإن كان أضخم من أى إنسان على وجه الأرض ، ولا يعرفون شيئاً عن أبيه ولا عما إذا كانت كائنات غريبة مثله قد ولدت قبله . وأمثال هذا الوحش تعيش فى أرض مجهولة على منحدرات تتردد عليها الذئاب ، وعلى تلال تلفحها الرياح ، وفى ممرات ضيقة خطرة بين المستنقعات حيث تثب جداول الجبال وتنتهى بضباب ، ثم تضل تحت الأرض . وأن تلك البحيرة التى تعيش فيها لا تبعد عن هذا المكان بأكثر من بعض الأميال ، وتشرف عليها الآجام المغطاة بالجليد ، وجذور أشجارها تكدر المياه .

ويشاهد كل ليلة منظر عجيب مخيف ، تبدو نار فوق سطح المياه . ولا يدرى أحدكم تبلغ البحيرة فى العمق . والأيل ذو القرون الكبيرة إذا طاردته كلاب الصيد فى الغابات ووصل إلى حافة البحيرة يود لو لقى حتفه عليها دون أن يغوص فيها لينجو منها بحياته . وتصعد الأمواج المزبدة فى شكل أسود إلى السحاب حينما تثير الرياح عواصف سريعة إلى أن تبكى السموات بالأمطار فى جو يغشاه الضباب .

والآن نتجه إليك مرة أخرى طلباً للمعونة والغوث ، وإنك لا تعرف حتى الآن معالم المكان ولا المخبأ المريع الذى يقيم فيه ذلك الكائن المدنس بالخطايا

فاذهب إليه إن تجاسرت ، وإن عـدت فسأعوضك ، كما فعلت من قبل ، بالكنوز الأصيلة وبالذهب المبروم» .

فأجاب (بيولف) بن (ادجثيو) قائلا : «لا تكتئب أيها الحكيم ، فيجدر بكل واحد منا أن يثأر لصديقه بدلا من أن يندبه . فعلى كل منا أن يتوقع نهاية حياته فى العالم ، وليفز بالمجد قبل فنائه ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وهذا خير تذكار للمحارب الفانى . انهض إذا ياحامى المملكة ، وتعال معى فى الحال نتتبع آثار قدمى قريبة (جرندل) ، إنى لأعدك بأنها لن تفر منى إلى ملجأ ما ، لا فى أعماق الأرض ، ولا فى غابة جبلية ، ولا فى قاع الخضم مهما بذلت من جهد . والآن اصبر على آلامك ، فهذا ما أنتظره منك» .

ثم وثب المحارب القديم واقفاً على قدميه ، وحمد الله الرب القدير على ماقاله ذلك الرجل ، وألجم جوادا (لخروثجار) ، ألجم حصانا ذا عارف مجدول ، وتقدم الأمير الحكيم بوقار وتؤدة على رأس كتيبة من حاملى التروس . وكانت آثار الأقدام جلية فى طرقات الغابة ووطؤها واضحاً فى الأرض . وسارت أنثى الوحش فوق التلال المظلمة حاملة خير الفرسان جثة هامدة ، خير الأبطال الذين كانوا يحرسون ديار (خروثجار) . ثم مشى أبناء الأشراف فوق التـلال الشديدة الانحدار وجلاميد الصخر تملأ طرقاتها الضيقة ، والمهاوى العميقة فى كل جانب منها مأوى لوحوش مريعة . تقدم الملك على رأس قلة من أمهر رجاله حتى يستطلع المكان . وفجأة رأى بقعة بها أشجار جبلية تشرف على صخرة رمادية اللون ، وتحتها قطعة من الماء كدرة بالدماء فائرة . وحينما رأوا رأس (آشير) ملقى على صخرة تشرف على الماء كان هذا منظراً بالغ الألم (للدانيين) كما كان مصدر

اكتئاب لأبطال (الشولدنج) وحرقة فؤاد لكل من الأشراف . وكانت المياه تفور بالدم والعلق الحار والناس تحدق فيها . وقتل أحـد زعماء (الجيات) وحشاً كان يسبح فى الماء أصابه بسهم من قوسه ، فانغرس فى أمعائه وعندما حانت منيته أخذ يسبح فى الماء المضطرب بحركات آخذة فى البطء شيئاً فشيئاً ، وسرعان ما توالت عليه سنان رماح صيد الخنزير البرى ، فوجد نفسه مغلوباً على أمره ، فسحبه الرجال إلى صخرة تشرف على الماء فكان أعجوبة من أعاجيبه ، وحدق المحاربون فى ذلك المخلوق العجيب .

فارتدى (بيولف) دروع أبطال المعركة ولم يقلق برهة واحدة على حياته ، وكان زرده فى المعارك منسوجا باليد فضفاضاً ومحلى بحلى دقيقة . كان ذلك الزرد سيختبر فى ماء البحيرة حيث يكون حامياً لجسد البطل حتى لاتهشم صدره ضمة بين ذراعى العدو ، وحتى تكون حياته بمأمن من قبضة انتقامه . وكانت الخوذة البراقة تحمى رأسه ، تلك الخوذة التى سوف تضطرب بها أعماق المياه كانت مدعمة بسيور حديدية صنعها الحداد من قديم الزمان ، لقد أتقن حقاً صنعها ، وزينها بشارات الخنزير البرى إلى حد أنه لم يقو حسام ولا أى سلاح على اختراقها . ولم يكن ذلك المهند المسمى (خرونتنج) والذى أعاره (أونفرث) مذيع (خروثجار) (لبيولف) — لم يكن أقل وسائله فى القتال ، إذ كان من أهم ما ورثه عن القدماء . وكان سلاحه من حديد ، كما كانت نقوشه تحكى أفنان الشجر وقد صقلته دماء المعارك . ولم يخن حامله فى الحروب قط ، ولم يخفق فى القيام بالواجب فى يد القابض عليه ، أو فى يد أى شخص يقدم على المغامرات الخطرة أو يلتقى مع العدو فى حومة الوغى . ولم تكن هذه أول مرة قام فيها بعمل منطو على الإقدام . وحينما أعار (أونفرث) القوى (ادجلاف)

سيفه إلى محارب أبسل منه كان قد نسى ما قاله وهو ثمل . ولأنه خشى أن يخاطر بحياته فى إنجاز أعمال باسلة تحت الأمواج المضطربة شعر بالذلة وفقد شهرته بوصفه بطلا بين الأبطال ، ولكن هذا كان يختلف عن حالة البطل الآخر الذى كان يتأهب للقتال .

ثم تكلم (بيولف) بن (ادجثيو) قائلا :

« يابن (هيالفدين) العظيم ، أيها الأمير الحكيم ، أيها الحامى ! تذكر ما تبادلناه من كلام منذ قليل ، تذكر وأنا الآن ذاهب لإنجاز ما سأنجزه : أننى إن ضحيت بحياتى لقضاء مأربك فستكون بمنزلة الأب لى . وإذا قضيت فى المعركة فكن صديقا وحاميا لأتباعى ، كن سندا لرفاقى . كذلك الكنوز التى منحتمونيها يا (خرونجار) العزيز أرسلها إلى (هوجلاك) ، وحينما يرى زعيم (الجيات) ابن (خريثل) الكنوز يعلم أننى قد وجدت فيك مانحا كريما الذهب . ويعرف كذلك أننى قد كوفئت فى حياتى بما كسبته لى بسالتى . أما (أونفرث) فستعيد إليه تراثه العريق ، تعيد إلى المحارب المشهور سلاحه الفاخر ، سيفه فى المعارك . والآن إما ان أحصل على المجد بالسيف (خرونتنج) وإما أن أقضى نحبى » .

وبعد أن انتهى من كلامه مضى زعيم (الجيات) بإقدام وبسالة ولم ينتظر الرد على كلامه . غاص البطل فى الماء الثائر . ورغم قوته الهائلة قضى ساعات كثيرة قبل أن يصل إلى القاع ، وسرعان ما شعر المخلوق الضارى الجشع الذى كان قد سيطر على مملكة المياه نصف قرن كامل ، شعر بأن هناك بشرا يقترب منه . فقبضت على المحارب بمخالبها المرعبة إلا أنها لم تستطع أن تنال من جسمه

لأن زرده كان متينا ، فلم تتمكن أن تنشب مخالبها الكريهة فى درعه ذى الحلقات المحبوكة حبكا محكما ، ولكن ذئبة البحار جذبت الأمير المزدان بالأختام إلى مخبئها العميق ، فلم تسعفه القوة للتلويح بسيفه ، الأمر الذى حز فى نفسه حزا شديدا ، وعرقلته كائنات كثيرة غريبة وهو يسبح ، كانت وحوش الخضم تطارده وتحاول أن تمزق زرده بأنيابها ، فأدرك البطل أنه دخل بهو العدو حيث لا تستطيع المياه أن تؤذيه ، ولا الأمواج المتدفقة أن تمسه لأن سقف المكان كانت تعلوه قبة تحميه من هول البحر . ثم رأى وهج نار : رأى لهبا مرتفعاً فلمح البطل الباسل وحش الأعماق اللعين ، أنثى الخضم الجبارة فانقض عليها بسيف المعارك ، ولم تمتنع يده من تصويب ضربة عنيفة ، سمع لوقعها على رأسها صليلا أشبه بنشيد حرب مفزع . غير أنه وجد أن ضياء المعارك عاجز عن البتر ولا يستطيع أن يؤثر فى المضروب . لقد خان السلاح الزعيم فى وقت شدته ورغم أنه كان قد خاض مبارزات عنيفة فى الماضى وحطم الخوذات والدروع للذين قدر لهم الفناء إلا أن ذلك التراث الثمين قد أخفق هنا للمرة الأولى فى المحافظة على مجده وسمعته .

ولكن قريب (هوجلاك) لم يتردد ، ولم تضعف بسالته لأن قلبه كان يحن إلى المجد ، فألقى البطل الثائر سيفه المحلى بحلى رائعة ، ألقى إلى الأرض سيفه المصقول المتين ، واعتمد على قوته وقبضة يده القاضية . وهكذا يفعل دائما من يريد أن يفوز بالمجد فى المعارك ، فهو لا يبالى بحياته ، بل لا يفكر إلا فى مجده . وأمسك أمير (الجيات) أم (جرندل) من كتفها ، قبض عليها قبضة عنيفة طرحتها على الأرض ، هذا ما فعله بطل المعارك وهو منهمك فى المعركة ، وسرعان ما جمعت

شملها وردت عليه بالمثل ، مقابلة هجمته بهجمة عنيفة . ومع أنه كان من أقوى المحاربين ، إلا أنه ترنح فسقط على الأرض .

فرمى المخلوق العجيب نفسه على زائره المتطفل عليه ، وجردت أنثى الوحش خنجرها العريض قاصدة أن تثأر بحده البراق لوليدها الوحيد . ولكن زرده المحكم النسج أنقذ حياته ، وأبى درعه المتين أن يخترقه حد السيف . ولولا درعه هذا لبدأ ابن (ادجثيو) بطل (الجيات) رحلته إلى أعماق الأرض ، ولقد ساعده درعه المتين وأنقذ حياته ، فمنحه الرب العليم النصر ، لأن الله الحكيم مالك السموات قدر أن تنتهى المعركة كذلك .

ولمح أثناء المعركة سيفاً كان قد حاز المجد فى المعارك بين مجموعة من الأسلحة. كان حساماً ممتازاً صقلته العمالقة فى الزمن القديم . ولو لا أنه كان أضخم مما يستعمله الرجل العادى لكان أمضى سلاح ، فقد كان سيفاً عظيما أتقن صنعه العمالقة ، فقبض عليه بطل (الشولدنج) بحدة وحنق ، قبض على نصابه المنقوش ، ولوح بنصله المزدان وضرب به عنق الوحش ضربة قاضية شاعراً بأن هذا أمله الوحيد ، فهشم عظامه ، واخترق نصل السيف جسم المخلوقة العجيبة ونفذ فيه فسقطت على الأرض جثة هامدة .

وكان السيف يقطر دما وعلقاً ، فابتهج البطل لما أنجزه ، ووهج النار أنار جميع أركان الكهف كأنه قنديل السماء يلقى بأشعته المشرقة فى القبة الزرقاء . والتفت يمنة ويسرة فى الكهف ، ومضى قريب (هوجلاك) شاهراً سيفه الصارم بجوار الجدار . ولم يخن نصل سيفه فى المعارك ساعد المجد ، وكان همه الآن أن يرد (لجرندل) الشرور التى أنزلها (بالدانيين) الغربيين ، ويرد له أيضاً شر

الغارات الكثيرة التى أصاب ببعضها حاشية (خرونجار) حين اغتالهم فى فراشهم وازدرد خمسة عشر منهم وهم نائمون ، وحمل مثلهم غنيمة . وبذلك وفى المحارب الحانق (جرندل) حسابه ، فرآه ملقى على الأرض جثة هامدة مهشمة فى المعركة لأنه كان قد جرح جرحا خطيراً قبائذ فى (هيوروت) . والآن ضرب البطل الجثة بسيفه ضربة عنيفة تصدعت لها وانفصل الرأس من الرقبة .

ولاحظت نخبة المحاربين الذين كانوا يطلعون إلى البحيرة بجوار (خرونجار) أن الماء المضطرب قد اشتد اضطرابه وأصبح أكثر امتلاء بالدم ، فتشاور المحاربون المحنكون الشيب فى مأساة بطلهم ، وفقدوا الأمل فى عودة (بيولف) ، وأيقنوا أنه من العسير جداً أن يعود منتصرا إلى (خرونجار) ، واستنتج أغلبهم أنه قد قضت عليه ذئبة البحار . وحينما حانت الساعة التاسعة من النهـــار غادر (الشولدنج) البواسل التل ، وعاد حامى الرجال الكريم إلى منزله . أما (الجيات) فمكثوا على الأرض وقلوبهم حزينة محدقين فى صفحة البحيرة ، ومتطلعين بلهفة لرؤية بطلهم الحبيب ولكن بأمل ضعيف .

وبدأ السيف ، حسام المعارك ، يتحلل ، بسبب انغماسه فى دم العدو ، وصار قطعاً من الحديد الملطخ بالعلق تتساقط كأنها ذرات من الجليد . فما أعجب أن يتحلل السيف كأنه ثلج يذوب عندما يتفضل الرب ، مصرف الأوقات والمواسم ، فيحل قيود الجليد ويفك حبال الفيضان حقاً إنه الرب. ولم يغنم أمير (الجيات) من كهوف الوحش أكثر من الرأس المبتور ، ومقبض السيف المرصع رغم أنه شاهد من حوله كنوزاً كثيرة . أما نصل السيف فكان قد تحلل لشدة حرارة دم الوحش والسم الذى انبثق من جسده حينما قضى نحبه . ثم بدأ ذلك الشخص ، الذى كان

قد حقق هزيمة أعدائه ، يسبح فى البحيرة و يشق عبابها . لقد نقى الماء وطهره
طهارة كاملة عندما أنهى ذلك الشيطان العجيب أيام حياته فى هذه الدنيا الفانية
وسرعان ما أقبل البطل حامى الملاحين إلى الشاطىء ، وكان فخوراً بالغنيمة
الضخمة التى قد أحضرها معه ؛ فهبت لاستقباله رفقته الكريمة ، وهم يحمدون
الله لإسعادهم برؤية زعيمهم سليما معافى ، وبادروا إلى خلع خوذة البطل ودرعه
وهبطت مياه البحيرة ملوثة بالدم تحت السحب التى تغشى الأرض . وعادوا
مبتهجين من نفس الطريق الذين أتوا منه ، وجر الرجال البواسل رأس الوحش من
فوق الصخرة بمشقة وجهد ، وحمل أربعة منهم بصعوبة ذلك الرأس مشدوداً إلى
قناة رمح متجهين إلى البهو ، وهرول أبطال (الجيات) الأربعة عشر إلى (هيوروت)
يتقدمهم زعيمهم مختالا وسط المروج إلى البهو . دخل ليحيي (خروثجار) المحارب
المتوج بالمجد ، طليعة الأبطال ؛ الجندى الباسل ، المقاتل الذى لا يهاب شيئا ،
وحمل رأس (جرندل) قابضا على شعره عبر أرض البهو حيث كان الناس
يحتسون الشراب ، وعرضه أمام (الدانيين) وملكتهم وكان هذا فى الحقيقة
منظراً عجيباً ومريعاً .

ثم تكلم (بيولف) بن (أدجثيو) قائلا :

« يا ملك (الشولدنج) ، يا بن (هيالفدينى) لقد أحضرنا لك مع الغبطة
هذه الغنائم من البحر . لقد كدت أفقد حياتى فى العراك تحت الماء ، وأقدمت
على ما أنجزته بعناء عظيم ، ولولا رعاية الله لانتهت قدرتى على الكفاح ، إذ لم
أنتفع (بخرونتنج) فى المعركة رغم أنه سلاح يعتمد عليه ، ولكن رب البشر أتاح
لى أن أرى سيفاً عريضاً بالغ الضخامة معلقاً على الجدار ، وكم من مرة أعان فيها

من لا صديق له ، فانتزعت السيف ، وضربت به أرباب الدار ، مغتنما الفرصة ،
ولكن تحللت شباة سيف المعارك ، ذلك المهند المرصع بسبب الدم المنبثق من
الوحش ، الدم الملتهب ، فحملت نصل السيف من أيدى الأعداء وعدت به إلى
هنا ، و بذلك ثأرت للجرائم ، ولمذبحة (الدانيين) وذلك يقضى به الواجب .
وإنى لأعدك الآن أنك ستنام فى (هيوروت) بين زمرة فرسانك وجميع حاشيتك
من شيب المحاربين وشبابهم نوماً هنيئاً ، إنى لأعدك يا سيد (الشولدنج) أنك
لن تخشى من غزو يصلك من هذه الناحية كما كنت تخشى فى الماضى .

ثم سلم المقبض الذهبى العريق ، صنع العمالقة ، إلى يدى المحارب الأشيب
زعيم المعارك المرم . و بعد هزيمة الشياطين دخلت تلك التحفة الباهرة فى حيازة
سيد (الدانيين) . وحينما فارق الحياة ذلك المخلوق الحقود عدو الله ، والمرتكب
للجرائم الكبرى ، وماتت أمه أيضاً ، انتقل الأمر إلى يدى خير ملوك الأرض
بين البحار ، أعظم مانح للمكرمات فى أرض الشمال . ثم تكلم (خروثجار) بعد أن
فحص المقبض ، ذلك التراث العريق ، الذى كان منقوشاً عليه صورة الصراع
البدائى حينما أباد الطوفان جنس العمالقة الذين ذاقوا عناء شديداً لأنهم كانوا جنساً
معاديا لسيد الآباد . ولذلك عاقبهم الرب ، مالك الكون ، عقاباً حاسما
بالطوفان . وكان المقبض معلماً برموز سحرية صحيحة ، ونقش على نصله
الذهبى أفقيا اسم من صنع له ذلك السيف الممتاز ذو المقبض المزين
برسوم الثعابين . فتكلم ابن (هيالفدينى) وسكت الجميع منصتين ،
وقال : أصغوا إلى ، بوصفى ملكا شيخاً تعود ذاكرتى إلى ماض بعيد ،
و باعتبارى حاكما نشر الحق والعدل بين شعبه، أستطيع أن أقول لكم
جميعاً إن هذا البطل لأصيل حقاً . يا (بيولف) الصديق ! شهرتك قد

رسخت فى جميع الشعوب ، وإنك لتستعمل قوتك العظيمة بحكمة وتواضع ،
وسأنفذ عهدى معك حسبما اتفقنا من قبل ، وستكون عمادا لشعبك ، حامياً
للأبطال .

أما (هيرمود) فما أشد اختلافه عنك ، لأنه لم يسلك مع (الشولدنج)
الأمجاد أولاد (إدجويلا) كما سلكت أنت ، ولم يعطهم السعادة، بل أعطاهم الذابح
المريعة والدمار ، أعطى الموت لشعب (الدانيين) . وعندما كان الغضب يملأ
نفسه كان يجش رفاقه وندماءه بسيفه حتى مضى ذلك الأمير السيء السيرة إلى
منفاه وحيدا بعيدا عن مسرات الحياة. ومع أن الله القدير قد منحه التمتع بالسلطة
أكثر مما منح غيره فإن كان قلبه مليئا بروح متعطشة للدم . وما وزع الخواتم
أبدا على (الدانيين) حسبما تقضى به الكرامة ، بل عاش بائساً ، وعانى معاناة
طويلة وأليمة بسبب جرائمه . فاتعظ من قصته هذه، واعرف معنى الفضيلة ، فإن
تقدم السن قد جعلنى حكيما ، وأنا أقص عليك تلك القصة للعظة والعبرة . وإنه
لمثير للإعجاب أن الله القدير يوزع أنصبة الحكمة والثراء والمكانة بفضل كرمه
العظيم ، فهو المدبر لكل شيء. فتارة يأذن لنفس كريمة أن تتجه إلى صالح وطنها
فيمنحها كل سعادة فى بيتها ، ويحيطها بقلعة حصينة لتدفع عنها ، ويخضع مناطق
شاسعة من الأرض لسلطانها، إلى حد أنها لا ترى فى كبريائها حدا لهذه السعادة.
وصاحب هذه النفس يعيش فى متعة وترف لا تشوبها شائبة من مرض أو هرم
ولا يعترى فكره أى مكدر ولا يثير العداوة ضده عدو . فالعالم يسير حسبما يشاء
ولا يجر العراك معه إلى حرب شعواء ، ولكن الغطرسة قد تنتفخ فى نفسه وتتضخم
والضمير حارس الروح ، يستغرق فى النوم ، ويطول نومه بسبب مشاغل

الحياة ، حتى يتمكن المغتال من الاقتراب ، فيصيب هذا الإنسان بسهمه القاتل
ينغرس السهم فى قلبه مخترقاً درعه ، وهذا من عمل الشيطان الرجيم . فلا يقنع
بما ملكت يداه ، ويطمع فى ملك غيره طمعاً شرها، ويضن بمنح القلائد الذهبية
التى يقضى بمنحها الكرم ، ولا يفكر فى الآخرة ، ويزدرى نصيبه من هبات
الله رب الأمجاد . والذى يحدث فى نهاية الأمر هو أن الجسد الفانى يذبل
ويسقط على ما قدر له أزلا ويخلفه آخر يوزع القلائد والخواتم العريقة ، ويستهين
بكل شيء ، ولا يخشى أحدا . فأرجوك يا (بيولف) العزيز يا خير البشر أن
تحمى نفسك من مثل هذه الروح الشريرة ، فاختر لنفسك المنصب الأفضل ، وهذا
مغنم لك. لا تستسلم للغطرسة أيها المحارب الشهير ، فقد يستمر عنفوان قوتك
زمناً ما ، ولكن سرعان ما يفصل المرض أو السيف بينك وبين قوتك ، سرعان
ما تضمك النار إلى صدرها ، أو يبتلعك الطوفان ، أو يطعنك الخنجر ، أو يطير
إليك السهم ، أو تسقط عليك الشيخوخة الكريهة ، أو يخفت ضياء عينيك ،
وفى آخر الأمر يتغلب عليك الهلاك أيها الفارس . فأنا مثلا قد حكمت
(الدانيين) حاملى الأختام تحت قبة السموات ، وحميتهم من غارات السيف
والرمح التى شنتها قبائل عديدة من جميع أطراف الأرض إلى حد أننى تصورت
أنه لم يبق لى عدو فى العالم بأمره ، ولكن ها أنذا قد دارت على فى وطنى الدوائر
وحل البؤس محل السعادة منذ أصبح (جرندل) ذلك العدو القديم يلم بى .
وقد عانيت الكثير من الهموم وقلق البال بسبب غاراته ، ولكن حمدا لله ، خالق
الكون ، فقد عشت لأرى بعينى رأسى ذلك الرأس المبتور الدامى بعد صراع
طويل . فخذ الآن مجلسك ، وأسهم فى أفراح الوليمة ، وعش مكرما ببسالتك ،
وغدا صباحاً سنقتسم الكنوز الكثيرة .

فسر أمير (الجيات) ، وهرول إلى مجلسه استجابة لأمر الملك الحكيم . وأقيمت وليمه حافلة أمام الأبطال فى البهو الكبير على ماجرت به العادة . وخيم الليل على الرفاق ، وحينما أراد شيخ (الشولدنج) الأشيب أن يأوى إلى مخدعه وقف الجميع تحية له ، ثم مال بطل (الجيات) الى النوم وسرعان ماتقدمه كبير الأمناء الى مخدعه ، وكانت وظيفته رعاية مطالب الضيوف ، وخاصة مايحتاج اليه الملاحون فى تلك الأيام . أرشد المسافر العظيم إلى مخدعه لأنه شعر بالنصب بعد مغامرته الخطيرة ، فنام البطل الكريم نوما هادئا ، و كانت حجرة نومه عالية السقف ، وواسعة الأركان ، ومزدانة بالحلى الذهبية ، نام الضيف حتى بدأ الغراب الأسود يعلن بسعادة إشراق الفجر ، وطارد نور الصباح ظلام الليل ، ونشط المحاربون لأن قادتهم كانوا يعتزمون الرحيل إلى أوطانهم ، وكان (بيولف) يريد أن يبحر بسفينته الراسية بعيدا ، فأمر البطل أن يحضر (خرونتنج) إلى ابن (ادجلاف) ، وأعطاه السيف ، وشكره على إعادة ذلك السلاح الثمين له قائلا ، إنه يعتبره صديقا وفيا فى المعارك ، باسلا فى الحروب ، ولكنه لم ينسب التقصير إلى حد السيف لأنه كان كريم النفس . ولما تأهب رجاله اقترب الأمير البطل الذى أكرمه (الدانيون) أعظم إكرام — اقترب من عرش الملك وحيا البطل العظيم الملك (خروثجار) ، ثم تكلم (بيولف) بن (ادجيثو) قائلا : نحن الملاحين القادمين من بعيد نريد الآن أن نعود إلى (هوجلاك) ، وقد نلنا من كرمك مانأمل ، وقد أحسنت معاملتنا ، وإنى مستعد حالا أن اقوم بأعمال باسلة اذا كان هناك سبيل لأنال من محبة قلبك أكثر مما نلت منها ، وأن سمعت من وراء البحار أن من يحيطون بحدود بلادك يهددونك بالشر كما فعل الأعداء من قبل فسأهب بصحبة الف فارس وبطل لمعونتك . أما (هوجلاك)

زعيم (الجيات) فاعلم أنه لا يزال شابا ، وأنه راعى شعبه . اعلم كذلك أنه سيستحثنى قولا وعملا على إظهار تبجيلى لك بأعمال باسلة ، ووضع رمحى الدبب ويمينى الحديدية تحت طلبك إن احتجت يوما للرجال . ولو قرر الأمير (خريثريتش) ابنك أن يزور حى (الجيات) فسيجد فيه أصدقاء كثيرين ، وإنه لمن الأجدر بالرجل الكريم أن يزور البلاد النائية .

ثم تكلم (خروثجار) رادا عليه : « إنه هو الرب الحكيم الذى أنطقك بهذا الكلام ، فلم أسمع قط برجل فى مثل شبابك ينطق بهذه الحكم ، وإنك لتتمتع بقوة الساعد ، ونضج العقل ، ورزانة الكلام . وإنى لأرجح أنه لو انتزع ابن (خريثل) أميرك وراعى شعبك ، رمح أو حرب شعواء ، أو مرض ، أوخنجر ، وكنت على قيد الحياة - لوحدث هذا ماوجد (الجيات) عابرو البحار رجلا خيرا منك يختارونه ملكا عليهم ، وحارسا لكنوز أبطالهم ، لو صادف الملك قبولا فى نفسك . وإن روحك يا (بيولف) العزيز لتزداد جذبا لى كلما مرت الأيام . ولقد حققت أن يعيش (الدانيون) حاملو الرماح مع شعب (الجيات) جنبا إلى جنب فى أمن وسلام . وستنتهى الحروب بيننا ، وتزول عداوات الثأر التى كانت بيننا من قديم الزمان ، ومادمت حاكما لهذه المملكة الشاسعة فستتبادل الكنوز ، ويحيى الرجال بعضهم بعضا بالهدايا القيمة عبر المياه التى يحلق فوقها البجع ، وتحمل السفن ذات المقدم المقوس العطايا وتذكارات الحب المتبادل . وإنى لأعتقد أن الشعبين سيتحدان أمام العدو والصديق ، وسيكونان بريئين من اللوم كما تقضى التقاليد » .

ثم أعطى ابن (هيالفدينى) ، حامى الفرسان ، البطل اثنتى عشرة منحة

ثمينة ، وأمره بأن يرحل مصحوبا بالسلامة ، ويزور شعبه العزيز ، ثم يسرع إليه مرة أخرى . فقام الملك الكريم الأصيل ، أمير (الشولدنج) ، وقبل خير الفرسان ، وطوق عنقه بذارعيه والدموع تنهمر على وجه المحارب الأشيب ، وكان الرجل الهرم المحنك يعرف أن هناك احتمالين يرجح حدوث أحدهما فقط وهو أنه لا أمل مطلقا فى تلاقيهما بعد ذلك بطلين فى مجالس الأبطال . ولشدة تعلقه بذلك الرجل لم يستطع أن يكتم حزنه المتدفق فى صدره ، على أنه كان يشعر بحنان يغلى فى دمه وبحب عظيم لذلك البطل الذى تربطه بقلبه أواصر المحبة . ثم اتجه (بيولف) البطل الباسل ، حاملا الذهب والهدايا النفيسة ، اتجه نحو المسرح ليعبره . وكانت السفينة الراسية تنتظر سيدها المالك لها . وكان الأبطال يشيدون على طول الطريق بكرم (خروثجار) العظيم ، فإنه عاش ملكا لا تشوبه شائبة حتى سلبته الشيخوخة غبطة السلطان ، وما أكثر ما أضرت الشيخوخة بالعديد من الناس .

وعلى هذا النحو سارت رفقته من الفرسان البواسل إلى ضفة الماء مرتدين الزرود والدروع المحبوكة ، فرآهم حارس الساحل ، رأى الفرسان كما رآهم من قبل ، ولم يسخر منهم وهو يحيي الضيوف من فوق الربوة التى كان يقف عليها ، ولكن تقدم إليهم وصاح قائلا : إن هؤلاء الفرسان مرتدى الزرود المرونقة الذاهبين إلى سفنهم سيرحب بهم لاشك شعب (الجيات) عند عودتهم . ثم شحنت السفينة الكبيرة بعدد الحرب . وحملت السفينة ذات المقدم المقوس بالجياد والكنوز ، وأشرف صاريها على أكوام الكنوز التى كان قد أهداها (خروثجار) كما أهدى (بيولف) حارس السفينة سيفا ذا مقبض ذهبى ، فزاد بهذه الهدية المرموقة تكريمه فى مجالس الشراب .

ثم أبحرت السفينة تشق المياه ، وغادرت أرض (الدانيين) ، ونشر الشراع الكبير على الصارى . وكانت ألواح السفينة وعروقها تئن فى سيرها على الأمواج ولم تؤثر الرياح على اتجاهها أثناء عبورها . فسارت والزبد يلتف حول مقدمها المقوس ، ومخرت حتى استطاع الملاحون أن يروا عن بعد صخور شواطىء (الجيات) ، تلك الصخور المألوفة لهم ، فتقدمت قاعدة السفينة تدفعها الرياح حتى رست على اليابسة . وهرول خفير الميناء إلى الشاطىء ، ذلك الرجل الذى كثيرا ما تطلع إلى البحر بلهفة ليرى الفرسان الأعزاء فثبت السفينة الكبيرة بالشاطىء ، واختبر قوة حبال المرساة حتى لا تدفع الأمواج السفينة السعيدة بعيدا ثم أمر أن تحمل الجواهر والتحف الذهبية ، كنوز الأشراف ، ولم يكن عليه أن يوصلها إلى مانح الهبات ، لأن (هوجلاك) بن (خريثل) كان يقيم بين حاشيته قريبا من جدار البحر .

وكان القصر فخما ، والملك حاكما عظيما فى بهوه الشامخ ، وكانت قرينته الملكة (هوجد) بنت (هارث) شابة حكيمة مهذبة ، ولو أنها لم تعش بين جدران هذه القلعة سوى أشتية قليلة . ولم تكن تضن على (الجيات) بالهدايا النفيسة بل ما أكثر ما أهدت إلى شعبها العطايا الثمينة .

أما (مود ثروذ) فقد كانت سامية بين شعبها ، ولكنها كانت تضمر الحقد المريع ، ولم يكن هناك أحد من فرسان القصر ، سوى زوجها ، يستطيع أن يواجهها من غير أن يتأكد أن أغلالا من صنع يدها تحاك له ، وبمجرد أن يقبض عليه يأتى دور الخنجر والسيف المرصع لينيلاه الطعنة القاتلة . ولا يليق هــذا بمقام ملكة مهما عظمت منزلتها ، فالنساء يجب أن يكن دائماً ناسجات السلام ،

لايهددان حياة فارس باسل لمجرد توهمهن الإهانة. ولكن قريب (هيلمنج) وضع حدا لهذا الأمر .

وهناك قصة أخرى تحكى فى مجالس الشراب هى أن شرها قد تضاءل ، وأخذها بالثأر قد قل حينما زوجت من فارس شاب عريق الأصل ، وهى مزدانة بحلى الذهب ، وقد حدث ذلك عندما زارت ، بناء على أمر أبيها ، قصر (أوفا) وراء البحر المظلم ، ثم أحسنت التصرف فى ثروتها ، واشتهرت بالطيبة طول حياتها ، وكانت تعز إعزازا كبيرا أمير الأبطال ذلك الذى سمعت عنه أنه كان خير البشر بين جميع البحار . وكان (أوفا) . هذا مقاتلا باسلا اشتهر بين أكناف الأرض بانتصاراته وكرمه . كما كان يحكم وطنه حكما مستنيرا . وخلفه (أيومير) عماد المحاربين ، قريب (هيلمنج) ، حفيد (جارموند) ، وذو البأس فى المعارك .

ثم نهض البطل (بيولف) مع رفاقه ، وغادر الساحل ، وكان مصباح العالم يضىء ، وأقبلت الشمس من الجنوب ، فمضوا فى طريقهم مسرعين ، هرولوا إلى المكان الذى يوزع فيه الأختام داعى الفرسان الملك الشاب الخير المحارب ، قاتل (أونجنثيو) . ورويت (لهوجلاك) قصة مغامراتهم ، حكيت رحلة (بيولف) ، وأن البطل درع المحاربين ، قرينه فى المعارك قد وصل سالما ، وهو فى طريقه إلى قصره . وسرعان ما أعدوا مكانا فى البهو لاستقبال زمرة الأبطال حسبما أمر به الحاكم العظيم . وجلس من وصل سالما من المعركة أمام (هوجلاك) نفسه ، جلس القريب أمام القريب ، بعد أن حيا زعيم الرجال البطل الصادق بخطبة بليغة وقورة . ودارت بنت (هارث) على الأبطال فى كل أنحاء البهو تسقيهم من أباريق المدام ، وحملت بيديها الكئوس إلى أيدى الأبطال .

فشرع (هوجلاك) يسأل بأدب قرينه فى البهو العالى ، لأنه يتطلع بشغف عظيم إلى معرفة المغامرات التى خاضها (الجيات) الملاحون . فسأله قائلا :

« كيف كان حالك فى الرحلة يا (بيولف) العزيز عندما قررت السعى لمبارزة دة عن وطنك ، وذهبت وراء البحر المالح لتحارب فى (هيروت) ؟ هل أحرزت النجاح فى أن تخفف من الهموم المعروفة التى كان يعانيها (خروثجار) الأمير الصيت ؟ لقد كنت أنا مهموما هما فادحا وحزينا ، حزنا غامرا لضعف أملى نجاح رحلة فارس عزيز مثلك . وكم رجوتك ألا تقترب من الوحش المدمر وأن تترك (الدانيين) الجنوبيين يسوون حسابهم بأنفسهم مع (جرندل) . غير أحمد الله على عودتك سالما » .

تكلم (بيولف) بن (ادجيثو) قائلا :

« أيها الملك (هوجلاك) لقد سمع الناس عن المعركة الخطيرة فى ذلك المكان حيث جر (جرندل) على (الشولدنج) المظفرين بؤسا لا آخر له . ولقد ثأرت لهم ، حتى إنه لم يبق من نسل (جرندل) على الأرض من يستطيع أن يفاخر بعجزه فى معركة الليل . لا يوجد منهم أحد ، باقيا على قيد الحياة حتى أطولهم عمرا ، وحينما وصلت هناك ذهبت إلى بهو الكنوز لأحيى (خروثجار) ولما علم مقصدى أجلسنى ابن (هيالفدينى) الشهير بجانب أبنائه . وكان المجلس مرحا ، ولم أر فى حياتى تحت قبة السماء أفراحا أبهى من تلك التى شهدتها بين أولئك الرجال وهم يحتسون المدام فى البهو . ومن حين لآخر كانت الملكة

العظيمة ، ضمان السلام بين الأمم . تدور بين الأبطال تدعوهم بالحاح الى تناول الطعام والشراب ، وكثيرا ما كانت تمنح القلائد للضيوف قبل أن تتربع على عرشها . وكانت بنت (خروثجار) أحيانا تحمل كئوس الجعة إلى قادة الأبطال فى جميع أنحاء البهو . وقد سمعت القوم ينادونها باسم (فريا وارو) وهى تملأ كئوس الأبطال الواحد بعد الآخر من الأبريق المرصع بالجواهر .

وكانت شابة مزدانة بحلى الذهب ، خطبت لابن (فرودا) الوجيه ن راعى (الشولدنج) حامى المملكة رأى من حسن السياسة أن ينهى خت كثيرة بوساطة تلك الفتاة . ولكن رغم فتنة البنات قلما نجد الرمح تل يسكن بعد سقوط أمير من الأمراء . فإنه من العسير على أمير (الهياثود) ، وأى فارس من فرسان أمته ، أن يدخل البهو بصحبة الخطيبة وبرابطال (الدانيين) فى وليمة حافلة يتلألأ فوق صدورهم تراث أجداده العريقين . غير أن (الهياثو بارد) قد زجوا بأنفسهم وبرفاقهم إلى التهلكة ، يتذكر محارب قديم كل الماضى ، بما فيه مذبحة رفاقه ، عندما ينظر على أحد سيوفهم ، فيستفز — بقلب تملؤه المرارة — أحد الشباب بالكلمات الآتية :

أيها الصديق ألا تعرف حق المعرفة ذلك السلاح الذى حملك فى المعركة ولكن قتله (الدانيون) ، انتصر (الشولدنج) بعد أن قتل يذر جولد) وأبيد جيشنا . أن أحد أبناء قاتليه يمشى الآن مختالا فخورا مزدروعه فى بهو الولائم ، ومفاخرا بتلك المذبحة ، وشاهرا سيفا كان الأولى أن يكون فى قبضة

يدك . ويظل هذا يستفزه ويستحثه بكلام جارح حتى يأتى اليوم الذى يطعن فيه أحد أتباع (فريا وارو) (الدانيين) ، فيسيل منه الدم ، ويموت من أجل مافعله آباؤه ، بينما يفر من اغتاله لأنه يعرف خفايا الريف حق المعرفة . فيؤدى ذلك إلى أن عهود زعماء القبائل تنقض ، وأن مرارة الكراهية تغلى فى صدر الأمير (انجلد) ، ويخمد غرامه لزوجته بسبب همومه . لذلك لست من محبذى الصداقة مع (الهياثو بارد) ، ولا أعتبر معاهدة السلام بين القبائل حقيقية ولا دائمة .

والآن سأعود إلى (جرندل) حتى تستطيع يامانح العطايا أن تتحقق من نتيجة الصراع بين القويين . فحينما مرت جوهرة السموات من فوق الأرض دنا منى الشيطان المفترس ، عملاق الليل المريع ، وصارعنى حيث كنت أحرس بهو الشراب وأنا لاأزال سليما . وكانت النكبة تنتظر (هوندشيو)، كان الموت القاسى على موعد مع الرجل الذى قدر له أن يموت ، ذلك البطل المحتبى بالنجاد كان أول من سقط من الأبطال .

فأصبح (جرندل) مغتالا مزدردا لأخى فى البطولة الشهير ، والتهم جسد الرجل العزيز كله ، ومع ذلك لم يقنع ذلك المغتال الضارى بل كان لايزال يضمر فى نفسه شرورا أخرى ، ولم يرض أن يترك البهو الذهبى ويداه خاويتان ، فقد انقض على بعنف شديد ، وحاول أن يقبض على بيد من حديد ، وكان يحمل فى جانبه كيسا كبيرا عجيبا ، به مشابك غير مألوفة ، محكم الصنع من جلود التنين ، وكان ينوى ذلك الشرير المفترس أن يضمنى رغم براءتى فى كيسه مع

الآخرين ، ولكنه لم يستطع ذلك لأنى صمدت له يدفعنى الغضب . ويطول بى الكلام إذا أنا شرحت لك كيف كافأت عدو الشعب هذا على كل جرائمه ، ولكنى يامولاى قد رفعت من شأن أمتك بأعمالى . فهرب منى ونعم بالحياة فترة قصيرة ، غير أن يده اليمنى ظلت فى (هيوروت) ، ثم غاص بعد ذلك فى البحيرة والأسى يملأ قلبه . ولقد جازانى زعيم (الشولدنج) الكريم جزاء كريماً من الذهب والكنوز الثمينة الأخرى ، كافأنى على عراكى الخطير ، فى اليوم التالى عندما كنا نجلس إلى مائدة الوليمة ، وعلت الأصوات مغنية ومبتهجة والملك ، أبو (الشولدنج) ، الذى طالما سمع الكثير فى حياته قص علينا نوادر الماضى . وكان أحد الفرسان تارة يعزف على قيثارته الخشبية ، وتارة أخرى يروى قصة واقعية محزنة ، ثم يحكى لنا الملك الكريم إحدى مغامراته . وكان قائد المعارك القديم ، والشيخوخة تثقل كاهله ، يبكى شبابه وقوته فى المعارك . فاضطرب قلب الشيخ فى صدره وهو يستعيد الماضى إلى ذهنه .

وعلى هذا النحو تمتعنا يوما كاملا حتى خيم الليل على البشر ، ثم كانت أم (جرندل) على أهبة الثأر لابنها ، وأقبلت وقلبها يفيض حزنا لأن ابنها كان قد فتك به (الويدر) المعادون ، فانتقمت تلك الأنثى الوحشية لقتل وليدها وهشمت البطل بقسوة ، وحالت بين (آشير) المستشار الحكيم وحياته . ولما أقبل الصباح لم يستطع (الدانيون) أن يحرقوا جسده أو أن يضعوا بطلهم المحبوب على محرقة الجثث ، لأنها كانت قد حملت الجثة بعيدا فى قبضتها الشيطانية ، حملتها إلى كهفها تحت سفح الجبل . فكان ذلك أمر أشجان (خروثجار) ، وأقسى ما أصاب ذلك الأمير . لذلك توسل إلى الملك وقلبه

مفعم بالحزن ، وأقسم على بحياتك أن أظهر شجاعتى فى دوامات الماء وأن أنجز أعمال البطولة مخاطرا بحياتى . وقد وعدنى بأن يكافئنى . وبعد ذلك لقيت الحارس المريع لأعماق الماء المتدفق ، على مايعرفه الجميع ، وظللنا نتشابك فترة متصارعين ، وفار الماء دما . وبضربة حسام صارت رأس أم (جرندل) فى البهو تحت الماء وأفلت منها بحياتى لأنه لم يقدر لى أن أموت بعد . ثم منحنى ابن (هيالفدينى) ، حامى الأبطال ، كنوزا كثيرة .

وهكذا عاش ملك ذلك الشعب حسبما يقضى به العرف ، ولم يضن على بالمكافأة ، بل تركنى (هيالفدينى) أختار الكنوز بنفسى ، وهأنذا أحملها اليك أيها الملك المجيد ، وأسلمها لك بسماحة ورضا ، إذ لا تزال سعادتى كلها تعتمد عليك ، لأنه لا يوجد لى من الأقارب الأقربين سواك يا (هوجلاك) .

ثم أمر بإحضار لواء عليه شارة الخنزير البرى ، وخوذة معارك عالية ، وزرد رمادى ، ومهند فخم ، وألقى الخطبة الآتية :

« حينما أعطانى (خروثجار) الأمير الحكيم هذه الأسلحة أمرنى أمراً صريحاً أن أقص عليك أولا تاريخها ، وقال إن الملك (هيوروجار) زعيم (الشولدنج كان يملكها مدة طويلة ، ومع ذلك عز عليه أن يمنح الدرع ابنه نفسه ، ذلك الفارس الباسل (هيورو ويارد) ، رغم إخلاصه له . فتمتع به أبلغ تمتع » .

وقد روى لى أنه تبع موكب الأسلحة أربعة جياد شقراء سريعة متماثلة الشكل ، فأعطى (بيولف) الملك الكنوز والجياد . وهكذا يجب أن يفعل

القريب المخلص كما يجب ألا يدبر المكائد لغيره ، وألا يتآمر على حياة زميله الحبيب . فكان القريب وفيا لخاله (هوجلاك) بطل المعارك ، وكان كل منهما يفكر فى خير الآخر ، كما روى لى أنه أعطى القلادة ، ذلك الجوهر المتقن الصنع، (هوجـــد) ، أعطاها تلك التحفة التى كانت (ويا لختيو) بنت الأمراء قد منحته إياها . وقدم لها كذلك ثلاثة جياد كريمة ومطهمة ، ومنذ ذلك الوقت كان صدرها دائما محلى بتلك القلادة .

وبذلك أرى ابن (ادجثيو) الشهير فى الحروب نفسه باسلا فى أعمـــال البطولة ، كما كان مسلكه دائماً شريفاً . ولم يعتد قط على ندمائه أثناء الشراب ، ولم يكن قلب بطل المعارك غليظاً ، فإنه قد حرص بكل ما يملكه البشر من وسائل على تلك المواهب الكريمة التى منحه الله إياها . غير أنه عاش طويلا مزدرى ، لأن أبناء (الجيات) كانوا يجهلون بسالته ، ولم يوجه إليه سيد (الجيات) احتراماً كبيراً فى مجلس الشراب ، وكان الناس يظنونه خاملا ، أو أميراً حقيراً ضعيفاً ،ولكن تحول الأمر وعوض عن البؤس القديم .

ثم أمر ملك الأمجاد الحربية ، راعى للقاتلين ، بإحضار تراث (خريثل) المذهب ، ولم يعرف (الجيات) فى ذلك الوقت سيفا أثمن منه ، ووضعه فى حجر (بيولف) ، ومنحه كذلك سبعة آلاف قطعة أرض من ذات المائة فدان ، وقصرا ولقب رئيس قبيلة . وبذلك أصبح للاثنين أملاك شاسعة فى ذلك القطر ، إلا أن أملاك أعلاهما مرتبة كانت أكثر اتساعا على ما قضت به اللياقة .

وحدث بعد ذلك أن قتل (هوجلاك) فى إحدى المعارك ، وخر ابنه

(هيار دريد) أيضاً صريعاً تحت وقع سيوف المعارك رغم التروس الواقية . وكان السويديون أولئك المحاربون الكواسر ، قد اختطفوه من بين حاميته وانقضوا عليه بقسوة . هكذا فعلوا بابن أخى (هيريريكش) ثم خضعت مملكة الجيات المترامية الأطراف لحكم (بيولف) ، وحكمها حكما عادلا مدة خمسين شتاء ، وكان ملكا محنكا ، وحامياً لوطنه مجربا ، حتى أقبل ذات يوم تنين باسطا سلطانه فى الليالى الحالكة . وكان ذلك التنين يحرس فى كهفه كنزا فى مقبرة يمر تحتها نفق سرى[21] . وذات يوم مر واحد من الناس بهذا الكنز الوثنى الأصل ، وتسلل داخل المقبرة ، واستولى على كأس كبيرة مرصعة بالأحجار الكريمة . ولما كشف التنين أن لصا ماكرا قد احتال عليه أثناء نومه أشعر الأمم المجاورة له بمدى غضبه الشديد .

إن الرجل الذى أثار التنين على هذا النحو لم ينتهك حرمة الكنز عمداً ، ولكنه فعل ذلك مكرها ، فقد كان رفيقا لأحد النبلاء ، ثم أبق هربا من ضربات سيده القاسية ، فاحتمى بالكهف حتى لا تكتشف جريمته ، ونظر إلى الداخل فملكه الفزع لرؤية الوحوش المريع ، ولكنه أفلت من التنين ، حاملا معه كأسا مرصعة بأحجار الكريمة .

وكانت بالكهف كنوز عتيقة كثيرة أخرى كان بعض الناس قد أخفوها هناك ، وكانت آثار الأمة عريقة قديمة أفنتها المنية عن آخرها منذ زمن سحيق ، غير أن بطلا من أبطالهم قد عاش بعدهم ، وبكى فقدهلم ، وتوقع مثل مصيرهم ، أى إنه لن يستطيع أن يحرس كنوزهم إلا لمدة محدودة ، وكان على مرتفع مشرف على

البحر قبر مكشوف كان قد أعد من عهد قريب ، وحصن بحصون منيعة لا سبيل إلى اجتيازها ، فحمل إليه حارس النفائس ذلك الكنز الثمين ، تلك الخواتم المصنوعة من الذهب المطروق ، ثم فاه بكلمات قليلة قائلا :

« أيتها الأرض ! احفظى مالم يستطع الأبطال أن يحفظوه ، احمى ثراء الأمراء ، فإن الأبطال الكوامس كانوا قد انتزعوه منك منذ القدم ، اليوم استدعت المنية كل نفس من بنى أمتى ، اغتالتهم الغوائل فى حومة الوغى ، أولئك الأبطال الذين كانوا قد أسهموا فى أفراح بهو الولائم ولم يبق لى أحد يستطيع أن يقبض على السيف ، أو أن يجلو الكأس الذهبية الثمينة ، فقد مضى المحاربون البواسل ؛ ولم يصبح للخوذ الذهبية المتينة سوى أن تنتزع منها حلى الذهب فقد قام هؤلاء الذين كانو يجلون الخوذات . وكذلك الدرع التى كانت تصمد لوقع السيوف فى المعارك بين اصطكاك التروس أصبحت تتحلل كما تحلل الأبطال ، ولا يستطيع الزرد أن يبقى طويلا على صدورهم بعد الفناء . فلا رنين القيثارة يشجى ولا دق الدفوف يبهج ؛ ولا الصقور الصيد تحلق فى سماء البهو ؛ ولا الخيول المقيدة الأوابد تطأ بحوافرها فناء القصر ، فإن الموت الرهيب قد أفنى الكثير من جنس الرجال » .

وهكذا بكى المحارب الوحيد الذى بقى على قيد الحياة بكاء مرا وهو يهيم على وجهه ليل نهار إلى أن غمر قلبه طوفان الموت .

وجد التنين مفزع الناس فى الغسق ، الكنز بابه مفتوح على مصراعيه ،

وجده كذلك التنين الرهيب مرتاد القبور المحلق بالليل ، ذلك الوحش الشرير الذى تنبعث منه ألسنة اللهب . ما أشد ما يخشاه سكان الأرض . وقد قدر له أن ينشد الكنز تحت الأرض ، قدر المدمر بالأشنية أن يحرس ذهب الوثنيين ، ومع ذلك لم يعد عليه بفائدة ما .

وعلى هذه الصورة كان يحرس عدو الناس الكنز العظيم ثلاثمائة شتاء إلى أن أثار الغضب فى أعماق قلبه رجل (أى العبد الآبق) حمل الكأس الذهبية إلى سيده التماسا للعفو عنه . فنهب الكنز وسلبت الجواهر وأطلق سراح الرجل التعس ، لأن الأمير سيده رأى لأول مرة ما صنعه القدامى .

وحينما استيقظ التنين بدأت الأمور تسوء ، فوثب على الصخور وكشف ذلك الوحش الجسور آثار عدوه الذى كان قد انسل بجوار رأسه ، وهكذ يستطيع الإنسان الذى لم يقض عليه بالموت أن يتحمل آلام الحزن والمنفى بفضل الله القدير . وفتش حامى الكنوز جميع أركان الأرض حوله ، وكان يبغى أن يلتقى بذلك الرجل الذى ألحق به الضرر خلال نومه .

وكم من مرة طاف فيها الجسور حول القبر ، غير أن ذلك المكان المهجور كان خاويا ، ورغم ذلك كانت تراوده آمال الاشتباك فى معركة ، وخواطر الالتحام فى موقعة . وكان يتطلع من حين لآخر إلى المقبرة باحثا عن الوعاء الثمين ، وسرعان ما كشف أن واحدا من أبناء البشر قد نهب الذهب وسلب الكنز النفيس . وانتظر بفارغ الصبر حتى جن الليل ، وحينئذ أصبح سيد القبر يتميز غضبا . عزم الوحش الشرير أن يثأر بالنار لسرقة الكأس الثمينة ، ومضى النهار على ما أراد

التنين ، وتخلى عن حراسة القبر ، وخرج وألسنة اللهب تنبعث منه ، وكان غزوه الأول نكبة قاسية على سكان الأرض ، وسرعان ما انتهى نهاية أسوأ مما وقع لمليكهم الكريم .

ثم بدأ الوحش ينفث من فيه ألوانا من اللهب أحرقت الديار العريقة ، وعمت النار كل مكان ، وأرسلت الرعب إلى أبناء البشر ، فقد كان ذلك المخلوق البغيض يحلق في الأجواء ولا يترك شيئا يحيا تحته ، كما كانت آثار التنين المدمر ظاهرة من قرب ومن بعد . كانت علائم الثأر بادية في كل مكان . وما كان أشد كراهية الوحش الهدام لشعب (الجيات) . وسرعان ما كان يعود (هذا الوحش) إلى كنزه قبل انبلاج الصباح ، سرعان ما كان يرجع إلى بهوه الخفي الدفين بعد أن يكون قد أحاط سكان الأرض بسياج من اللهب والحريق ، وكان يطمئن اطمئنانا كاملا إلى قبره وإلى الحصن المحيط به ، ويعتمد اعتمادا تاما على قواه في النزال ، ولكن سرعان ما خـــدعه إيمانه بنفسه .

ثم بلغ هذا الإرهاب (بيولف) ، وصل إليه بصورة صحيحة ودقيقة ، تراءى إلى مسامعه أن داره نفسها ، خير القصور ، مقر أمير (الجيات) ، كان يغمرها طوفان من اللهيب . فما كان أشد حزن ذلك البطل الباسل ، ما كان أقسى الشجن في قلبه ، فقد ظن الزعيم الحكيم أنه ربما كان قد أغضب الله القدير ، السيد الأزلي إغضابا شديدا بمخالفة أوامره الأبدية ، وكانت الخواطر السوداء تدور بخلده ، وكان هذا على غير عادته.

وكان التنين ، نافث اللهب ، يدمر قلاع الناس بالإحراق والتخريب ، كان يحرق جميع الأرض المشرفة على البحر ، ولذلك قرر الملك المحارب أمير (الجيات) ، أن يضع الخطط للانتقام منه ، فأمر حامي المحاربين ، راعي النبلاء ، أن يصنع له ترس عجيب ، كله من الحديد ، لأنه كان يعرف حق المعرفة خشب الغابات ، وأن ترسا مصنوعا من الزيزفون لا يقوى على حمايته من اللهيب . وكان قد قدر لهذا الأمير العظيم أن يلقى نهاية أيامه الفانية ، أن يلقى نهاية الحياة الدنيا ، كما كان ذلك أيضاً مصير التنين رغم طول حراسته للكنز الدفين .

ولم يكترث سيد الخواتم بمطاردة ذلك المخلوق المحلق في سماء كل مكان ، ولا بالذهاب على رأس جيش كبير لاقتفاء أثره . ولم يخش على نفسه من نتيجة النضال ، واستهان بقوى التنين الرهيب وشجاعته الهائلة ، لأنه كان قد عركته الحوادث العنيفة العديدة في الماضي ، كما أنه كان قد اخترق منتصراً غبار المعارك مرات كثيرة عندما طهر قصر (خروثجار) من كل شر ، وقضى في النضال على أسرة (جرندال) الكريهة .

ولم تكن أقل المبارزات تلك الموقعة التي خر فيها (هوجلاك) صريعاً ، تلك المعركة التي هلك فيها هلاكا داميا في بلاد (الفريزيين) ، حينما سقط تحت وقع السيوف أثناء القتال ، وكان (بيولف) قد نجا من تلك المذبحة بمحض قوته فقد استخدم قواه في السباحة حاملا ثلاثين درعا على كتفيه ، وغائصا بها في اليم . أما الجنود (الهتواريون) ، حاملو التروس ، فقـــد تابعوه ، ولم يبق لهم ما يفاخرون به لأنه لم يعد إلى دياره منهم إلا أقل من القليل بعد نضالهم مع ذئب المعارك هذا .

وهكذا عاد ابن (ادجثيو) عائما إلى ذويه فوق عرض البحر ، عاد ذلك الهائم الوحيد التمس إلى أهله ، وهناك منحته (هوجد) الثراء والملك ، قدمت له السكنوز والعرش ، لأنها لم تطمئن إلى ابنها فى حماية وطن الملوك ضد الجيوش المعادية بعد موت (هوجلاك) . ولكن رغم ذلك لم يستطع الشعب الثاكل إقناع المحارب النبيل بأن يحمل (هياردريد) تحت إمرته ، لم يقبل الزعيم الكريم عرش الملك ، وزوده (بيولف) بين الشعب بالنصائح الخالصة، بالصدق الممزوج بالاحترام حتى بلغ (هياردريد) أشده ، وحكم (الجيات) .

ولجأ إليه ابنا (أوهثيرى) من وراء البحار ، احتمى به هذان الطريدان اللذان كانا قد تمردا على راعى (الشولدنج) ، خير ملوك البحار ، مانح السكنوز فى السويد ، الأمير ذى السمعة الطيبة ، وكان هذا سببا فى موت (هياردريد) ابن (هوجلاك) الذى أصابه بسبب كرمه جرح مميت بضربة سيف ، وبعدأن أسقطه (أونيلا) بن (أونجنثيو) على الأرض قفل راجعا إلى وطنه ، وترك (بيولف) يتربع على العرش ، ويحكم (الجيات). وكان ملكا عظيما .

وحرص على أن يعوض الناس عما فقدوه فى الأيام الأخيرة، فخالف (إيادجليس) الطريد ، وأيد ابن (أوهثيرى) بجيش ومحاربين وعتاد حربى عبر الخضم المترامى الأطراف ، وثأر له بعد ذلك بحملات قاسية أدت إلى القضاء على الملك .

وهكذا كان ابن (ادجثيو) قد نجا بسلام من كل معركة، ومن كل موقعة عدائية ، ومن كل تصادم تعز النجاة منه ، حتى جاء اليوم الذى اضطر فيه أن يقاتل التنين ، فذهب سيد (الجيات) بين أحد عشر رفيقا ، وصدورهم تغلى بالسخط والغضب ، ووقف منهم على سبب هذه الحرب الضروس، على علة ذلك

البغض الذى كان نكبة على الناس ، وكان ذلك الوعاء الشهير الثمين قد آل إلى (بيولف) عن طريق من عثر عليه . وأصبح ذلك الرجل المثير لهذا النزاع كله ، الثالث عشر فى الرفقة ، أسيراً تعيسا ، وكان عليه أن يرشدهم إلى مكان التنين ، فسار على الرغم منه حتى لمح مكان الحجرة الخفية فى ذلك السكهف الذى يجاور عباب البحر والمياه المتلاطمة ، تلك المقبرة التى كانت مليئة بالجواهر والتحف المكونة من سلوك ذهبية وفضية . وكان الحارس الشاكس يقوم بحراسة السكنوز أمداً طويلا ، فكان من العسير الوصول إليها .

جلس الملك ، مقدام المعارك ، على مرتفع . وخطب سيد (الجيات) الكريم فى حاشيته محييا إياهم ، وكانت نفسه قلقة متأهبة للرحيل ، مستعدة للمصير ، ويقف الرجل الهرم منه قاب قوسين أو أدنى لينتزع منه روحه العزيزة ، وليفرق بين جسده والحياة ، ولم يطل الزمن الذى ظلت فيه روح الأمير يكسوها البدن .

تكلم (بيولف) بن (ادجثيو) قائلا : « مررت فى شبابى بغارات كثيرة وخضت حروبا عديدة ، وإنى لأذكرها كلها ، ولم أكن قد جاوزت سبعة أشتية حينما تلقانى من أبى أمير المنح الثمينة ، المليك الخير للناس ، فتعهدنى الملك (خريثل)[٢٣] ووهبنى الثراء والطعام ، ذاكرا قرابتنا من العصب . ولم تكن معزته لى بين فرسان حصنه بأقل من محبته لأحد أبنائه ، (هيربيالد) (وهاثكون) ، و(هوجلاك) هذا الذى يرعانى . أما أكبرهم فقد أعد له نعش الموت فى غير أوانه نتيجة لما قامت به عصبته نفسها : لأن (هاثكون) أرداه بسهم من قوسه المشدودة بأطراف القرن ، قتل راعيه وحبيبه ؛ أخطأ الهدف وقضى على أخيه بسهم يقطردما ، اغتال الأخ أخاه . وكانت هذه جريمة لا فدية لها ،

كانت إحدى الكبائر التى تنوء بحملها القلوب ،ورغم ذلك كان لا بد أن يفارق
الأمير الحياة من غير أن يثأر له . وأنه لمؤلم أشد الألم لقلب الشيخ الهرم أن
يسمح بأن يعلق ابنه (القاتل) فى حبل المشنقة فى شبابه (٢٥) ولو حدث هذا
ما استطاع إلا أن يرثى ابنه رثاء حزيناً حينما يراه معلقاً فريسة للبزاة فى حين أنه
هو نفسه مثقل بالسنين ولا يقوى على إعانته . وفى كل صباح كان يذكر فقد ابنه ،
ولا يريد أن يولد له ابن آخر فى قلعته بعد أن تجرع أسوأ كأس بالموت القاسى .
وكان يتطلع إلى ديار ابنه تطلع الثاكل المثقل بالهموم ، يرى بهو الولائم مهجوراً ،
يرى المخدع خالياً من السعادة فقد أصبح مخدعاً للرياح . ويرقد الفرسان الأبطال فى
أجداثهم ، فلا نغم للقيثارة ، ولا لهو فى الديار كما كان فى الماضى . فيذهب إلى
حجرته وحيداً ينشد نشيداً ويبكى الراحل حزيناً. فاتسع عليه المكان دارا وحقلا .
وهكذا امتلأ قلب راعى (الجيات) بحزن غامر على ابنه (هيربيالد) ، ولم
يستطع بصورة من الصور أن يثأر من القاتل، كما أنه لم يقدر بشكل من الأشكال
أن يلحق بالمحارب (القاتل) الأذى رغم أنه لم يكن حبيباً إلى نفسه ، فثقل
قلبه بالهم . وإزاء هذا الرزء الذى أصابه هجر متع البشر ، واختار جوار الآلهة ،
وخلف لأبنائه بعد موته الأراضى والقلاع على نحو ما يفعل كل ثرى .

ثم امتدت الحرب بين السويديين (والجيات) ، عمت الكراهية العنيفة
وسارت عبر البحار الواسعة بعد أن قضى (خريثل) نحبه. وكان أبناء (أنجنثيو)
محاربين بواسل ، ولم يقبلوا السلام مع القاطنين وراء البحيرات ، فدبروا المكيدة
الخائنة أكثر من مرة بجوار مكان يدعى (خريوسنا بيورخ) .

فانتقم أهلى لهذه الحرب الآثمة كما عرف بين الناس حق المعرفة إلا أن أحدهم

دفع حياته فدية فى ذلك ، فما أقسى هذه الصفقة !! كان النزاع فتاكا بالنسبة
(لهاثكون) سيد (الجيات) ، وفى الصباح التالى ، كما قيل لى ، انتقم الأخ
لأخيه فضرب القاتل بسيفه . حدث هذا عندما التقى (أنجنثيو) (بأيفور) .
فشقت خوذة المارك نصفين ، وسقط (الشولفنج) العجوز تحت وقع السيف :
ولم تنس يد الضارب حروب الثأر ، ولم تحجم عن تصويب الضربة القاضية .

فرددت له تفضله بضربات سيفى اللامع فى المعارك كلما أتيحت لى الفرصة
فقد أقطعنى أرضا ودارا لأتمتع بهما . لذلك لم تكن هناك ضرورة للبحث عن
فارس أقل بسالة منى يغريه بالهدايا من بين (الدانيين) ، حملة الرماح ، أو
(الجفثاس)(٢٥) ، أو من بين مملكة السويد . وكنت أتقدم من أجله الصفوف أمام
العدو ، وأقف وحدى فى جبهة النضال، وهكذا سوف أحارب طوال الحياة مادام
حسامى قاطعا ، ذلك الصارم الذى أسعفنى أكثر من مرة قديما وحديثاً منذ أن
أصبحت قاتل (داجخرفن) بطل قبيلة (الهوجاس) . فلم يستطع (داجخرفن)
أن يحمل ماغنمه من عدد الحرب إلى ملك (الفريزيين) ، بل خر صريعا وسط
المعركة ، وهو الحامل للواء ، والباسل النبيل ، ولم يكن السيف قاتله بل كانت
قبضتى العنيفة هى التى هرست جسمه وأسكتت نبضات قلبه .

والآن ، ومن أجل الكنز سيكافح حد هذا الصارم وهذه اليد » .

وخطب فيهم بيولف ثانية ، ألقى كلمات الفخر والحماسة لآخر مرة قائلا :
« إنى قد حاربت كثيراً فى شبابى ، والآن سوف أذهب مرة أخرى باحثا عن
القتال فى سبيل المجد ، سوف أفعل ذلك أنا الراعى المسن لشعبى إذا لاقانى المخرب
الشرير على باب كهفه » .

ثم اتجه نحو جميع رجاله البواسل تحت خوذاتهم ، اتجه نحو أقرب رفاقه للمرة الأخيرة ، وتكلم قائلا :

« لو عرفت طريقة أخرى لمنازلة الوحش أحقق بها فخرى ، كما فعلت فى الماضى مع (جرندل) ما انتضيت سيفاً أو سلاحاً . إنما أتوقع هنا النار المحرقة ، اللهب والسم ، لذلك ارتديت الدرع وحملت الترس . ولن أتقهقر قدما واحدة أمام حارس التل ، والقدر ، سيد كل إنسان ، سيقضى بيننا أمام الحصن . وإنى لمقدام تواق للذهاب ، ويكفينى فخرا أن أواجه العدو المجنح .

فراقبوا المقبرة أيها المحاربون المسلحون ، أيها الرجال المحميون بالدروع ، لاحظوا أينا أشد جلدا فى احتمال الكلوم . والذى يحدث ليس له صلة بأى إنسان آخر سواى ، فأنا وحدى سوف أظهر قوتى أمام الوحش وأظفر بأعمال البطولة . وببسالتى سأغتنم الذهب ، وإلا قضت الحرب ، مدمرة الحياة ، على ولى نعمتكم ! » .

ثم حمل الفارس العظيم ترسه ، وارتدى درعه المتينه ، وتأهب للذهاب إلى صخور الجبل ،والحزم يتجلى تحت خوذته ،معتمداً على قوته وحدها ، وليست هذه سنة الجبان . وبعدئذ رأى البطل الممتاز بفضائله ، رأى الفارس الذى كان قد خاض غمار حروب كثيرة تلاحمت فيها الجيوش بعضها ببعض ، رأى قوساً من الصخر تنبع منه عين يغلى ماؤها على نار محرقة ، ولم يستطع البقاء برهة واحدة بالقرب من مكان الكنز لشدة اندلاع نار التنين .

وفى هذه اللحظة صاح زعيم (الجيات) ، صاح بغضب وانفعال ، رن صوته الذى طالما علا ضجيج المعارك ، وتردد صداه بين الصخور المعتمة . وكانت نار

الكراهية قد اشتعلت ، فقد سمع حارس الكنز صوت الرجل ، وفاتت كل فرصة للسلام .

وكان أول ما ظهر من سفح الجبل هو تنفس الوحش ،هو ذلك البخار الفائر ، فاهتزت له الأرض . ورفع سيد (الجيات) ترسه أمام المخلوق الغريب الرهيب ، وعندئذ صمم الوحش اللولبى أن يخوض المعركة .

وكان أمير المعارك الباسل قد شهر سيفه ، ذلك التراث العريق ، ذلك النصل الحاد ، وامتلأ كل من الخصمين رعباً من الآخر ، ولكن راعى البواسل صمد بثبات خلف ترسه المشهور حينما التف التنين على نفسه استعداداً للانقضاض ، وتأهب [البطل] للقائه مرتديا عدة الحرب ثم زحف نحوه التنين متلويا ،ونافثاً اللهب ، زحف نحوه مسرعا نحو نهايته . ولم يحم ترس الأمير الشهير جسده وحياته المدة التى كان يبغيها ، ورغم ما أظهره من كفاح لم يواته القدر هذه المرة بالنصر فى الحروب ، ورفع سيد (الجيات) ذراعه إلى أعلى وضرب الوحش الرهيب ضربة عنيفة ، ضرب بسيفه الأصيل العظيم حتى انثنى السيف على عظام الوحش ، ولم يكن ذلك بالقدر الذى كان يبغيه الملك المحارب فى هذه المحنة .

لقد ثار حارس القبر غاضباً بعد هذه الضربة القاسية ، وبصق النيران المحرقة فعمت الأرض قريبها وبعيدها . ولم يفخر أمير (الجيات) وسيع النعم هذه المرة بالنصر المبين ، فقد خانه سيف المعارك المجرد من غمده فى وقت شدته ، وما كان ينبغى أن يفعل هكذا ذلك المهند العريق فى الشهرة . كما لم يكن من السهل على ابن (ادجثيو) العظيم أن يفسح المجال لخصمه ، ولكنه كان مقدرا

له أن يغادر هذه الأرض ويبحث عن مقام فى غيرها ، وعلى هذا لا بد لكل إنسان أن يتخلى عن الحياة الفانية .

ولم يلبث الخصمان أن تلاقيا من جديد . فتشجع حارس الكنز ثانية ، وامتلأ قلبه ببوارق الأمل . أما ذلك الذى كان يحكم شعبا فقد شعر بالضيق والألم لأنه كان محاطاً بالنيران .

ولم يحاول رفاقه أبدا أن يقفوا بجواره ببسالة وإقدام ، هؤلاء الفرسان أبناء زعماء القبائل ، فقد لاذوا بالغابات ناجين بأنفسهم (٢٦) . ولكن واحداً منهم فقط هو الذى أفعم قلبه حزنا ، وإنه لمن العسير على الإنسان الفاضل الذكى أن يتخلى عن واجبات العصبية وقت الشدة .

كان اسمه (ويجلاف) بن (ويوخستان) المحارب حامل الترس الحبيب إلى شعبه ، كان أحد أمراء (الشولفنج) وعصبة (الفخيرى) . أدرك أن قائده يعانى من وهج النار تحت خوذته ، فتذكر ما أنعم به عليه فى الماضى من قصر فاخر بين شعب (الواجموندنج) ومن حكمه له كما كان أبوه من قبل . فلم يستطع أن يمنع نفسه من تناول الترس الأصفر المصنوع من خشب الزيزفون ، وأن يشهر سيفه العريق وكان ذلك الحسام معروفاً بين الناس على أنه من تراث (أيانموند) بن (أوهثيرى) الطريد الذى لا راعى له ، وكان قد قتله بحده (ويوخستان) . وكان (ويوخستان) قد سلبه خوذته المصقولة ، ودرعه المنسوجة من الحديد ، وسيفه العريق الذى صنعه العمالقة وهبه له (أونيلا) لأنه عدة حرب جديرة بقريبه . ولم يذكر (أونيلا) هذا الثأر على رغم أن من اغتاله (ويوخستان) كان ابن أخ له ، فاحتفظ (ويوخستان) بهذه العدة النفيسة أى بالسيف والدرع

بضع سنين حتى استطاع ابنه أن ينجز ما أنجزه أبوه من أعمال البطولة . ولما هرم وكان على وشك الرحيل وهب ابنه على رءوس الأشهاد من (الجيات) عدداً لا يحصى من أردية الحرب المختلفة .

وكانت هذه أول مرة يشتبك فيها البطل فى حومة الوغى إلى جانب قائده الكريم ، ولم تكل بسالته ، ولم يخنه تراثه العريق فى هذه المحنة ، وتحقق من ذلك الوحش حينما تلاقيا .

ثم تكلم (ويجلاف) ، فاه بكلمات كثيرة مناسبة للمقام ، وكانت روحه مثقلة بالهم ، واتجه نحو رفاقه قائلا :

« إنى لأتذكر الوقت الذى كنا نحتسى فيه جمة العسل فى بهو الولائم عندما أقسمنا يمين الولاء لقائدنا مانح الخواتم ، واعدين إياه أن نرد له حسن صنيعه ، بمنحه إيانا عتاد الحروب من خوذات وسيوف قاطعة ، إذا نزلت به محنة مثل هذه ولقد اختارنا بمحض إرادته رفاقا له فى هذه المغامرة ، واعتبرنا جديرين بهذا الشرف ، ومنحنا هذه الأسلحة الثمينة اعتقادا منه أننا متفوقون فى تصويب الرماح ، وأن البسالة تستقر تحت خوذاتنا . هذا على الرغم من أن قائدنا ، راعى شعبه ، كان يعتزم أن يقوم بهذا العمل الباسل وحده ، لأنه كان دون غيره من الرجال قد أنجز أعظم أعمال البطولة وأكثرها إقداما . واليوم قد آن الأوان الذى يحتاج فيه قائدنا إلى قوة المحاربين الأشداء .

فلنبادر إلى جوار أميرنا المكافح وألسنة النار لا تزال تتوهج . أما أنا — شهد الله — فأتمنى أن تلتهم جسمى النيران بجوار زعيمى الكريم . ولا يبدو لى من اللياقة أن نعود إلى ديارنا حاملين التروس إلا بعد أن نصرع العدو ، ونحمى حياة سيد (الجيات) . وإنى لأعلم علم اليقين أنه لا يستحق ما يكابده الآن بعد

ما قام به فى الماضى من أعمال مجيدة ، كما لا ينبغى أن يقع وحده فى حومة الوغى
دون سائر أبطال (الجيات) الأجلاء. فليسهم بعضنا مع بعض فى تأييده بالسيف
والخوذة والدرع والزناد » .

ثم قذف بنفسه وسط الدخان الخانق ، أسرع بخوذته ليمين قائده ولم يفه
إلا بكلمات قليلة فقال :

« يا (بيولف) الحبيب ، استبسل فى كفاحك محققا ما قلته فى شبابك
منذ القدم ، وهو أنك لن تخون مجدك . والآن يجب عليك أيها القائد المقدام ،
يجدر بك أيها الشهير بمآثره ، أن تحمى حياتك بكل ما أوتيت من قوة ،
وسأساعدك أنا بكل قوتى » .

و بعد هذه الكلمات هجم التنين ذلك الشيطان الخبيث الطوية ، انقض
ثانية محنقا وكله نار متأججة ، هجم على أعدائه اللدودين من البشر . وأحرق
طوفان اللهيب ترسه حتى آخره ، ولم تحم الدرع ذلك المحارب الشاب بصورة من
الصور ، ولكنه كافح ببسالة خلف ترس عصبته بعد أن أحرق ترسه . ثم شعر
(بيولف) الأمير المكافح بأن عليه أن ينجز الأعمال المجيدة ، فتناول حسام المعارك
وضرب (التنين) به ضربة عنيفة حتى انغرس والتصق برأسه ، ولكن ذلك السيف
المعروف باسم (ناجلنج) انشطر شطرين . وعلى هذا النحو خان (بيولف)
سيفه العريق العتيق فى ساحة النزال ، فلم يقدر له أن تسعفه النصال الحديدية فى
العراك . وكانت قوة يده أشد مما يلزم ، تلك اليد التى حملت من السيوف ما فوق
الطاقة عندما كان يشهرها فى المعارك .

ثم صمم التنين عدو الناس نافث اللهب الشديد الرهيب على أن يكافح
للمرة الثالثة ، فهجم على البطل حينما واتته الفرصة ، وكان ملتهبا ومتوحشاً فى

القتال ، وضم عنق البطل بعنف بين أسنانه الحادة ، فغمره دم حياته ، وتفجرت
جداول من العلق على جسمه .

وقد قيل لى إنه أثناء محنة ملك الشعب وقف بجواره الفارس الكريم ،
وأظهر بسالته ومهارته وإقدامه كما هى عادته ، ولم يخش على هامته ، ولكن
البطل الكاسر احترقت يده عندما أسعف عصبته بضربه ذلك المخلوق المعادى
إلى أن ضعفت قوته قليلا . وأنجز ذلك بأن غرس سيفه البراق فى يد التنين ،
فبدأت ناره تخمد .

ثم ثاب الملك إلى رشده من جديد واستل خنجره ، ذلك الخنجر الحامى
المردى الحامى فى المعارك الذى كان يحتبى به فوق زرده ، وبذلك استطاع راعى
(الجيات) أن يقصم وسط التنين . و بذلك صرعا العدو ، وكانت الشجاعة
هى التى جعلته يلفظ أنفاسه الأخيرة . إن الباسلين القريبين الكريمين قد
قضيا عليه .

و بعدئذ أخذ الجرح الذى سببه التنين يؤلمه و يتورم ، وسرعان ماشعر بأن
السم الزعاف أخذ يصعد إلى صدره ، ثم يسرى فى جسده .

ثم نهض القائد الحكيم وراح يجلس على سور المقبرة ، وهناك تأمل
ما شيده العمالقة ، ذلك الكهف العتيق الذى يحتوى فى داخله على أقواس من
الصخر مقامة على أعمدة راسخة . وحينئذ غسل التابع الوفى قائده بكلتا يديه لأنه
كان ملطخاً بدماء المعارك ، طهر حبيبه وزعيمه المرهق من الكفاح وخلع خوذته.

ثم خطب (بيولف) ، تكلم رغم آلامه وجرحه القاتل ، إذ كان يعرف

حتى المعرفة أن أيامه السعيدة على الأرض قد انتهت ، وأن الموت بانتهاء أجله
أصبح منه قاب قوسين أو أدنى . قال :

« فى هذه اللحظة كنت أود أن أخلف عدة حربى لابنى ، لو أنه قدر لى
أن أنجب ولدا من صلبى . ولقد حكمت هذا الشعب خمسين شتاء ولم يستطع أحد
من ملوك القبائل المجاورة أن يصمد أمامى بالسلاح ولا أن يثقل كاهلى بالخوف .
وقد انتظرت فى ديارى أترقب ماتأتى به الأيام وحرست مالى حراسة تامة ، ولم
أحاول أن أقوم به بمؤامرات أو دسائس ، ولم أحنث فى يمينى قط ، وبكل هذا
أجد راحة السلوى رغم أنى مريض مرض الموت ، لأن الله سيد العالم لا يمكن
أن يؤاخذنى على اغتيال قريب لى عندما ما تفارق الحياة جسدى .

فأسرع يا (ويجلاف) العزيز وتأمل فى أكوام الكنوز المستقرة تحت
الصخور المعتمة ، تأملها والتنين يرقد رقدة الموت ، ينام وجروحه بليغة وكنزه
مسلوب . أسرع حتى أستطيع أن أرى هذا الثراء العريق ، هذه الخزانة من الذهب
أسرع حتى أتمكن أنا نفسى من رؤية تلك الجواهر البراقة العجيبة ، وبذلك
أستطيع أن أفارق الحياة وأغادر الشعب الذى حكمته مثل هذه المدة المديدة بنفس
مطمئنة بعد رؤيتى هذا الثراء البالغ . »

وروى لى أنه بعد هذه الخطبة أسرع ابن (ويوخستان) إلى تلبية أمر زعيمه
الجريح فى العراك ، فذهب مرتديا زرده المنسوج بالسلاسل إلى قاع القبر ، وهناك
رأى الفارس الشاب المقدام ، رأى ، والفخر بالنصر يملأ صدره ، غير واحدة
من النفائس الثمينة ، رأى ذهبا متلألئا منتثرا على الأرض ، رأى العجائب
معلقة على جدار الكهف ، وشاهد مأوى التنين ذلك المخلوق العتيق الذى كان

يأتى فى وقت الغسق ، ونظر الى كئوس الولائم وآنية من أجناس شتى ، وجدها
صدئة وليس لها من يجلوها وحليتها منزوعة منها . كان هناك أكثر من خوذة
قديمة يعلوها الصدأ ، كما كان هناك دمالج كثيرة متقنة الصنع . فالكنز أى
الذهب الدفين فى الأرض يستطيع أن يقهر كل إنسان مهما كان دافنه

ثم رأى لواء من الذهب معلقا فوق الكنز ، وكان من أروع ما صنعته اليد
وما حاكته مهارة البشر ، وكان يتألق من فوقه نور استطاع على ضوئه أن يتبين
سطح الأرض وما عليه من كنوز . أما التنين فلم تبق فيه حياة لأن الحسام كان
قد دمره . وبعدئذ روى لى كيف أن رجلا (ويجلاف) سلب الكنز الذى
خلفه العمالقة من قديم الزمان ، وكيف أخفى فى صدره كئوس الشراب والأوانى ،
واستولى على ذلك اللواء أشد الألوية بريقا . وأما سيف الأمير الهرم ذو النصل
الحديدى فكان قد كلم قبلئذ حامى الكنوز ذلك الذى نفث فى سبيل حمايتها
لهيبه المرعب المحرق فى أوساط الليل ، وظل حتى مات ميتة أليمة .

ثم أسرع الرسول عائداً ابتغاء تسليم النفائس والقلق يساوره فيما إذا كان سيجد
قائده سيد (الجيات) لا يزال حيا فى المكان الذى تركه فيه هزيلا مسلوب
القوى . وأخيراً وجد حامل الكنوز زعيمه الأمير الشهير والدم يسيل منه وهو
أخريات حياته . وعاد ثانية يرشه بالماء حتى بدأ الكلام ينطلق من خزانة عقله

وتكلم المحارب بأسى وهو يتأمل الذهب . قال :

« إنى لأعبر بالألفاظ عن شكرى لحاكم الكل ملك المجد السيد الأزلى ،
شكرى له على هذه الكنوز التى أتطلع إليها هنا ، أشكره على السماح لى بأن
أظفر بمثل هذه الأشياء من أجل شعبى قبل أن تحين منيتى . والآن وقد

دفعت حياتى ثمنا لهذه الكنوز فاقض أنت (ياويجلاف) حاجات الشعب من الآن فصاعدا . وأما أنا فلن أستطيع البقاء معكم بعد اليوم . فأصدر الأوامر بأن المحاربين القدامى يقيمون نصبا فخما على ربوة بجوار البحار بعد الانتهاء من طقوس الحرق، يقيمون نصباً شامخا على تل (خرونسناس) (أى أكمه الحوت) تذكاراً لى أمام شعبى . وحينما يدفع البحارة سفنهم العظيمة فوق زبد الخضم سيطلقون عليه مقام (بيولف) » .

ثم خلع الأمير الباسل قلادته الذهبية من حول عنقه وسلمها لتابعه الملازم له ذلك المحارب حامل الرماح الفتى ، كما أعطاه خوذته المطعمة بالذهب وخاتمه وزرده آمراً إياه أن يحسن استعمالها وقال له :

« أنت آخر نسلنا ، آخر قبيلة (الواجموندنج) ، وقد اكتسح القدر جميع عصبتى ، أولئك النبلاء البواسل ، وعلى أن أقتفى أثرهم » .

وكانت هذه آخر كلمة فاه بها الشيخ الهرم معبراً بها عن خواطره قبل أن تلتهمه ألسنة اللهب المتأججة المدمرة . ثم غادرت روحه جسده لترحل إلى المصير المجيد للرجال الصالحين .

فأثر فى نفس الفتى أن يرى أحب الرجال إليه ملقى على الأرض ، وقد قضى نحبه بعد عناء شديد ، أما قاتله ، تنين الكهوف الرهيب ، فكان مطروحا على الأرض أيضاً مسلوب الحياة ومغلوبا على أمره . ولم يبق للتنين اللولبى أية سيطرة على كوم الكنوز لأن النصال الحديدية المتينة قد حطمته ، تلك النصال المثلومة من المعارك المصقولة بالمطارق ، حتى سقط ذلك المخلوق ، الذى كان يستطيع أن يطير فى كل اتجاه ، جثة هامدة على الأرض بالقرب من مخبأ كنوزه ولم يتمكن أبداً من أن يحلق عبر الفضاء فى منتصف الليالى مباهياً مفاخراً بكنوزه

الثمينة ، بل سقط على الأرض بيد أمير الحروب . وحقاً ما كان يستطيع أى رجل على ما سمعت ، مهما بلغ إقدامه فى أى نوع من الأحداث ، ما كان يستطيع أن يواجه لفحة نار العدو السام ، أو يسلب بيديه شيئاً من بهو الخواتم لو أنه وجد الحارس رقيباً فوق الربوة . وقد دفع (بيولف) حياته ثمناً لهذه الكنوز النفيسة وقد بلغ كل منهما نهاية الحياة الفانية .

وبعد قليل خرج الجبناء فى ساعة النزال من الغابة ، برز العشرة الرعاديد الذين خانوا واجبات الولاء ، ظهر أولئك الذين كانوا قد ارتعدت فرائصهم دون أن يستخدموا رماحهم فى محنة زعيمهم ، خرجوا حاملين تروسهم وعدة حربهم فى خزى ومعرة ، وذهبوا إلى حيث كان زعيمهم الهرم طريح الأرض عند قدمى (ويجلاف) . وكان هذا الفارس جالساً مرهقاً بجوار منكب سيده يحاول أن يعيد إليه بالماء الحياة ، ولكن بلا جدوى . ولم يستطع أن يبقى روح الزعيم على الأرض ، رغم رغبته الشديدة فى ذلك ، كما لم يستطع أن يغير أى شىء مما أمر به الإله القدير ، فإن أمر الله نافذ فى أعمال الناس من أى طبقة كانوا كما هى الحال الآن تماما .

ثم صدر من البطل الفتى توبيخ عنيف لأولئك الذين كانت قد خانتهم شجاعتهم : صاح (ويجلاف) بن (ويوخستان) ، صاح الرجل الكليم القلب وهو يحدق فيمن يزدريهم قائلا :

« حقا إن من يريد أن يصدق القول يستطيع أن يقول إن سيد الرجال ، مانح هذه النفائس ، وواهب عدة الحرب التى ترتدونها تلك العدة من خوذ وزرود طالما وهبها لكم أنتم يا أقرب الملازمين له فى بهو الولائم ، إن هذا الزعيم قد وضع العدد فى غير موضعها ، ولم تسعفه فى وقت محنته . ولم يمكن لملك

الشعب أن يفخر برفاقه فى ميدان القتال ، ولكن الله الذى يمنح النصر من يشاء قدر له أن يدفع عن نفسه بالسيف بغير معين فى الساعة التى احتاج فيها إلى الشجاعة . ولم أستطع أنا نفسى أن أحميه فى شدته إلا حماية غير ذات بال ، غير أننى جاهدت مع ذلك أن أنصر قريبى بأكثر مما تستطيع قدرتى ، وأصبت العدو الفتاك بحسامى حتى همد ، وشرعت النار التى كان ينفثها من رأسه تخبو . فما أقل المدافعين الذين التفوا حول زعيمهم فى ساعة الحرج والشدة . أما منذ الآن فسيعوز شعبكم تسلم الكنوز والسيوف الممنوحة ، سيعوزه كل سعادة لتملك أى سلوى فى الحياة . ولقد قضى على كل فرد من نسلكم أن يهيم على وجهه فى الأرض مسلوب العقار والضياع حينما يترامى إلى آذان النبلاء فى كل مكان من الدنيا خبر فراركم وعملكم المخزى . والموت خير لكرام النفوس من حياة كلها عار » .

ثم أمر بأن يذاع خبر النزاع فى القلعة الكائنة فوق الجبل المشرف على البحر حيث كان المحاربون الكرام حملة التروس قد ظلوا طول الصباح يتوقعون أحد أمرين : إما هلاك الزعيم العزيز أو عودته اليهم سالما . والفارس الذى تسلق الجبل أظهر الحقيقة بحذافيرها من غير أن ينقص منها شيئا . قال فى حضرة الجميع :

« الآن يرقد مانح المسرات ، سيد شعب الجيات على سرير موته ، يضطجع مذبوحا على فراشه نتيجة لأعمال التنين ، ولكن عدوه اللدود ينطرح بجواره ممزقا بطعنات الخنجر ، أما البطل نفسه فلم يستطع بحال من الأحوال أن يجرح الوحش بسيفه . والآن يجلس (ويجلاف) بن (ويوخستان) بجوار (بيواف) ، يجلس البطل الحى بجوار البطل الميت ، ويحرس رأسى صديق وعدو ، وقلبه مفعم بالاكتئاب . ومن المحتمل أن يمر الشعب بفترة حروب حينما

يذيع خبر سقوط الملك لدى (الفرنج) و (الفريزيين) . وقد بدأ النزاع القاسى ضد (الهوجاس) (أى الفرنج) حينما أقبل (هوجلاك) على رأس أسطول إلى (الفريزيين) ، وهناك هزمته قبيلة (الهتوارى) فى ميدان القتال ، فاضطروه بتفوقهم فى العدد إلى الاستسلام ، وسقط الزعيم المدرع بين أتباعه ، ولم يتمكن من أن يمنح قلادة واحدة الى أحد من ملازميه . ومنذ ذلك الحين حرمنا رضا الملك (الميروونجى) (الفرنجى) . وإنى لا أتوقع سلاما ولا إنصافا من شعب السويد ، لأنه معروف للجميع ان (أونجنثيو) حرم (هائسكون) بن (خريثل) حياته بجوار غابة الغداف عندما غزت قبيلة (الجيات) بغطرسة وكبرياء قبيلة (الشولفنج) المشغوفين بالحروب ، وسرعان مارد عليه أبو (اوهثيرى) المحارب العجوز الرهيب بضربة مماثلة قتل بها ملك البحار (هائسكون) . ورغم شيخوخته استطاع أن يحرر زوجته أم (اونيلا) (واوهثيرى) من الأسر بعد أن سلبت حليها الذهبية . ثم طارد أعداءه الألداء حتى احتموا بعد جهد جهيد بغابة الغداف من غير قائد . فحاصرهم بجيش عظيم ، أحدق بأولئك الذين أفلتوا من وقع السيف وكانوا بسبب جروحهم فى حالة شديدة من الأعياء والضعف . وكثيرا ما كان ينذر تلك الفلول البائسة بنكبة مهددا إياهم بأنه سيهشمهم فى الصباح بشباة سيفه ، وأنه سيعلق بعضهم بفروع الشجر ليكونوا فريسة للطيور الجارحة . غير أن العون أقبل الى البائسين فى مطلع الفجر حينما سمعوا أبواق (هوجلاك) ، وعندما تتبع آثارهم المحارب المقدام على رأس جماعة مختارة من جنوده

وكانت الآثار الدامية لقتال السويديين والجيات وذلك العراك المبيد للرجال بادية فى كل مكان ، فما أكثر ما أشعل هذان الشعبان حروب الثأر بينهما . ثم مضى الملك المقدام ، الشيخ الثاكل ، مضى على رأس رجاله إلى قامته ، أما

(اونجنثيو) فقد ابتعد لأنه قد جرب قوة (هوجلاك) فى الكفاح، وكان يعرف مهارة ذلك الممتز بنفسه فى الحروب ، ولم يكن مطمئنا الى المقاومة ليمنع غزو البحارة ويجنب أمواله وأبناءه وزوجه غارات عابرى اليم ، فتقهقر الرجل العجوز الى ما وراء جدران حصنه الطينى . ثم بدأت مطاردة السويديين . فلما تسلق (الجيات) الجدران رفرفت أعلام (هوجلاك) فوق الحصن .

ثم سقط فى يد (اونجنثيو) الأشيب أمام نصل السيوف ، واضطر ان يخضع (فى النهاية) لإعدامه بيد (ايوفور) وحده ، ثم أخذ (ولف) بن (ونريد) يضربه بسلاحه بعنف حتى تفجر الدم من العروق تحت شعره ، ولكن المحارب الهرم صمد للضرب ، وسرعان ما قابل الضربة العنيفه بأشد منها ، ولم يستطع ابن (ونريد) السريع الحركه أن يرد الضربة بمثلها لأن (اونجنثيو) كان قد شق خوذة (ولف) من فوق رأسه حتى خر مغشيا عليه ؛ وسقط على الأرض غير أنه لم يمت بعد ، بل أفاق رغم ان الجرح كان شديد الإيلام . ولما رأى (ايوفور) تابع (هوجلاك) الباسل أخاه طريح الأرض شهر سيفه وحطم به ترس الملك وخوذته الكبيرة ، فخر الملك صريعا على الأرض ، جرح راعى شعبه جرحا مميتا

ثم اقبل الكثيرون يضمدون جراح أخى (أيوفور) (ولف) ، وأنهضوه بسرعة حينما تم لهم النصر فى ميدان القتال ، وانتزع (ايوفور) أثناء ذلك زرد (اونجنثيو) الحديدى وسيفه القوى المقبض وخوذته ، وبذلك جرد فارسا فارسا آخر من عدة حربة ، وحمل أسلحة المحارب الهرم إلى (هوجلاك) . فتقبل (هوجلاك) الغنيمة ، ووعده بشرفه أن يجازيه أمام الرجال ، وهذا ما عمله فعلا ، فقد كافأ سيد الجيات ابن (خريثل) (ولف) (وايوفور) بالكنوز العديدة

حين عاد إلى وطنه جزاء ما قاما به فى حومة الوغى ، وأعطى كلا منهما ما قيمته مائة الف « شات » من الأرض والخواتم المبرمة . ولم يستطع أحد من الناس أن يلومه على هذه المنح ، لأنهما قد استحقا هذا الشرف بكفاحهما .

وقد زوج ، فضلا عن ذلك ، بنته الوحيدة من (أيوفور) تأكيدا لرضاه ولتكون زينة لمنزل زوجها .

وهذه هى قصة الثأر والعداوة والكراهية العنيفة بين الناس ، والتى ستجعل السويديين من غير ريب يغزوننا بمجرد أن يعرفوا أن قائدنا قد مات ، ذلك البطل الذى كان يحمى فى الماضى تراثنا ومملكتنا من غزو الأعداء ، ذلك الفارس الذى كان يدافع عن خير المحاربين ذوى التروس بعد أن هلك عظماؤهم وذلك الملك الذى نمى رفاهية الشعب وأنجز أيضا الأعمال الباسلة .

والآن يجدر بنا أن نسرع ونذهب هناك إلى ملك الشعب ، ونحمل مانح الكنوز على أكتافنا فى طريقه إلى المحرقة . وعندما يحترق الفارس الباسل لن يحترق وحده فهناك كوم من النفائس والذهب الذى لا يعد ، والذى اقتنى بثمن باهظ ، وهناك خواتم دفع حياته ثمناً لها ، كل هذا ستلتهمه النار أيضاً ، جميع هذا سيكون طعما لألسنة اللهيب . ولن يرتدى فارس واحد شيئاً من النفائس ، ولن تلبس غانية واحدة قلادة مبرومة حول جيدها تخليدا لذكراه . ولكنهم جميعاً سيشردون مرارا ، لامرة واحدة ، فى غير أوطانهم والحزن يملأ أفئدتهم ، والذهب سلب منهم . سيشردون الآن بعد أن جانب قائد الجيوش الضحك والسعادة والمرح . لذلك ستبرد الرماح فى الصباح وتقبض عليها الأصابع ، وتشهرها الأيدى ، ولن تشجى القيثارة قلوب المحاربين ، ولكن الغداف الأسود المحلق فوق الرجال المقضى

عليهم بالهلاك سيقص أشياء كثيرة، وسيقول للنسور إنه سبقها فى الوليمة عندما كان يصارع الذئب فى نهش رفات الموتى.

وهكذا قص الفتى المقدام قصصاً محزنة، وكان قريباً جداً من الحقيقة والصواب فى سرده للأحداث.

فقامت الجماعة قومة رجل واحد، ومشوا محزونين والدموع تترقرق فى مآقيهم، ذهبوا إلى ربوة (إمار ناناس) ليرقبوا المنظر الرهيب، وهناك وجدوا ذلك الذى كان يمنحهم الخواتم فى سالف الزمان ملقى على الرمال فاقد الحياة ومستلقياً على سرير الراحة. وقد شهد هذا المكان آخر يوم فى حياة البطل، فى حياة الملك المحارب أمير (الجيات) عندما مات ميتته العجيبة، ولكنهم رأوا أول ما رأوا منظرا غريباً، رأوا التنين البغيض ملقى على الأرض إزاء الملك. ذلك التنين النارى البراق الذى كان لايزال يتقد جمراً، والذى كان طوله يبلغ خمسين خطوة، والذى كان قد عاش الليالى الخالية يتنسم نسيم المرح والسعادة. وما أكثر ماهبط ملتمساً مخبأه، وها هو ذا الآن جامد متصل بالموت، وقد نشد آخر كهف له فى الأرض. وكانت الكئوس والأباريق وصحائف الطعام والسيوف الثمينة التى كانت قد تآكلت من الصدأ، كأنها ظلت فى باطن الأرض ألف شتاء، كانت كلها ملقاة بجانبه على الأرض. وكان هذا التراث العظيم كنز الذهب للقدامى وقتئذ، كما كان مسحورا بحيث لايستطيع أى إنسان أن يمس بهو الكنوز لولا أن الله هو الناصر للحق، حامى الرجال منح من شاء أن يكشف عن الكنز، منح الإنسان الذى رآه جديرا بذلك.

ثم أصبح من الواضح أن الطريقة التى سلكها من أخفوا الكنز تحت جدران الصخور بدون وجه حق لم تفلح فالحارس كان قد اغتال أحدهم، وبذلك تم الثأر على أقسى صورة، وما كان يعرف كائن من كان أين يلقى البأس المقدام حتفه، ولا متى يجلس ثانية على مائدة الشراب مع عصبته، وهذا ما حدث (لبيولف) حينما نشد حارس المقبرة، وبحث عن القتال المردى، ولم يعرف هو نفسه على أية صورة يموت. والأمراء الذين كانوا قد اكتنزوا هذه النفائس دعوا بأن تحق اللعنة على من يسلبها إلى يوم الدين، دعوا بأن يعتبر آثما فيحبس فى كهوف الشياطين، ويقيد بقيود من جهنم، ويعذب أشد تعذيب، وليت (بيولف) لم تحن منه نظرة إلى كنوز الذهب اللعينة.

بعدئذ تكلم (ويجلاف) بن (ويوخستان) قائلا:

« كم عانت النفس الكريمة نتيجة لإرادة غيرها كما حدث فى حالتنا هذه. إننا لم نستطع مطلقا أن ننصح أميرنا العزيز حامى المملكة، ولا أن نصرفه عن مهاجمة حارس الذهب وأن يتركه فى البقعة التى ظل راقداً فيها مدة مديدة، ويدعه غافيا فى داره حتى نهاية الدنيا، ولكنه تمسك بمصيره المحتوم، وها هو ذا الكنز مفتوحا أمام الأنظار. اقتنى بعناء شديد، فما أقسى ذلك القدر الذى دفع بملك الشعب إلى هذا المكان! لقد كنت فى الداخل ورأيت كل شىء من كنوز ذلك البهو عندما أتيحت لى الفرصة، ولكن لم يسمح لى بأى شكل من الأشكال أن أنزل تحت جدران الصخور بطريقة سلمية، فلقد انتزعت بيدى حملا ثقيلا من الكنوز المكومة، ونقلتها إلى مليكى فى هذا المكان وكان لايزال حياً وواعياً ومحتفظاً بقواه العقلية، وقد قال الشيخ الهرم أشياء كثيرة وهو يعالج سكرة الموت:

أمرنى بأن أحييكم وآمركم جميعاً بأن تقيموا نصباً عالياً يتناسب مع أعمال البطل فوق مكان المحرقة . فليكن عظيما فخما ، لأن (بيولف) كان أكرم المحاربين من بين رجال الأرض الشاسعة ، وطالما سمح له أن ينعم بثرائه فى قلعته . تعالوا معى الآن ولنسرع لنرى مرة ثانية كوم الكنوز المحكمة الصنع ، ذلك المنظر العجيب تحت جدران الصخور ، وأنا سأبين لكم معالم الطريق حتى تروا عن قرب الخواتم والذهب السميك . وليكن التابوت معدا بسرعة حينما نعود . ثم تعالوا نحمل مليكنا ذلك الرجل العزيز إلى حيث يظل طويلا فى رعاية المولى » .

ثم أعطى ابن (ويوخستان) تعليماته ، أصدر الأوامر إلى كثير من الفرسان وقادة الشعب بأن يحضروا أخشاباً المحرقة من أقصى الأماكن حتى توضع بجوار الزعيم المقدام ، و بعدئذ قال :

« والآن فلتصعد ألسنة اللهيب السوداء عالية ؛ ولتلتهم النار الآن سند المحاربين القوى ، ذلك الذى طالما واجه وابل الحديد عندما ارتعدت أعاصير السهام بعد تصويبها من أوتار القسى فوق جدار التروس ، وحينما أدت سنان السهام المريشة واجبها ودفعت ريشها إلى الأمام »

و بعد ، فإن ابن (ويوخستان) الحكيم نادى فرسان الملك المصطفين من بين الزمرة وكانوا يبلغون سبعة فى العدد ، ويمم بصحبة الفرسان السبعة داخل كهف العدو ، وكان من يسير أمامهم يحمل فى يده مشعلا متقدا ، ولم تكن هناك ضرورة للاقتراع على من يكون أول من يغتنم من الكنز نصيبه عندما دخل الرجال ذلك الكهف ووجدوا ما به مباحا . ولم يفكر أحد منهم فى أن يسرع ليستولى على شىء من الكنوز الثمينة . وكل ما فعلوه أنهم قذفوا بالتنين من فوق الصخرة المشرفة على البحر ، وتركوا الأمواج تحتضن حارس الكنز ثم تبتلعه . وحملت

عربة قدرا لا حصر له من الذهب المبروم ، وحمل كذلك الأمير المحارب الأشيب حملا إلى (خرونسناس) « أكمة الحوت » .

ثم أعد له شعب الجيات محرقة راسخة(٢٧) ، وعلقوا حوله الخوذات وتروس المعارك والزرود البراقة تنفيذا لوصيته ، وأوقف رجال أشداء وسطها والدموع تفيض من محاجرهم على الأمير الشهير قائدهم المحبوب . وبعدئذ أخذ المحاربون يوقدون فوق الربوة أضخم المحارق ، وكان الدخان المتصاعد من الخشب المحترق قاتم اللون ، وزئير اللهب يمتزج بنحيب الباكين ، وسكنت الرياح حتى تفتت الجثة بالحرارة التى بلغت أقصى باطنها ، وبقلوب مثقلة بالهموم عبر الثاكلون عن بؤسهم و بكوا موت قائدهم ، وشدت امرأة عجوز شعرها إلى أعلى وأنشدت نشيداً شجيا فى ذكرى (بيولف) مرددة أنها تخشى على نفسها مصائب الدهر ، كما تتوقع المذابح وإرهاب العدو والذلة والأسر . ثم ابتلعت السموات الدخان .

و بعدئذ أقام شعب (الجيات) نصباً ضخماً فوق الصخرة ، يتساوى عرضه وارتفاعه فى الطول ، وكان من اليسير أن يراه القادمون نحو البحر من بعد . و بعد عشرة أيام وضعوا فوقه منارا تذكارا للمحارب المقدام فى المعارك . أما الرماد فقد أحاطوه بسور أمهر الصناع ، ووضعوا داخل القبر القلائد والنياشين ، تلك الحلى التى كان الرجال قد استولوا عليها من الكنز .

وتركوا تراث أكارم القدامى وديعة فى الأرض ، تركوا الذهب فى التراب حيث لا يزال موجوداً عديم الفائدة للناس كما كان من قبل . وامتطى اثنا عشر فارساً جيادهم وطافوا حول القبر باكين على فقيدهم ، نادبين مليكهم ، منشدين

أناشيد الأسى ومعددين مناقب بطلهم . كانوا يمجدون فيه الرجولة ، و يمتدحون أعماله الباسلة . وإنه لجدير بالرجال أن يمدحوا رفيقهم وقائدهم ، وأن يجلوه فى شغاف قلوبهم بعد أن فارقت روحه جسده .

وهكذا بكى شعب (الجيات) قائدهم ، بكى ندمان الولائم رفيقهم قائلين إنه كان من بين ملوك الأرض خير الرجال ، وأطيبهم وأكرمهم لشعبه ، وأكثرهم تحمساً للمجد .

هوامش الملحمة

(١) شولد شيفنج Scyld Sceling : يقابل فى الأساطير السكندنافية البطل « Skjoldr وقصة قدوم شولد شيفنج وذهابه ، وما فيها من غرابة ، نرى قصص قدامى المؤرخين من الإنجليز تنسبها إلى أبيه لا إليه ، فنرى المؤرخ وليم أوف مامزبيرى William of Malmesbury يقول إن الطفل شيف اسمه مأخوذ من اسم حزمة القمح ، وذلك أن حزمة من القمح وضعت بجوار رأسه وهو راقد فى السفينة التى حملته ، أما المؤرخ أثيلورد Ethelwerd فيقول إنه لا أساس للزعم القائل بأن حزمة من القمح وضعت بجوار رأسه إنما هو كمية كبيرة من الأسلحة الثمينة ، والحق بين هذا وذاك غير واضح ، على أن هناك رأياً آخر يقول به العالم الإنجليزى الأستاذ تشمبرز R.W. Chambers وهو أن اسمه مكون من مجموعة الحروف الأولى لأسماء الملوك الذين سبقوا عصره ، وإذن فهو ليس إنساناً حقيقياً . . .

هكذا نجد القول حول هذه الشخصية متشعباً ، إلا أن الصورة التى ترسم لقدومه وذهابه لها مثيل فى كثير من الأساطير السكندنافية والجرمانية ، وقد يكون مصدر هذا طبيعة تلك البلاد المحوطة بالبحار . لهذا فكل الغرائب تنسب إلى تلك البحار .

(٢) هيوروت (Heorot) : هذا الاسم معناه « الوعل» وكان فوق عضادتى باب هذا القصر قرون وعل علقت عليه منذ إنشائه ،فربما كان هذا سبب التسمية. ولكن بعض العلماء يرون أن تلك التسمية ترجع إلى ديانة قديمة كانت سائدة فى هذه المنطقة ، وكان من شعائرها عبادة الوعل ، فكل ملك ينشىء قصراً يتخذه مقراً لحكمه كان ينسبه إلى الوعل تبركا .

وفى الأبيات من ٨٢ إلى ٨٥ من الملحمة إشارة إلى أن النار قد دمرت هذا القصر خلال حرب مع الهيانوبارد ، ويقال إن مثل هذا قد حدث أيضاً لقصر

اسكندناف كان فى قرية تسمى « خليذر » ويروى أن القصر هيوروث كان فى هذه المنطقة نفسها .

(٣) الهيالفدينى: اسم لقبيلة تنسب إلى «هيالفدينى» رأس ملوك الدانيين ، ثم نسبت هذه القبيلة إلى « شولد » حين ظهر فأصبحت تسمى « الشولدنج » أى أبناء شولد . وهناك رأى آخر يقول إن كلمة « الهيالفدينى » أى النصف دانيين تشير إلى الامتزاج الذى تم بين قبيلتين قديمتين هما قبيلة الهيرولى Heruli والدانيين عقب انتصار الدانيين على الهيرول ، ومن هذا الامتزاج نشأت قبيلة الهيالفدينى . وذلك فى حوالى سنة ٥٠٠ بعد الميلاد .

(٤) كان من المعتقدات الشائعة عند اليهود والمسيحيين أن طوائف الوحوش والعمالقة والمذنبين من سلالة قابيل بن آدم الذى قتل أخاه هابيل فكان بذلك أول مرتكب جريمة قتل على وجه الأرض ، لهذا نسب جرندل إلى قابيل . وفى هذا العصر كان الشائع أن كل بطل خير ينسب إلى سلالة ملكية ، وكل بطل شرير ينسب إلى قابيل .

(٥) هذا التفسير تداولته تأويلات متعددة بعضها يناقض بعضاً للأسباب الآتية :

أولا — كلمة Gifstol معناها : عرش ولكن ليس هناك ما يخصص هذا العرش أهو عرش الله ، أم عرش الملك خروثجار ، ؟

ثانيا — كلمة Gretan ومعناها يقرب من .. ، أويهاجم .

فإن كان المقصود بالعرش هو عرش « خروثجار » فمعنى ذلك أن جرندل حاول أن يتقرب من عرش هذا الملك أملا فى نيل هداياه كغيره من أفراد حاشيـة الملك ، ولكن قدرة الله حالت بينه وبين ما يشتهى لأنه فى قلبه لا يدين بالولاء للملك ، ولأنه احتل البهو بدون إذن منه . ويستنبط من هذا أن شاعر الملحمة من المؤمنين بفكرة أن « الملك ظل الله فى أرضه » .

أما إن كان العرش يراد به عرش الله فيكون الغرض أن هذا الوحش من سلالة قابيل ، فلن يصلح لأن يكون من المقربين إلى الله لأنه طريد رحمته .

وسياق الكلام الذى قبل هذا التعبير يجعلنا نميل إلى أن المقصود هو عرش « خروثجار » .

(٦) تتضمن هذه الأبيات من المعانى ما يدل على عميق إيمان الشاعر ماشىء الملحمة المسيحية التى اعتنقها حديثاً ، فنحن نراه يهاجم فى عنف ما قام به الدانيون إبان شدتهم من طقوس وثنية ، ومن المعروف عن الملك « خروثجار » أنه كان مسيحياً . ومؤدى هذا أن الدانيين كانوا قد تنصروا حديثاً ولاتزال الوثنية عالقة بقلوبهم ، فلما دهمتهم الشدة عادوا تلقائياً إلى قديم عقائدهم ، والشاعر يهاجمهم فى ذلك بشدة لحماية العقيدة الجديدة التى آمن بها .

(٧) كانت صورة الخنزير البرى تتخذ شارة يضعها المحاربون فوق خوذاتهم ولم يكن ذلك لإرهاب العدو كما قد يظن ، ولكنه يرجع إلى عهد سحيق كان الوثنيون أثناءه يعبدون إلها صاغوا له صنما على هيئة خنزير برى ، وكانوا يعدون هذا الإله « حامى المحاربين » أو احتماء به صاغوا شارتهم على صورته وتمثاله .

(٨) يفهم من هذه الأبيات أن بيولف لم يدرس حالة جرندل قبل أن يحاربه ، لذلك أراد أن يقابله مقابلة الند للند ، وفاته أن هذا الوحش لا تؤثر فيه الأسلحة التقليدية ، وإقدامه على مصارعة هذا الوحش بيديه يدل على اعتزازه بقوته من جانب ، ويدل على جهل حقيقة هذا الوحش من جانب آخر .

(٩) فى الآداب الجرمانية القديمة تنسب الأسلحة إلى « ويلاند » Weland حداد الآلهة ، وهو يقابل « هيفايستوس » Hephaistos عند الإغريق ، أو فولكانوس Vulcanus عند الرومان ، وسبب نسبة الأسلحة الجيدة إلى ويلاند وإعجابهم به أنه لما شاعت المصنوعات المعدنية فى أعقاب العصر الحجرى قوبلت

بدهشة وإعجاب ، وحسب القوم أنها فوق طاقة البشر فنسبوها إلى هذا الإله .

وكلمة Wyrd (المقادير) التى تقابل عندنا « القضاء والقدر » تعنى عند المجتمع الوثنى فى هذا الحين الذى هو موضوع الملحمة تلك القوة التى تصيب بالخير أو الشر خبط عشواء . ومن الجدير بالذكر أن هذا التعبير العميق فى الوثنية مر ذكره فى آخر خطبة لبيولف ، وكان قد ذكر فى أول هذه الخطبة الاحتماء بالله . ويفهم من هذا أنه كان قد دخل المسيحية حديثا إلا أن رواسب الوثنية ظلت عالقة بذهنه أو قلبه .

(١٠) Unferth شخصية معقدة فى هذه الملحمة . فبعض من تناولوها بالتحليل قالوا إنه يمثل المستشار الشرير ، وقالوا إن اسمه يدل على هذا ، إذ أن معنى « أونفرت » هو « من يعكر السلام » . وله جذور فى الأساطير الجرمانية القريبة أكثر مما له فى الأساطير السكندنافية . ولم توضح الملحمة وظيفته فى بلاط خروثجار توضيحا كافيا ، فهى تسمى هذه الوظيفة Thyle وهى كلمة تؤدى معانى كثيرة منها : الحكم ، والخطيب ، والشاعر البارع ، ومؤرخ الملوك ، وكبير الأمناء ، ومضحك الملك . وطريقة خطابه لبيولف يفهم منها أنه قد منحه حرية الكلام .

وأيا كان الأمر فالذى لاشك فيه أنه كان يتبوأ مكانا ممتازا فى القصر إذ أنه كان ملازما للملك . ومؤلف الملحمة يسبغ عليه صفات متضاربة فيصفه بأنه حاضر البديهة ، وأنه ذو نفوذ كبير فى الحاشية ، وباسل فى الحروب ، وأنه حريص على سمعته ، وأنه قاتل أخيه . . ومع ذلك فقتله لأخيه لم يغض من شأنه فى البلاط الملكى ، إلا أن الشاعر بحكم مسيحيته يجعل مقره فى الآخرة جهنم . ومن هذه الصفات أيضا أنه غيور ، بلغت به الغيرة أشدها من بيولف فى أول لقاء بينهما . ولكنه حين سمع خطبة بيولف وما اشتملت عليه من تمجيد له تلاشت تلك الغيرة ، وحل محلها حب دفعه إلى أن يعيره سيفه الذى حمله حين ذهب ليقاتل أم جرندل .

(١١) تدل هذه الأبيات على أن الشاعر يرى أن الإيمان بالقضاء والقدر يجب أن يقترن بالسعى والعمل ، لأن الله لايعين إلا من يعمل . ونرى الشاعر هنا عقيدته مزيج من الوثنية المؤمنة بالقوة الخفية العمياء التى قلنا إنها ترادف القضاء والقدر ، ومن إيمان المسيحى الذى يؤمن بأن الله يعين من يعين نفسه .

(١٢) يتحدث مؤلف الملحمة على لسان شاعر خروثجار عن قصتين لهما شهرة فى الأساطير السكندنافيه ، وأولاهما قصة « سيجموند » ويريد بها أن يرفع بيولف إلى مرتبة البطل العظيم ، لكنه لم يذكر القصة بدقة ، إذ نراه ينسب قصة مكافحة التنين إلى سيجموند ، وهى منسوبة إلى سيجفريد ابن سيجموند . إلا أن مؤلف الملحمة الانجليزى روى القصة كما سمعها إذ لم تكن فى وقته قد حققت ودونت . أما القصة الثانية فهى قصة « هيريمود » Heremod الملك الظالم الذى ورد ذكره على سبيل العظة لبيولف حتى لا يغتر بانتصاراته ، ذلك أن « هيريمود » بدأ حياته ملكا شجاعا خيرا مخلصا لشعبه ، ولكنه تحول فيما بعد إلى ملك ظالم .

ويرى الناقد الألمانى « مولنهوف » (Karl Mullenhof) أن « هيريمود » ليس إلا شخصية رمزية ، وأن معنى اسمه « الطبيعة المحاربة » ، والشاعر يرمز إلى أن الحرب تكون فى أولها حسنة ثم تسوء فى آخرها . وهذا يتمشى مع الشاعر العربى عمرو بن معد يكرب الذى يقول :

الحرب أول ماتكون فتية ... تسعى بزينتها لكل جهول
حتى إذا اشتدت وزاد ضرامها ... أمست عجوزا غير ذات خليل
شمطاء جزت رأسها وتنكرت ... مكروهة للشم والتقبيل

ولكن « هيريمود » برغم تحريف اسمه فى أساطير متعددة لابد أنه كان

معروفا فى الأساطير الكندنافية . وهدف شاعر الملحمة من الاستطراد إلى ذكر هاتين القصتين هو الكلام بطريق غير مباشر عن بيولف .

(١٣) العلاقة التى يعرضها خرونجار على بيولف ليست علاقة التبنى بالمعنى الدقيق ، ولكنها لاتكاد تخرج عن كونها علاقة صداقة بين شخصين متفاوتين فى العمر ، قد يكون هدفها إقامة علاقة ولاء فى السلم والحرب كما يكون الأمر بين القبيلة وأى عضو من أعضائها المخلصين .

(١٤) تلك ثانى إشارة يتنبأ فيها مؤلف الملحمة بتدمير القصر « هيوروت » حرقا . أما خروثولف فهو ابن هالجا الأخ الأصغر لخرونجار ، وبعض المصادر التاريخية تشير إلى أنه بعد موت خرونجار تولى خروثولف قيادة حرب أهلية فى الدانيين كان من ضحاياها ابن خرونجار وخليفته خريثريتش وبذلك استولى على العرش .

(١٥) نظرا لشعور خرونجار بأنه مسئول عن سلامة ضيوفه قام عنهم بدفع الدية من ماله الخاص برغم أنه ليس القاتل ، ولا أحد من أفراد قبيلته يعتبر قاتلا .

(١٦) هذا الجزء من الملحمة تضارب فيه النقاد أكثر مما تضاربوا فى غيره من الأجزاء الاخرى . ويظهر أن قصة « فين » كانت معروفة لمستمعى ملحمة بيولف،لذلك اكتفى الشاعر بمجرد التلميح لها. وإذا كانت مفهومة لدى معاصرى مؤلف الملحمة فهى ليست ميسورة الفهم فى عصرنا ، غير أن هناك إشارة إليها فى جزء من قصيدة كشف عنها فى القرن السابع عشر ، ولم يبق منها إلا ٤٨ بيتا مسجلة على صفحة من أحد كتب المواعظ التى وجدت فى مكتبة قصر رئيس أساقفة كانتربرى ، وقد فقدت هذه المخطوطة الا أن الذى كان قد عثر عليها

نسخها بخط يده ، ونشرها سنة ١٧٠٥ ضمن كتاب سماه . « كنز اللغات الشماليه القديمة »

(Linguarum Vett. Septentrionalium Thesaurus)

وفى هذا الجزء من القصيدة وصف للمعركة ، بدون عرض لنتائجها المؤسفة التى تشير إليها الملحمة .

وخلاصة هذا الجزء من القصيدة أن ستين مقاتلا من الدانيين بقيادة فارس يدعى « خناف » Hnaef كانوا ضيوفا على ملك الجوت والفريزيين فى قصره ، وحدث أن جماعة من شعب هذا الملك هاجموا ضيوفه وهم فى قصره غدرا وخيانة ، واستطاع هؤلاء الدانيون ان يصمدوا فى القتال . وأن يتحصنوا فى القصر مدة خمسة أيام دون أن يصاب منهم أحد . . . .

عند هذا الحد ينتهى الجزء الذى وصل من القصة أما باقيها فهو مفقود . وكان من حسن الحظ أن الحلقة الموجودة من الملحمة تبدأ من حيث انتهى هذا الجزء من القصيدة الضائعة . وخلاصة هذه الحلقة أن جماعة من الدانيين بقيادة « خناف » تعرضت لمهاجمة من فرسان « فين » ، وكان « فين » متزوجا من أميرة دانية تدعى « هيلد بورخ » Hildeburh وهى أخت « خناف » Hnaef وفى هذه المعركة قتل « خناف » كما قتل ابن « هيلدبورخ » من « فين » ، ولما قتل « خناف » قام مقامه فى قيادة الدانيين « هنجست » Hengest وتعرض جيش « فين » لخسائر جسيمة ، ومع ذلك لم يستطع إخراج الدانيين من القصر ، لذلك عرض عليهم معاهدة سلام كان من نصوصها أن يظل القصر ملكا مشاعا للجوت والفريزيين والدانيين على السواء .

وتنص الحلقة أيضا على أن « فين » عندما بدأ يوزع غنائم الحروب جعل للدانيين نصيبا منها كنصيب الآخرين لأن «فين» يعتبر مسئولا عن قتل « خناف ».

الذى كان ضيفا فى قصره ، ولأنه كان مما يعد عارا كبيرا فى هذا الحين أن المحاربين يخضعون لقاتل زعيمهم فلهذا تضمنت نصوص المعاهدة أن يعدم كل من يحاول إثارة النزاع من جديد ، أو يحاول إثارة العداوة بذكرى الماضى .

وبعد أن صدق الطرفان على هذه المعاهدة نقلت جثث القتلى من الجانبين ، وتم إحراقها وفقا للطقوس التى كانت سائدة وقتئذ . وبقى « هنجست » مع أتباعه طوال فترة الشتاء فى قصر « فين » ، ولم يستطع خلال هذه المدة أن يبعد عن ذهنه فكرة الثأر لزعيمه وللقتلى من قومه .

وحدث فى بعض الأيام أن أحد الشيوخ من رجال « خناف » تقدم منه ، ووضع السيف فى حجره ، وكان معنى ذلك حثه على الثأر والانتقام لقومه ، ثم وقف اثنان من أتباعه أحدهما يدعى « جوثلاف » ، والآخر يدعى « أوسلاف » وأخذا يشكوان مايلقيان من ذل وظلم ، ويلومان « هنجست » باعتبار مسئولا عن هذا الوضع المزرى » .

تحت تأثير هذا كله بدأ تدبير طريقة للثأر ، وفعلا شنت الحرب ، وقتل « فين » داخل قصره . وبعدئذ استباح الدانيون جمع الغنائم ، واختطفوا « هيلد بورخ » وعادوا بها مع الغنائم إلى بلادهم .

(١٧) أشير فى الملحمة إلى هذه الغارة فى أربعة مواضع ففى البيت ١٢٠٢ وما بعده إشارة إلى تهور « هوجلاك » فى الإغارة ، وإلى هزيمته جزاء هذا التهور وفى البيت ٢٢٥٤ وما بعده إشارة إلى قبيلة « الهيتوارى » وهم من الفرنج الذين يقطنون على ضفاف نهر الراين ، ويوصفون بأنهم من أعداء « هوجلاك » ، وفى الأبيات إشارة إلى ما أبداه بيولف من البسالة فى قتالهم ، وكيف أنه فر من المعركة سابحا فى الماء . وفى البيت ٢٥٠١ وما بعده وصف للصراع بين « بيولف » و « داجخرفن Daeghrefn بطل الهوجاس ، والهوجاس لقب من ألقاب الفرنج ،

وفى البيت ٢٩١٠ وما بعده إشارة إلى الهوجاس والهيتوارى وإلى ما ترتب على إغاراتهم من عداء بين الجيات والفرنج .

ويبدو أن الشاعر عمد إلى مجرد التلميح إذ كان مستقرا فى ذهنه أن المستمعين إليه يعرفون هذه الحوادث وهى متداولة بينهم . ومن خلال هذه الإشارات نستطيع أن نلم بمجمل الحوادث التى وقعت ، وملخص ذلك أن « هوجلاك » أبحر على سفينة وهاجم أقاليم الفريزيين . وكانت هذه الأقاليم جزءا من دولة الفرنج . واستطاع « هوجلاك » أن يحرز نصرا . وأن يظفر بكثير من الغنائم

غير أنه لما هم بالعودة إلى وطنه لاح له أسطول قوى من سفن الفرنج ، وأخذ هذا الأسطول يهاجمه بعنف ، ودارت معركة حامية الوطيس قتل خلالها « هوجلاك » وفى هذه المعركة استطاع بيولف أن يقتل « داجخرفن » بطل الفرنج وحامل لوائهم ، ثم ألقى بنفسه بعدئذ فى الماء وسبح إلى شواطىء الجيات حيث أصبح وصيا على عرش الدانيين ، ثم ملكا بعد ذلك .

وهناك أساس تاريخى لهذه الغارة ، فقد وقعت سنة ٥٢١ م ، وجاء ذكر لها فى كتاب « تاريخ الفرنج Historica Francorum وهو مؤلف قديم لمؤرخ يدعى « جريجوار دى تور » ، وضعه سنة ٥٧٥ م .

وقد جاء ذكرها أيضاً فى كتاب تاريخ ظهر حوالى سنة ٧٢٧م لمؤلف مجهول واسم هذا الكتاب « Liber Historiae Francorum » ، وهذان الكتابان يطلقان على هوجلاك اسما لاتينيا هو « Chochilaicus » ويعتبرانه — خطأ — ملكا على الدانيين .

وهناك مجموعة من القصص يغلب أنها أنشئت فى انجلترا خلال القرن السابع الميلادى ، وكتبت باللاتينية ، وتضمنها كتاب يدعى « كتاب الوحوش » (Liber Morstrorum) ، وفى القصص التي تضمنها هذا الكتاب إشارة إلى

اسمه باللغة الأنجلوسكسونية ، وفيها وصف بأنه ملك الجيات على نحو ما تقول الملحمة .

(١٨) يورمنريتش (Eormenric) . كان ملكا عظيما من ملوك القوط الشرقيين ، ووقع فى حرب مع « الهون » وهزم فانتحر حوالى سنة ٣٧٥ م ، وصار بعدئذ فى الملاحم الجرمانية والسكندنافية نموذجا للملك الظالم المستبد الذى يتصف بالجشع والغدر . ومما ينسب إليه أنه أمر بإعدام فتاة جميلة تدعى « سوان هيلد » وطلب أن يكون إعدامها بأن تدوسها الخيل بأقدامها حتى الموت ، كما ينسب اليه أنه أمر بشنق ابنه إثر وشاية من دساس شرير .

أما « هاما » فإنه فى الأساطير القديمة يوصف تارة بأنه كان ملازماً لايورمينريتش وتارة يوصف بأنه كان ملازما لعدوه البطل الجرمانى الذى يدعى « ثيودوريتش » أو « ديتريتش فون برن » الذى كان أيضاً من ملوك القوط الشرقيين .

(١٩) كان من الشائع أن « مودثروذ » (Modthryth) تمثل فتاة عنيفة متغطرسة تحكم بإعدام كل من تحدثه نفسه بالحملقة فى وجهها وتأمل جمالها ، ثم إنها لما وجدت فتى أحلامها وتزوجت منه تحولت إلى إمرأة مثالية تمتاز بالهدوء ، والطاعة ، والعطف ، وحسن التصرف .

وهذا النوع من النساء هو الذى استمد منه « شكسبير » شخصية البطلة فى روايته التى سماها « ترويض الشرسة » (The Taming of the Shrew)

وهناك رأى جديد يقول إن « ثروذ » معناه فى اللغة القديمة الغطرسة والطغيان . والانتقال المفاجىء من الحديث عن « هوجد » الملكة الحقيقية إلى « مود ثروذ » التى يظن أنها مجرد كلمة تفيد الغطرسة معناها وجود جزء مفقود من الملحمة ، ويقع هذا الجزء بين شطرى البيت رقم ١٩٣١ .

وهناك رأى آخر يقول إن الشاعر كان يشير إلى الملك « أوفا » الثانى الذى كان ملكا على مملكة مرشيا فى بريطانيا ، وكان جده الملك أوفا الأكبر حاكما على قبائل جرمانية فى القارة الأوربية ، وكانت له زوجة متكبرة متغطرسة جبارة تدعى « ثروذ » فيجوز أن مود ثروذ هى ثروذ نفسها .

وموجز قصة أوفا وثروذ أنه كان هناك فتاة جميلة ، ولكنها شريرة ، وتمت بصلة القرابة إلى شارلمان ، وارتكبت جريمة شائنة حكم عليها من أجلها أن توضع فى قارب بدون شراع أو مجاذيف ، ثم يدفع بها إلى لجة المياه فى وسط البحر لتذهب حيث تشاء لها المقادير وحيث تقذف بها الأمواج . ويروى أن الأمواج قذفت بها إلى شواطىء بريطانيا ، والذين عثروا عليها حملوها إلى الملك أوفا فسألها عن خبرها فزعمت له أن اسمها « دريدا » وأنها قد نفيت نتيجة دسائس دبرها لها رجال كانوا قد طلبوا الزواج منها فأبت ذلك عليهم ، لأنهم من طبقات أدنى من طبقتها .

وكان الملك قد سحر بجمالها فصدق روايتها وتزوج منها ، وبهذا الزواج صارت ملكة . ومنذ ذاك الحين ظهرت كبرياؤها وبانت غطرستها ، وعرف مدى حرصها على المال . وقد دأبت على تدبير المكايد والدسائس لزوجها ولرجال حاشيته وشعبه ، وكانت سببا فى قتل « آثلبرخت » Æthelberht ملك أنجليا الشرقية الذى طلب الزواج من ابنة « أوفا » . وبعد سنين قليلة ماتت ميتة شنيعة .

ولا شك أن هذه القصة كانت شائعة بين قبائل الجرمان والسكندنافيين ، ولكن بشىء من الخلط بين أوفا الأول وأوفا الثانى ، فآنا تنسب إلى هذا ، وحينا تنسب إلى ذاك . (انظر الصفحات من ٥٧ إلى ٦٤ من كتاب : The Audience of Beowulf بقلم Dorothy Whitelock)

(٢٠) القصة كما رواها المؤرخ Saxo Grammaticus هى أن « فروشو » وهو فى الثانية عشرة من عمره تولى عرش الدانيين ، وانتصر على ملكى السكسون « سورتنج » Swerting و « هانف » Hanef وفرض الجزية على كل منهما .

وكان ملكا مثاليا ، يمتاز بالشجاعة فى الحروب ، وبالكرم والنجدة . وحدث فى أحد الأيام أن « سورتتج » قرر أن يتحرر من سيطرة الدانيين فدبر مكيدة لاغتيالهم ، ولكن « فرودو » تنبه لها فقتله ، وإن كان قد قتل هو أيضا ، لخلفه ابنه إنجلوس (Ingellus) غير أنه لم يكن كأبيه فى مثله العليا ، بل عاش عربيدا ضعيفا ، وتزوج من ابنة سورتتج بإغراء من إخوتها الذين كانوا يضمرون الثأر لأبيهم ، وسمع بذلك « ستكاركا تيروس (Starca therus) رائد الملك « إنجلوس » فغضب غضبا شديدا من ذلك الزواج ، وحين بلغه هذا كان يقوم ببعض المغامرات فى خارج المملكة فعاد متنكرا فى زى الفقراء ، ودخل على الملك إنجلوس وهو يحتفل بأسرة زوجته بوليمة كبيرة ، وعلى الرغم من تنكره عرفه الملك وهم ليرحب به غير أنه رفض هذا الترحيب ، وألقى خطبة قوية أهمل فيها الملك ، وخطأه ، ووبخه على فعلته ، ولامه على أن يمتزج بأسرة باعدت بينه وبين أفرادها الدماء التى سفكوها ، وقال فيما قال : وكأنى بها تصرخ طالبة الثأر ولكنك بدلا من الثأر تطلب المصاهرة . . .

وكان لهذه الخطبة أثرها المنشود فقد أيقظت الملك ، وأثارت شعوره حتى لقد جرد سيفه وقتل أخوة زوجته قبل أن يقتلوه ، وبذلك استرد مكانة أسرته .

(٢١) فى العصور السحيقة كان بعض أبطال ورؤساء القبائل قد أخفوا هذا الكنز فى الأرض ، ودعوا باللعنة على كل من يمسه أو يستولى عليه ، وحدث أن جماعة من المقاتلين وجدوه فاستولوا عليه ، وأحسنوا استعمال أسلحته ، ثم مات هؤلاء واحدا إثر الآخر ، حتى لم يبق منهم إلا شخص واحد رأى أن يجمع الكنز كله ويدفنه فى كهف ، فلما أتم ذلك مات هو الآخر ، وظل الكنز مدفونا حتى عثر عليه التنين فلم يمسه بل ظل قائما على حراسته ثلثمائة عام حتى حدث أن عبدا آبقا سرق من هذا الكنز كأسا فأثار ذلك ثائرة التنين ، ودفعه الغضب إلى الغارات على القصر وإلى المعركة المروعة التى دارت بينه وبين بيولف ، وانتهت بموتهما معا .

وبعد موت بيولف دفن الكنز مع الرماد المتخلف من حرق جثته ، وبذلك عاد الكنز إلى الأرض كما خرج منها .

وفى الأساطير السكندنافية قصص ترى أن المقاتل الذى بقى من الجماعة الذين عثروا على الكنز واستعملوه هو نفسه الذى تحول إلى تنين ، وقام على حراسة الكنز تكفيرا عن أخطاء زملائه ، وبناء على هذه الرواية يكون هو الذى دارت المعركة بينه وبين بيولف .

(٢٢) الخطبة التى ألقاها المقاتل الذى بقى بعد إخوانه مرثية تتمتع بشهرة واسعة فى الأدب الانجلوسكسونى .

(٢٣) كان من عادات القبائل السكندنافية أن الأسر الكريمة فيها تكل أمر تربية أطفالها إلى أسر أخرى كما كانت الحال عند العرب فى الجاهلية ، وكما كانت قريش بصفة خاصة ، ووفقا لهذا الأسلوب من الحياة لم ينشأ بيولف فى بيت والده ، ولكن نشأته كانت فى بيت « خريثل » (Hretbel) ملك الجيات الذى هو جده لأمه .

(٢٤) كانت الشريعة السائدة فى هذه القبائل أن القاتل يقتل أو يدفع الدية ، ولو كان القتل عن غير عمد ، ولذلك فإنه لما قتل « هاثكون » (Haethcǽn) أخاه « هيربيالد » (Herebeald) خطأ كان من واجب أبيهما « خريثل » أن يثأر لابنه القتيل من الابن الآخر القاتل ، غير أن شريعة القبائل كانت من جهة أخرى تحرم على الوالد وعلى الولد أن يقتل أحدهما الآخر فى الثأر ، لهذا لم يقتل « خريثل » ابنه فى الثأر ، ولكنه ظل فى كمد حتى قتله هذا الكمد .

(٢٥) « الجفثاس » (Giftbas) قبيلة بينها وبين القوطيين صلة قرابة ، وهى من القبائل الرحالة ، لذلك ترك رجالها إقليمهم عند مصب نهر الفستولا فى منتصف القرن الثالث الميلادى وسكنوا على ضفاف نهر الدانوب — وفى النصف

من القرن السادس أغارت عليهم قبيلة « اللانجوبارد » ودمرتهم . ويبدو من هذه الملحمة أن الشاعر يتكلم عنهم كأنهم ظلوا فى ديارهم القديمة عند مصب نهر الفستولا .

(٢٦) الجبن الذى حدث من أتباع بيولف العشرة ، وهربهم إلى الغابة ساعة مقاتلته للتنين يمكن أن يقارن بهرب تلاميذ المسيح حين قبض عليه جنود الرومان ، ويخيل إلينا أن قصة تلاميذ المسيح هذه كانت ماثلة فى ذهن الشاعر وهو يكتب هذا الجزء من الملحمة .

(٢٧) فى البلاد السكندنافية فى العصر الوثنى كان حرق الجثة سنة متبعة لديهم من زمن بعيد ، وهناك مايدل على أن ذلك كان قائما فى النصف الثانى من العصر البرونزى . وكان الوثنيون من الأنجلوسكسون يحرقون جثث موتاهم ، ومنهم من كان يدفنها ، ولكن فى جنوبى انجلترا كان المألوف هو الدفن ، ولما انتشرت المسيحية هناك أخذت الكنيسة تحارب عادة إحراق الجثث لأنها مظهر من مظاهر الوثنية .

أعلام الملحمة

إدغثيـو :

من عائلة الواجموندنج المتفرعة من قبيلة الجيات ، تزوج الابنة الوحيدة لحريثل ملك الجيات ووالد هوجلاك ، ومنها أنجب البطل بيوالف . كان قد قتل هيائولاف من قبيلة الولفنج وهرب ليحتمى بخرونجار ، فأجاره وتولى عنه دفع دية القتيل .

إدجـلاف :

والد أونفرث .

إدجويـلا :

أحد قدامى ملوك الدانيين ، وتاريخه مجهول .

آرشولدنجاس :

الشولدنج المظفرون ، وهو أحد ألقاب قبيلة الدنيين .

إسكيدينج :

منطقة فى أقصى الجنوب من شبه الجزيرة السكندنافية ، ويقال إنها أصل موطن الدانيين .

آشـير :

مستشار خرونجار ، وهو أيضاً أخو أورمنلاف الأكبر ، وقد اختطفته أم جرندل انتقاما لابنها القتيل ، ثم أكلته .

إنجلـد :

أمير الهيائوبارد ، وابن فرودا ، تزوج من فرياوارو ابنة خرونجار ملك الدانيين .

الأنجـــــوين :

أحد ألقاب الدانيين ، ومعناه رفاق إنج الذى هو أحد قدماء أبطال الدانيين

أوردلاف :

وهو أخو آشير الأصغر .

أوسـلاف :

ويعرف أحيانا باسم أوردلاف ، أحد للقاتلين من قبيلة الدانيين .

أوفـا :

اسم ملك الأنجل الذى كانوا يسكنون القارة الأوربية .

أونجنثيو :

ملك السويد ، ووالد أونيلا وأوهثيرى ، وقد وقعت أسيرة فى يد هاثكون ملك الجيات ، لذلك أغار على أرض الجيات وخلصها من الأسر ، وقتل هاثكون ولكن هوجلاك طارده على رأس جيش حتى قتله بيد أحد أتباعه .

أونفيرث :

أحد أتباع خروثجار ، دارت بينه وبين بيولف خصومة كلامية وتهاجيا كثيرا ، ولكنه بعد ذلك أعار بيولف سيفة ليقاتل به أم جرندل .

أونيـلا :

أمير سويدى ، وهو أخو أوهثيرى . أغار على إقليم الجيات وقتل هياردريد.

أوهثيرى :

أمير سويدى ، وابن الملك أونجنثيو ، وأخو أونيلا ، ووالد أياخوند وإيادجلس

إيادجلس :

أمير سويدى ، الابن الأصغر لأوهثيرى ، وقد غزا بلاد السويد بمساعدة

البطل بيولف وتمكن من قتل أونيلا ، وخلفه على عرشه .

إيارناناس :

اسم لسان ممتد فى البحر ، بالقرب من المكان الذى صارع فيه بيولف التنين

إيامونند :

الابن الأكبر لأوهثيرى ، وهو من أمراء السويد ، قاما بثورة ضد عمهما أونيلا ملك السويد ، ولكنه استطاع أن يخمد الثورة ، وأن ينفيهما من البلاد ، فالتجأ إلى هياردريد ملك الجيات فرحب بهما . ولكن ملك السويد هاجم ملك الجيات وقتله ، كما قتل فى المعركة أيامونند بسيف ويوخستان أحد جنود الملك أونيلا المرتزقة .

إيوفور :

محارب من قبيلة الجيات ، وهو ابن ونرد وأخو واف الذى خف إلى معونته وهو يصارع أونجنثيو ملك السويد ، وتمكن من قتله . وقد أعجب هوجلاك بشجاعتهما وكافأهما بأن زوج ابنته الوحيدة من أيوفور .

إيوتان :

اسم يطلق على عشيرة فين ملك الفريزيين .

إيومير :

ابن أوفا ملك الأنجل ، واسمه يتكون من مقطعين : إيو بمعنى جواد ، ومير بمعنى شهير .

بروسينجاميني :

اسم لقلادة مشهورة كانت تملكها الإلهة مريتا وكانت قد انتزعتها من الأقزام الذين يسمون البروسنج ، أو البريسنج ، وسرقها منها الإله لوركى .

وتشبه بها القلادة التى منحت للبطل بيولف بعد أن قتل الوحش وأمه .

بْرِيــكَا :

ابن بيانستان ، وأحد زعماء قبيلة البروندنج ، وقامت بينه و بين البطل بيولف منافسة فى السباحة .

بِيَانْ سْتَانْ :

والد بريــكا .

بيُورْنْخْتْ دِينِى :

الدانيون اللامعون ، وهو أحد ألقاب قبيلة الدانيين .

بِيُولْــفْ الأول :

ليس هذا بطل الملحمة ، ولــكنه أحد أجداد خروبجار ملك الدانيين .

بِيُولْفْ الثانى :

هذا بطل الملحمة ، وهو من قبيلة الجيات ، ووالده أدجثيو ليس أصلا من القبيلة ، إلا أن أمه هى ابنة خريثل ملك الجيات ، وأخت هوجلاك خليفة الملك خريثل ، وولى البطل . وتذكر الملحمة فى نهايتها أن البطل تولى الملك ، ثم قتله التنين .

جَارْمُونْدْ :

والد أوفا ملك الأنجل .

جْرِنْدِلْ :

الوحش الذى كان يغير على قصر هيوروت ، وقد قتله بيولف . والملحمة تنسب هذا الوحش إلى سلالة قابيل بن آدم .

الجِفْنَاسْ :

اسم قبيلة جرمانية شرقية ذات صلة قرابة بالقوط ، كانوا يقطنون شواطىء نهر الفستولا وفى القرن الثالث الميلادى هاجروا إلى بلاد المجر حيث أقاموا مملكة ، وفى القرن السادس غزتهم قبيلة اللانجوبارد وهزمتهم ، واختفى ذكرهم بعدئذ .

جُونْلَافْ :

محارب من الدانيين ، وهو من أتباع خناف وهنجست .

الْجِيــاتْ :

اسم القبيلة التى كان ينتمى إليها بيولف ، وكانت تقطن السويد فى المنطقة الواقعة جنوبى البحيرات الـكبرى ، ومن العلماء من يقرر أنهم من القوطيين ، منهم من يقول إنهم والجوت من أصل واحد ؛ ولا يوجد دليل قاطع على صحة كل من الرأيين . وهم يلقبون فى الملحمة باسم « الجيات المحاربون »

و « جيات البحر »

و « جيات الجو والهواء »

وكل هذه ألقاب تشير إلى ما لهم من فضل فى الحروب .

خْرِفْنَاوُودُو :

اسم غابة فى السويد قتل أونجثيو فيهما خصمه هاثـكون .

خْرُونْجَارْ :

ملك الدانيين ، ابن هيالفدينى ، وأخو هيوروجار وهالجا ، وزوج ويالخثيو ، ووالد كل من : خريثريتش ، وخروثموند ، وفرياوارو .

خَرُونْمُونْدْ :

ابن خرونجار

خَرُونْولْفْ :

ابن هالجا أخى خرونجار الأصغر .

خَرُونْتِنْجْ :

اسم السيف المرصع الذى أعاره أونفرث لبيولف لكى يقاتل به أم جرندل .

خَرُونِسْنَاسْ :

اسم للسان ممتد فى البحر يسمى لسان الحوت، وقد اختاره بيولف، قبل أن يموت، مكانا لحرق جثته.

خَرِيثِلْ :

ملك الجيات ، والد هوجلاك ، وجد بيولف لأمه . مات حزنا على موت ابنه الأكبر هيربيالد حين قتل خطأ بسهم أخيه هاثكون

خَرِيثْلِنْجْ :

أى ابن خريثل ، و به لقب كل من : هوجلاك ، وهاثكون .

خَرِيثْرِيكْشْ :

أحد أبناء خرونجار .

خَرِيُوسْنَابِيُورْخْ :

اسم تل فى بلاد الجيات ، كان ميدان معركة بين السويد والجيات .

خْنَافْ : —

ابن هوك ، وأخو هيلدبورخ . كان من زعماء الدانيين ، ومات فى معركة ضد الملك فين .

دَاجْخْرِفْنْ :

فارس الموجاس ، والموجاس هو الاسم القديم لقبيلة الفرنج . يبدو أنه هو قاتل هوجلاك ، ثم قتله البطل بيولف فى المعركة التى دارت بين الجيات و بين الفرنج والفريزيين . وكلمة « داج » معناها اليوم أو النهار ، وكلمة « خرفن » معناها الغراب .

الدَّانِيُونْ :

هم الشعب الذى كان يحكمه خرونجار ، وقلعتهم هى قصر هيوروت ، وإقليم جنوبى السويد ، و بعض مناطق جوتلاند فى الدانمارك ، والجزر المجاورة لها . ولهم ألقاب كثيرة فى هذه الملحمة منها : الدانيون اللامعون ، والدانيون حاملو الرماح ، والدانيون أولو الأختام . وأحيانا يسمون الشولدنج نسبة إلى الأسرة المالكة، وأحيانا يسمون الانجوين ، أى رفاق « انج » أحد آلهتهم القديمة ، وجاء ذكره فى تاريخ تاسيتوس لشعوب الجرمان .

السُّوِيدِيون :

اسم قبيلة كانت تسكن منطقة فى النصف الشرقى من السويد حاليا .

ـوِيزتِنج :

أحد أجداد هوجلاك ملك الجيات .

سِيجْمُونْدْ :

ابن والس ، وعم فيتيلا .

الشُّولْدِنْج :

أي سلف شولد ، و يطلق هذا الاسم على الدانيين عامة .

شُولْدْشِيفِنْج :

تعده الأساطير السكندنافية مؤسس الأسرة المالكة فى قبيلة الدانيين ، وترجمة اسمه « الراعى حامل حزمة القمح » وذلك مما دعا بعض العلماء إلى أنه أحد آلهة الخصب .

الشُّولْفِنْج :

هم السويديون ، والاسم هو نفس اسم الأسرة الحاكمة لهم .

الفَرْنْج :

أقوى قبائل غربى أوربا خلال القرن الثامن الميلادى ، كانت تسيطر على أكبر مساحة فى فرنسا ، وهى المنطقة التى تعرف الآن باسم ألمانيا ، والأرض الواطئة . وقد قتل هوجلاك حين أراد فتح الأرض الواطئة لحارب ضد جيش يتألف من الفرزيين والفرنج .

فْرُودَا :

زعيم قبيلة الهياثو بارد ، ووالد انجلد .

فِرْيَاوَارُو :

بنت خروثجار من زوجته ويالثيو . وقد تزوجت من أنجلد أمير قبيلة الهياثو بارد .

الفِرِيزْيُون :

قبيلة كانت تسكن الأرض الواطئة ، ويدينون بالطاعة للإفرنج ، وكان فين ملكا عليهم .

الفِهِيرِى :

أحد أقارب ويجلاف .

فُولْكُوَالْدَا :

والد فين .

فِيتِيلاَ :

ابن سيجموند ، وشريكه فى المعارك . وقصتهما تروى فى ملحمة الفولسنج الأيسلندية .

فِين :

ملك الفريزيين ، وحاكم اليوت . وهو ابن فولكوالدا ، وزوج هيلد بورخ أخت خناف .

الفِينِيُّون :

قبيلة كانت تقطن لابلاند وأجزاء أخرى من فنلندا الحديثة . بعد مسابقة بين بيولف وبين بريكا فى السباحة قذفت الأمواج بيولف إلى شواطىء هذه القبيلة .

قَابِيـــل :

أحد ابنى آدم ، وهو الذى قتل أخاه هابيل ، وتعتبره الأساطير السكندنافيه أصل كل العمالقة والوحوش ، ومنهما جرندل وهو الوحش الذى قتله

البطل بيولف .

الميروونج :

أى ملك الفرنج ، وذلك نسبة إلى الأسرة المالكة عندهم ، وكانت تسمى الميروونجية .

ناجلنج :

اسم السيف الذى حارب به بيولف التنين .

هابيل :

أحد ابنى آدم ، وقد قتله أخوه قابيل .

هانكون :

ملك الجيات ، والابن الأصغر لخريثل ، وقد قتل أخاه الأكبر خطأ فى حياة أبيه . خلف أباه على العرش بعد موته ، ولكنه قتل بعد ولايته الملك فى معركة اونجنثيو ضد ملك السويد .

هارث :

والد هوجد زوجة هوجلاك .

هالجا :

الابن الأصغر للملك هيالفدينى ، وهو أخو خروثجار الأصغر .

هاما :

أحد أبطال أساطير القوط .

الهتوار :

اسم قبيلة من الفرنج ، مات هوجلاك فى غارة عليهم .

هلدبورخ :

زوجة الملك فين .

الهلفنج :

اسم للقبيلة التى تنتمى إليها ويالخثيو قرينة الملك خروثجار .

همنج :

أحد أقارب كل من أبوفا وابنه أيومير .

هنجست :

من زعماء الدانيين بعد موت خناف .

الهوجاس :

لقب من ألقاب الفرنج .

هوجد :

زوجة هوجلاك ملك الجيات . ومعنى اسمها الحرص والتأنى .

الهوجاس :

لقب من ألقاب الفرنج .

هوجلاك :

ملك الجيات ، وخال بيولف .

هولد :

ملك الدانيين ، ووالد خناف وهيلدبورخ .

هوندشيو :

أحد أتباع بيولف الأربعة عشر ، وقد ازدرده جرندل قبل أن يهاجم بيولف نفسه .

هُونلاَفِنْج :

أحد أتباع خناف وهنجست .

الهِياثُوبَارْدْ :

قبيلة جرمانية كان ينتمى إليها أنجلد ، وكان بينها و بين الدانيين عداء ، وقد حاول خروثجار إطفاء هذه العداوة بتزويج ابنته من انجلد ولكنه مع ذلك لم يفلح .

الهِياثُورِيم :

قبيلة كانت تعيش جنوبى النرويج ، وعلى شواطىء بلادها قذفت الأمواج ريكا .

هِياثُولاَف :

مقاتل من قبيلة الولفنج ، وقد قتله أدجثيو والد بيولف .

هِيارْدْرِيدْ :

ملك الجيات ، وابن هوجلاك ، وخليفته . قتل فى معركة مع السويديين بسيف مليكهم أونيلا ، وقد خلفه بيولف على عرش الجيات .

هِيالْفْدِينى :

أحد ملوك الدانيين ، وهو والد خروثجار .

الهِيالْفْدِينى (النصف دانيين) :

اسم للقبيلة التى ينتمى إليها خناف وهلدبورخ ، و بينها و بين قبيلة الدانيين صلات ، ولكنها مستقلة عنها .

هِيرِبيَالْدْ :

أحد أمراء الجيات ، وهو ابن الملك خريثل . قتله أخوه خطأ بسهم .

هِيرِيرِيتْش :

خال هيارديد

هِيرِيمُودْ :

أحد ملوك الدانيين القدامى ، اشتهر بالقسوة والظلم .

الهِيلْمِنج :

اسم الأسرة التى تنتسب إليها ويالخثيو قرينة خروثجار

هيُورُوتْ :

اسم القصر الذى بناه خروثجار ، وسمى هكذا بالنسبة لهيوروت التى معناها « الوعل » وذلك لأن بانيه وضع على بابه قرون وعل ، ويجمع علماء الآثار على أن مكانه الآن هو « ليرى » بمقاطعة زيلند بالدانيمارك . وقد أحرق هذا القصر أثناء الحرب بين الدانيين والهياثوبارد .

هيُورُوجار :

الأخ الأكبر لخروثجار ، وأسلحته قدمها خروثجار لبيولف الذى قدمها بدوره إلى هوجلاك .

هيُورُووبَارْدْ :

ابن هيوروجار .

الوَاجْمُونْدِنج :

أسرة متصلة بالجيات كان ينتمى إليها بيولف .

وَالْزْ :

والد سيجموند .

وُلْسفْ :

ابن وَنْرِيد ، وأخو ايور .

وُلْفْجارْ :

أحد زعماء الوندل ، ومن رجال حاشية خروثجار ، وكانت مهمته تقديم الزوار إليه.

الْوُلْفنج :

إحدى القبائل الجرمانية التى كانت تعيش على شواطىء بحر الباطيق .

الوِنْدِلْ :

قبيلة كانت تقطن السويد ، ثم هاجرت إلى شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، ويقال إنهم أصل الفندال .

وُنْرِيدْ :

والد ايوفور وولف .

ويَلْخثِيُو :

زوجة خروثجار ملك الدانيين .

وِيجْلافْ :

ابن ويوخستان ، وهو من أقارب بيولف وقد ساعده فى قتاله مع التنين ، وهو الذى تلقى وصايا بيولف وهو يجود بروحه .

ويذِرْجُولْدْ :

أحد المقاتلين من قبيلة الهياثوبارد .

ويُوخْسْتانْ :

والد ويجلاف ، وقاتل ايانموند

ويلاَنْدْ :

هو الحداد الأسطورى الذى صنع درع بيولف .

يُورْمِنْرِيكْش :

أحد ملوك القوطيين الشرقيين ، ترسم له الأساطير الجرمانية صورة الملك الغاشم المستبد . ومعنى اسمه القوى العظيم .

الاسرة الدانية المالكة

شولو شيفنج

بيولـــف

هيالفدينى

- هيوروجار
  - هيوروويارد
- خرونجـــار (زوج ويالختيو)
  - خريثريتش
  - خروثموند
  - فرياوارو (زوجة إنجلد)
- بنت مجهولة الاسم (زوجة أونيلا)
- هالجـــا
  - خرونولف

الاسرة السويدية المـــالكه

أونجثيو

- أونيلا
- أوهثيرى
  - إيادجلس
  - إيايموند

الاسرة الجياتية المـــالكة

خريثـــل

- هيرنيالد
- هاثكون
- هوجلاك (زوج هوجد)
  - بنت مجهولة الاسم (زوجة إيوفور)
  - هياردريد
- بنت مجهولة الاسم (زوجة إدجثيو)
  - بيولف

الممالك الأنجلو سكسونية

الخريطة رقم (١)



رسم مختار عبد الجواد

جغرافية الملحمة

الخريطة رقم (٢)



رسم مختار عبد الجواد

مقترحات

لمن يريد الاستزادة من دراسة هذه الملحمة

(١) أوثق النصوص :

(1) Beowulf and the Fight at Finnsburg, edited, with Introduction, Bibliography, Notes, Glossary and Appendices by F. Klaeber. 3rd. edition, with supplement (New York, D. C. Heath and Co., 1941).

هذا نص لابد من الاطلاع عليه فى دراسة هذه الملحمة لما يتضمنه من عرض اختلافات النسخ المتباينة ونقد كل ناحية من نواحيها .

(2) Beowulf. edited with Introduction, Bibliography, Notes, Glossary and Appendices: by W. J. Sedgefield' 3rd edition (revised and partly re-written) (Manchester University Press, 1935)

وهذا نص محقق ، وإن كانت تعليقاته أقل من سابقه

(3) Beowulf with the Finnesburg Fragment edited with an Introduction and Notes by C.L. Wrenn (London. 1953)

وهذا أحدث نص محقق للملحمة ويتضمن كثيراً من آراء النقاد المحدثين ، ولكنه لا يغنى الباحث عن النظر فى النص الذى حققه Klaeber

(ب) التراجم :

ترجمت هذه الملحمة أكثر من مرة إلى اللغات الإنجليزية الحديثة والألمانية والدانيماركية والنرويجية والسويدية والهولاندية والفرنسية والإيطالية واللاتينية . وأحسن الترجمات الإنجليزية الحديثة .

(1) Beowulf and the Finnesburg Fragment. A Translation into Modern English Prose by John R. Clark Hall, New Edition completely revised, with notes and an an Introduction by C.L. Wrenn, with Prefatory Remarks by J.R.R. Tolkien. (London, George Allen and Unwin Ltd., 1940).

وهذه ترجمة دقيقة بعيدة عن المحسنات اللفظية ، ومفيدة لمن يقابل الترجمة بالأصل .

ويلاحظ أن كل الترجمات إلى الشعر الإنجليزى الحديث يعوزها الدقة من ناحية والسلامة فى التعبير من ناحية أخرى .

(2) Beowulf. A Prose Translation with an Introduction, by David Wright (Harmondsworth. Penguin Books, 1957).

وهذه ترجمة فيها تصرف وإيجاز ، وإن كانت تمتاز بسهولة التعبير وإمكان قراءتها مستقلة عن الأصل .

وأحسن الترجمات الفرنسية :

Beowulf et les Premiers Fragments Epiques Anglo-Saxons. Etude Critique et Traduction , par W. Thomas.

وهذه ترجمة حرفية ظهرت فى أعداد مختلفة من مجلة تعليم اللغات الحية .

(Revue de l'Enseignement des Langues Vivantes, Vols. XXX, XXXI, XXXIII, XXXIV. Paris. 1913—1917).

وأحسن الترجمات الألمانية :

Beowulf nebst bem Finnsburg - Bruchetuck ubersetzt, by Hugo Gering, 2nd edition. Heidelberg, 1929).

ورغم أن المترجم التزم التجانس الصوتى فى أوائل الكلمات فإن هذا لم يخرج الترجمة عن حدود الدقة .

وأحسن الترجمات الإيطالية :

Beowulf, Frederico Olivero (Torino, 1934)

تمتاز هذه الترجمة بمقدمة طويلة قيمة تعالج البيئة الأدبية التى تمت فيها ملحمة بيولف . غير أن النص الذى اعتمدت عليه هذه الترجمة لم يكن أحدث النصوص تحقيقا .

(ج) النقد الأدبى :

الكتب والمقالات فى نقد هذه الملحمة وشرح معانيها كثيرة ومتصلة إلى وقتنا هذا ، ولكن أهمها بالنسبة لمن يريد أن يقف على أبرز نقاط النقد لهذه الملحمة هى :

(1) W.P, Ker : Epic and Romance. Essays on Medieval Literature, 2nd edition (revised) London, Macmillan and Co. Limited, 1908

وهذا المرجع دراسة قيمة لكل أنواع القصص الأدبى فى أوروبا فى العصور الوسطى وما قبلها . وفى الفصل السادس من الباب الثانى دراسة مستفيضة لفن القصص فى ملحمة بيولف .

(2] R.W. Chambers : Beowulf : An Introduction to the Study of the Poem with a Discussion of the Stories of Offa and Finn (Cambridge University Press. 1921.)

وهذا من أهم المراجع للمتعمقين فى دراسة هذه الملحمة اذ يتناول العناصر التاريخية والأسطورية للملحمة وأصولها .

(3) J.R.R. Tolkien : Beowulf : The Monsters and the Critics. (Sir Israel Gollancz Memorial Lecture. Proceedings of the British Academy. Volume XXII, 1936).

وهذه محاضرة ألقاها أستاذ الأدب الإنجليزى القديم فى جامعة أكسفورد سابقا ، وهى بالغة الأهمية نظرا لأن جميع ما كتب بعدها من النقد الأدبى لهذه الملحمة إما أنه متأثر بها ، وإما أنه يعتبر رد فعل لها .

(4) Adrien Bonjour : The Digressions in Beowulf (Oxford University Press. 1950.)

أما هذه فدراسة مستفيضة للبناء الملحمى فى شعر بيولف ، وهى فى الوقت نفسه تحديد لوظائف الاستطرادات والخطب بالنسبة للعنصر القصصى فيه .

(5) Dorothy Whitelock : The Audience of Beowulf (Oxford University Press, 1951)

وهذا الكتاب رغم قصره يتضمن جديدا ، وهو أنه يعرض للجمهور الارستقراطى الأنجلوسكسونى الذى أنشدت هذه الملحمة أمامه ، ويبين كيف تأثر شاعر الملحمة المجهول بأذواق مستمعيه وقيمهم .

(د) البيئة الإنجليزية القديمة .

(1) Sir Frank Stenton : Anglo-Saxon England, 2nd edition (Oxford University Press. 1947).

وهذا هو المرجع الجامع الشامل لكل ما يتناول ظروف الحياة للمجتمع الانجلوسكسونى من الناحيتين الاجتماعية والتاريخية .

(2) Dorothy Whitelock : The Beginnings of English Society Volume 2, «The Pelican History of England» (Harmondsworth, Penguin Books, 1952)

وهذا تحليل موجز للمجتمع الأنجلوسكسونى بالقياس الى المرجع السابق ، كما أنه يسهل تداوله للدارس العادى .

التصويب

وقعت بعض أخطاء مطبعية ننبه إليها القارئ فيما يلى ليستدركها :

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
السلتيدين	السلتيين	١٠	٤
فيها أثر أى	فيها أى أثر	٢٣	١
يدية يقدمها	بدية يقدمها	٣٣	١٧
Forl	Eorl	٤٠	٢
كارل ولنهوف	كارل ملنهوف	٥٥	٩
بهدف	يهدف	٥٥	١٦
الشنطاين	الشيطانين	٧٣	٨
الفرنح	الفرنج	٨٣	٩
الذى منحة	الذى منحه	٩٩	٩
وملازمة	وملازمه	١٨٠	٢٠
(بيولف)(اجثيو)	(بيولف) بن (ادجثيو)	١١٧	١٣
كان رفيقا	كان رقيقا	١٥٩	١٢
آثار الأمة	آثارا لأمة	١٥٩	١٧
داجرفن	داجخرفن	١٦٧	١٢
المسيحية	بالمسيحية	١٩١	٦
أو احتماء	واحتماء	١٩١	٤١

فهرس